

جماعة المسلمين

محفوظ
جميع الحقوق

الطبعة الرابعة

دار الجابية

لندن - بريطانيا

DAR AL-JABIA

P.O.Box: 508 London UB5 9GF

daraljabia@gmail.com

الحكم بغسر ما أنزل الله
وأهل الغسل

جماعة المسلمين

محمد سرور زين العابدين

دار الجابية

لندن - بريطانيا



مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى رسله أجمعين، ومن اهتدى بهديهم واعتصم بحبلهم المتين، أما بعد:

فقد ألزمت نفسي أن لا أعيد طباعة كتاب من كتبي إلا بعد قراءته، وإعادة النظر بكل ما ورد فيه، ثم أسأل نفسي:

هل لا تزال قناعتني به كما هي عندما أقدمت على تأليفه؟!.

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل يستحق الكتاب إعادة طباعته، أم أنه أدى دوره في الوقت الذي طبع فيه، واستنفذ أغراضه؟!.

كان أول شيء فعلته بعد مراجعة هذا الكتاب - وكل كتاب - تهذيب بعض الكلمات، وقد أحذف أحياناً بعض المقاطع أو أعيد صياغتها لتكون أكثر هدوءاً دون أن تفقد شيئاً من معناها، فالإنسان في مثل هذه السن^(١) تتسع تجربته، ويزداد علمه، وينفر من الشدة والضجيج في حواراته وصياغة أفكاره.

أما الشيء الثاني فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل حوالي ربع قرن، وخلال هذا الزمن الطويل وصلتني رسائل كثيرة من القراء،

(١) المؤلف من مواليد عام ١٩٣٨م، ولا يعرف اليوم ولا الشهر الذي ولد فيه.

استفدت منها عند مراجعتي للكتاب، ولم أهمل منها شيئاً، اللهم إلا رسائل بعض طلاب الدراسات العليا -الدكتوراه- الذين طلبوا المصادر التي نقلت عنها، وهذا غير ممكن، ولو قرؤوا مقدمة الطبعة الأولى جيداً لعلموا ذلك، أما الذين تفضلوا بزيارتي فأمرهم يختلف عن الذين راسلوني. لقد دار بيني وبينهم حوار فعّال، وقدّمت لهم ما أظن أنهم استفادوا منه، وأنا استفدت منه لأنني علمت منهم بأن الله سبحانه وتعالى هياً لهذه الأمة رجالاً من أهل العلم يواجهون أهل الغلو ويفندون أباطيلهم.

وقبل الفراغ من مقدمة الطبعة الرابعة أود الإشارة إلى ما يلي:

- ١- حذفت من الطبعات السابقة المبحث الخامس من الفصل السادس، لأنه من صنع غيري، وكانت هناك حاجة إليه، وهو من صفحة ٢٧١ إلى ٢٨٣.
- ٢- لفت نظري أنني عندما تحدثت عن إطلاق سراح المسجونين في بداية عهد السادات، اعتبرته تحصيل حاصل، وعزوته إلى دهاء الحاكم الجديد ومكره. وهذا الموقف يفتقد العدل والإنصاف فالسادات بادر في بداية حكمه إلى إطلاق المعتقلين السياسيين من مختلف الاتجاهات، وأعادهم إلى وظائفهم، وسمح لمن شاء منهم بالسفر بحثاً عن عمل خارج مصر، وأعطى الناس في السبعينيات من القرن الماضي هامشاً من الحرية لا بأس به..

ومثل هذه الأفعال لا بد أن تحسب لصاحبها مهما كانت دوافعه، ولا يجوز

الاستخفاف بها.

اللهم اجعلنا من أهل العدل والإنصاف، وأرنا اللهم الحق حقاً وارزقنا
اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، والحمد لله رب العالمين.

٢٧ رمضان / ١٤٣١هـ

محمد سرور زين العابدين

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران]

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وِنِسَاءً ءَاتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء]

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

ففي سنة ١٩٦٧م طلب رجال الأمن من جميع الدعاة المعتقلين في سجن [ليمان طره] تأييد ومبايعة رئيس الدولة، ورمز النظام المصري جمال عبد الناصر، وانقسم الدعاة من هذه الفتنة التي فجرها النظام إلى ثلاث فئات:

- فئة قليلة جداً أيدت النظام تأييداً مطلقاً وزعمت أنها تتكلم باسم جميع المعتقلين.
- وقسم أثر الصمت لأنهم يعلمون حقيقة ما يجري داخل السجون، وتركوا

المجال لأقطاب تأييد النظام يتكلمون باسمهم مع أنهم يمثلون معظم المعتقلين في أبي زعل وليمان طره.

- فئة قليلة رفضت تأييد ومبايعة عبد الناصر لأنه كافر مرتد عن الإسلام، وكذلك أعوانه من الوزراء وكبار المسؤولين، ثم تطورت أفكارهم فراحوا يكفرون آحاد المسلمين سواء أحوكماً كانوا أم محكومين.
- ومما لا شكّ فيه أنّ همجية النظام، واستخفافه بكلّ القيم، وشدة تنكيهه بالدعاة إلى الله... كلّ ذلك كان أرضية خصبة لنشوء مثل هذه الأفكار ونموها فيما بعد.

وكان شكري أحمد مصطفى [مواليد ١٩٤٢م] من أبرز الشباب الذين تزعموا هذا الاتجاه، وكان عمره لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً، وكانت بضاعته من العلم مزجاة، وما كان يعرف مثل هذه الأفكار لولا شيخ سجين تورط في هذه الفتنة ورفع عقيرته منادياً بتكفير مرتكبي الكبيرة.

وأصرّ التلميذ العنيد -شكري- على التمسك بهذه الأفكار والتصورات رغم تراجع شيخه عنها، وإعلانه البراءة منها أمام ملاء من الناس.

وتبوأ شكري مركز شيخه، وانكب على المراجع والمؤلفات القديمة يستقي منها تصورات الخوارج ونشأتهم وأصولهم، وكيف كانوا يحاورون خصومهم من أهل السنة والجماعة، فالتفّ عدد من الشباب حوله، بعد أن أعجبوا بشجاعته، واستخفافه بقوة الطاغوت، كما أعجبوا بأفكاره الجديدة التي تمثل - على حد زعمهم - الثبات على الحق، والتميز عن الباطل وأهله.

وفي أوائل السبعينيات كوّن شكري جماعته الجديدة وأسماها [جماعة المسلمين]، وبعد أن تمّ الإفراج عنه في أواخر سنة ١٩٧١ اتسع نشاط جماعته، وكثر أتباعها واشتد صراعها مع الجماعات والهيئات الإسلامية.

وفي أواسط السبعينيات بدأ شكري يصدر أوامره بقتل الذين يتخلون عن عضويتهم في هذه الجماعة؛ لأنه يراهم مرتدين عن الإسلام، كما أصدر أوامره بقتل الأفراد الذين يتصلون بأعضاء جماعته ويحاولون إقناعهم بفساد ما هم عليه من أفكار وتصورات.

ووقعت حوادث دامية استغللتها معظم الصحف المصرية أبشع استغلال، وحاولت من خلالها الإساءة إلى دعاة الإسلام ولو كانوا من خصوم هذه الجماعة، وأصبح غلو شكري ومن معه مجالاً للدهشة والاستغراب عند عامة الناس وخاصتهم في وادي النيل، وتوّج هذا المسلسل الرهيب من الاعتداءات باختطاف الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي -رحمه الله رحمة واسعة- ومن ثم الإقدام على قتله.

وكانت السلطة على علم بالجريمة قبل وقوعها، وقد وضعت لكل شيء عدته، ومنذ الساعات الأولى تحركت على محورين:

المحور الأول: ويمثله رجال الأمن الذين قاموا باعتقال الجماعة: قيادة وقاعدة خلال بضعة أيام، وأودعتهم أماكنهم المعروفة في السجون المصرية.

المحور الثاني: وتمثله أجهزة الإعلام من وكالات أنباء، وصحف، وإذاعات

محلية وعالمية، وقد عُبِّتْ أكثرها وجنِّدت ضد الإسلام والمسلمين، وليس ضد جماعة من جماعات الغلو.

لقد كانت أصابع الاتهام تمتد إلى كل داعية التزم بسنة المصطفى ﷺ وأعفى لحيته، كما كانت أصابع الاتهام تمتد ظلماً وزوراً إلى كل امرأة محجبة، وإلى كل جماعة مسلمة تعمل ليكون الدين كله لله.

وبعد أشهر قليلة من اختطاف الذهبي ومقتله صدرت أحكام المحكمة العسكرية بإعدام شكري مصطفى وأعوانه من قيادة الجماعة ونفذ الحكم فعلاً، كما صدرت الأحكام بالأشغال الشاقة على عدد كبير من أفراد الجماعة.^(١)

رحل شكري وكبار أعوانه عن دنيانا الفانية، وتخلي آخرون عن الجماعة وأفكارها، وهرب بعضهم من مصر ليستقرّ به المقام في بعض البلدان العربية.

وهناك سؤال يفرض نفسه بالحاح:

هل تستحق جماعة شكري مثل هذه الدراسة؟

وإذا كان الجواب: نعم، فلماذا جاءت بعد سبع سنين من تصفية الجماعة؟

نعم تستحق الجماعة هذه الدراسة للأسباب التالية:

(١) في الفصل الأخير من هذا الكتاب تحدثت عن نشأة هذه الجماعة وتاريخها، وعن العقلية التي يسوس بها شكري شؤون جماعته... كما تحدثت عن الأسباب والدوافع التي أدت لاغتيال الذهبي، وفصّلت القول في اشتراك السلطة في هذه الجريمة.

(١) لأنها أول جماعة في هذا العصر تزعم أنها جماعة الحق وجماعة المسلمين، وغيرها من الجماعات والأحزاب والهيئات الإسلامية مرتدة عن الإسلام أو متوقفة في أمرها، وقد أعادت إلى الأذهان تاريخ الخوارج، وكيف تعاملوا مع أهل السنة والجماعة؟ ثم تطورت أفكارهم فأصبحوا يتفوقون مع الخوارج في أمور، ويختلفون معهم في أمور أخرى.

وقبل عام ١٩٦٧م لم تكن مثل هذه الأفكار مطروحة في الساحة الإسلامية، وبعد نشأة هذه الجماعة تعددت جماعات أهل الغلو حتى أصبح عددها في مصر وحدها أكثر من عشر جماعات كما أخبرني بعض المطلعين من أهل هذا البلد.

ولما كان موضوع كتابي [الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو]، فلا بد لي من دراسة تاريخ وتصورات أقدم جماعة من جماعات أهل الغلو رفعت هذا الشعار موضحاً مواطن الانحراف عندها وأسبابه، ليكون الشباب على بصيرة من أمرهم.

(٢) لست مع الذين يرون بأن الجماعة قد انتهت بعد اغتيال الذهبي، ولا أنكر أنه قد تقلص نشاطها، وضعف شأنها بعد إعدام زعيمها وأهم أعوانه، واعتقال وهروب معظم أفرادها، ومع ذلك فالجماعة موجودة داخل مصر وخارجها؛ نعم، موجودة في مصر داخل السجون وخارجها، ولها تنظيم جماعي وقيادة، وإن كان أسلوب الجماعة في التبليغ والتنظيم قد تغير تغيراً جذرياً. أما خارج مصر فقد تلقف أفكار هذه الجماعة كثير من شباب العالم الإسلامي الذين كانوا يدرسون في المعاهد والجامعات المصرية، وقد عاد هؤلاء الشباب إلى بلدانهم

يدعون الناس إلى هذا الفكر الجديد ضمن إطار تنظيمي جماعي، ومن جهة أخرى فقد كان شكري يرسل الدعاة إلى بعض بلدان العالم الإسلامي على هيئة عمال وفنيين، وكان لهؤلاء الدعاة أثر ملموس في أكثر من بلد عربي. لذا، لم تبق قضية هذه الجماعة محصورة داخل مصر، ولم ينته أمرها بعد اغتيال الذهبي.

(٣) كتب كثير من الناس عن هذه الجماعة، ولكن لم أجد في كل ما كُتب دراسة شاملة جامعة:

- فبعض الذين كتبوا كانوا أُجْرَاء تحركهم السلطة عند الحاجة، ولا يتقون الله فيما يكتبونه ويفتون به، وأمثال أصحاب هذه الأقلام المأجورة وصمة عار في تاريخ أمتنا، وكتاباتهم تزكية لأهل الغلو عند الشباب:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

- وبعضهم كتب عن جانب واحد من جوانب كثيرة عند جماعة شكري، كقضية تكفير مرتكبي الكبائر أو عن قتل الذهبي... وبعض هؤلاء أجادوا فيما كتبوا وقد استفدت منهم، وأثبت ما نقلته عنهم.

- وآخرون قابلوا الغلو بغلو آخر، فكانوا كمن يطفئ النار بالنار، فلا يزيدها إلا اشتعالاً، وبشكل أكثر وضوحاً قابلوا غلو الخوارج بغلو أهل الإرجاء، والحق يقال أنهم ليسوا من أهل العلم، ووقعوا في الإرجاء عن غير قصد لأن ما كتبه أكبر شاهد على ذلك.

- وبعضهم اعتمد فيما كتب على ما يعرفه عن هذه الجماعة داخل السجن،
ومما يجدر ذكره أنّ شكري طوّر كثيراً من أفكاره وتصوراتهِ.

٤) إذا سلمنا جدلاً بقول من يرى أنّ جماعة شكري انتهى أمرها، فهناك
جماعات أخرى بينها وبين جماعة شكري قواسم مشتركة:

- فجماعة تشترك معها في تكفير مرتكبي الكبائر.

- وأخرى تشترك معها في القول بعدم حجية قول الصحابي وفعله إذا لم
يوجد له مخالف، وفي رفض حجية الإجماع ولو كان إجماع الصحابة -رضوان
الله عليهم- وتزعم أنها تتعامل مع نصوص الكتاب والسنة مباشرة، ولا تقيم أيّ
وزن لفتاوى واجتهادات كبار الأئمة المجتهدين من رجال خير القرون ومن نحا
نحوهم... مع أنّ هؤلاء الأذعياء يجهلون الحد الأدنى الذي يحتاجه المبتدؤون
من طلاب العلم كعلوم العربية والفقهِ والحديث والأصول.

- وثالثة تتفق مع شكري وأصحابه في قضية المهدي... ومهديّهم ليس مهدي
أهل السنة والجماعة، بل وليس مهدي الرافضة، وإنما هو مهديّ مبتدع يزعمون
أنه سيظهر خلال أيام أو أشهر أو بضعة أعوام.

لهؤلاء جميعاً وغيرهم وغيرهم من أبناء أهل السنة قمت بتأليف هذا الكتاب،
وقد التزمت فيه أصول منهج الاستدلال عند أهل السنة، وهو المنهج الذي
أعتقده وأدين الله به، وقد يسأل سائل: أما كان الأجدر أن تناقش منهجهم في
الاستدلال قبل أن تلزمهم بمنهج أهل السنة والجماعة؟!!

وجواباً عن ذلك أقول:

لقد ناقشت منهجهم في الاستدلال من خلال ردودي على أباطيلهم، وكشفت تناقضاتهم مع المنهج الذي رسموه لأنفسهم، وحاولوا فرضه على غيرهم، وزعموا أنّ من خالفه ليس مسلماً، وإنّ صلّى وصام وشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله.

وقد كنت مضطراً إلى التوسع -بعض الشيء- في الحديث عن أصول أهل السنة، لتوضيح ما حاول الغلاة تشويهه، لأنهم لم يكونوا أمناء في معظم ما نقلوه من كتب أهل السنة، ومن جهة أخرى فإنّ معظم شبابنا يجهلون هذه الأصول لأسباب يعلمها كلّ مُطّلع على مناهج التعليم وواقع الشباب في بلدان العالم الإسلامي.

مصادري فيما كتبتة عن جماعة شكري:

لم يسبق أن قامت صلوات بيني وبين أحد منهم، وكنت أتجنب أي لقاء أو حوار لأنني أعلم النتائج المؤسفة التي ستسفر عنها مثل هذه اللقاءات، ومن هنا يعلم القارئ المنصف أنه ليس بيني وبين أحد من هذه الجماعة عداوات أو خلافات شخصية.

وعند بداية ظهور هذه الجماعة كانت معلوماتي عنها قليلة، وكنت أتوقع ألا يتسع نشاطها لغرابة الأفكار والتصورات التي كانت تطرحها، وعندما لم يتحقق ما توقعته حرصتُ على تتبع أخبارها، وقد تجمع عندي بفضل من الله سبحانه وتعالى شيء كثير. ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها فيما كتبتة عنهم ما يلي:

(١) رسائل الجماعة، وهي:

(أ) الحُجَّيات: تتحدث هذه الرسالة عن أصولهم، وموقفهم من أقوال الصحابة وأفعالهم، ومن الإجماع، كما وتتحدث عن كفر وردة كلِّ مقلد، وطريقة فهمهم لكتاب الله وسنة رسوله.

(ب) إجمال تأويلاتهم^(١) وإجمال الرد عليها: بينوا فيها أدلتهم في تكفير مرتكبي الكبائر، والقول بكفر من خالفهم في هذه المسألة. ويبدو أن شكري

(١) الضمير في تأويلاتهم يعود إلى أهل السنة والجماعة.

مؤلف هذه الرسالة لأن أسلوبها كان أكثر شدة من الرسائل الأخرى.

(ج) التوسمات: ^(١) تحدثوا فيها عن واقع المسلمين وجماعة الحق - على حد زعمهم - وعن موقفهم من التاريخ الإسلامي ووجوب الهجرة وظهور المهدي، كما حوت هذه الرسالة موقفهم من التعليم في الجامعات والمعاهد العلمية.

(٢) اعتمدت على عدد كبير من الدعاة الذين كانت لهم صلوات مع الجماعة، وهؤلاء أصناف، من أهمها ما يلي:

(أ) أناس منهم عاشوا مع شكري في سجن ليमान طره، وكانوا أكبر منه سناً، وأكثر منه خبرة في الدعوة، وفوق ذلك كانوا موضع احترام وتقدير شكري وغيره، وليسوا من الذين أيدوا النظام أو هادنوه. حدثني هؤلاء الثقات عن شخصية شكري، وكيف يُكوّن قناعاته، وكيف نشأت هذه المدرسة داخل السجن.

(ب) آخرون من الدعاة حاوروا شكري في أواسط السبعينيات، وكان زعيم هذه الجماعة يسمى حواراه مع الآخرين [إقامة حجة]، وإذا حضرت الصلاة يرفض أن يكون إماماً للآخرين لأنهم ليسوا مسلمين، فيصلي ومن معه جماعة، ويصلي الآخرون جماعة أخرى، أما نتائج هذه المناقشات فقد تحدثت عنها الصحف بشكل يدعو للأسف... لقد أمر شكري جماعته بقتل الذين حاورهم لأنه أقام عليهم الحجة - هكذا خيّل إليه - وأصرروا على الكفر والردة.

(١) وهي بمثابة السياسة الشرعية عند أهل السنة.

ج) نفر من طلاب الدراسات العليا في العلوم الشرعية، اتصل بهم أعضاء عاملون في جماعة شكري، وكانوا نشيطين في الاتصال بالطلبة الوافدين إلى مصر، وكان هؤلاء الطلبة يعرفون جيداً العقلية التي تفكر بها هذه الجماعة، فاستمعوا إليهم وسألوهم وكانوا يحرصون على تعدد اللقاءات ليعرفوا كل شيء عن الجماعة، والجماعة من جهتها لا تمنع من تعدد اللقاءات ما لم يقرر المستمعون رفض تصورات الجماعة وأصولها.

وتحرّيت الدقة ما أمكن في جمع المعلومات من هؤلاء الدعاة جميعاً، وكنت أسأل بعضهم أسئلة وأطلب إليهم توجيهها إلى أعضاء الجماعة الذين يتصلون بهم، ثم أوازن هذه المعلومات بما عندي من أخبار استقيتها من مصادر أخرى.

٣) من المصادر التي اعتمدت عليها كتاب [ذكرياتي مع جماعة المسلمين]، وكنت قد سمعتُ باسم المؤلف عبد الرحمن أبو الخير - قبل أن ينشر كتابه - من زملائه في معتقل ليমান طره الذين أُفرج عنهم بعد وفاة عبد الناصر، واطلعتُ على بحث له لم ينشر تحت عنوان [سبيل المجرمين] تحدث فيه عن مكر اليهود وخبثهم والدور الرهيب الذي يؤديه في بلاد المسلمين، ولا يخلو بحثه من فائدة وإن كان فيه غلو واضح. وقصة عبد الرحمن أبو الخير تتلخص فيما يلي:

كان صحفياً، ولم يكن من الملتزمين بالإسلام، وليس له أدنى صلة بالدعاة والجماعات الإسلامية، وشاء الله أن يتلى فدخل السجن بسبب تقرير كاذب، وفي السجن شرح الله صدره للحق لأنّ الإنسان يكون في الشدائد والمحن قريباً من ربه.

ولما كان الدعاة داخل السجن أصنافاً وجماعات شتى، فقد كان أبو الخير قريباً من شكري يكثر الجلوس معه، ويتأثر بما يسمع منه، وبعد السجن -أي منتصف سنة ١٩٧٦م- بايع عبد الرحمن أبو الخير شكري إماماً وقائداً، وأصبح عضواً في الجماعة ومستشاراً لزعيمها، واطلع على أمور كثيرة، وسجن معهم في قضية الذهبي، وبعد الإفراج عنه ألف هذا الكتاب الذي يؤكد فيه التزامه بأصول الجماعة، واختلافه معهم في أمور لا تضر ولا تسقط عضويته فيها.

والذين يعرفون عبد الرحمن أبو الخير يجمعون على صدقه، وبعده عن الشبهات كالنفاق والمداهنة، وقد حمل في كتابه حملة شعواء على النظام، ودوره في توريث الجماعة في قصة الذهبي، كما تحدث عن ارتباط النظام بالمخططات اليهودية العالمية [كما يرى!].

ومما لفت نظري في كتاب أبي الخير أنه يجهل أصول الإسلام، ولا يفقه شيئاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو يدين الله بالإسلام الذي أخذه عن شيخه وإمامه شكري مصطفى.

وكان في بعض ما كتبه أكثر غلواً من أصحابه، ومن ذلك اتهامه للمحامي شوكت التونسي بالماسونية دون أن يذكر أدلة على ذلك، واعتقاده بأن الصهيونية العالمية وراء كل شيء يجري في العالم بشكل عام، وفي بلاد المسلمين بشكل خاص. ونحن لا ننكر مخططات اليهود ومؤامراتهم، لكننا لا نعتقد بأنهم يملكون أمر ما كان وما سيكون. وإذا كنا نختلف مع الكاتب في تصوراتهِ وغلوه، لكننا مع

ذلك لا ننكر أنه كان صادقاً وأميناً فيما كتبه عن رفاق دربه، وقد استفدتُ منه فيما كتبه عن شخصية شكري، وعن الطريقة التي يتم بها اتخاذ القرار داخل الجماعة، وفيما كتبه عن ملف قتل الذهبي، وما نقله إلينا عن حالة تنظيم الجماعة داخل السجون، واستفدتُ مما كتبه عن أصول الجماعة، لكنني اشترطتُ على نفسي أن يكون كلامه مُتفقاً مع مصادر أخرى عندي أو مفسراً لما ورد في رسائل الجماعة التي أشرت إليها قبلُ، ومما يقتضي التنويه إليه أن ما أنقله من كتاب [ذكرياتي] حول أصول الجماعة قليل جداً.

٤) انضم للجماعة شاب داعية من طلاب الأزهر -الدراسات الإسلامية- وبعد أن نضج عقله وعرف الحق من الباطل، وفهم عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة تخلى عن عضويته في هذه الجماعة، وكان قد أمضى فيها أكثر من سنتين عرف فيها الجماعة من الداخل، وناقش معظم قادتها، ولمس بنفسه ما هم عليه من ازدواجية واضطراب، وحاول الإصلاح من الداخل لكنه فشل، وخشي أن يكون مصيره كمصير غيره... وبعد هذه التجارب المريرة أُلّف كتاباً أودع فيه أهم ما يأخذه على هذه الجماعة. وقد وصلني هذا الكتاب وقد أوشك البحث على الانتهاء، فقرأته ملياً واستفدتُ منه في ردي على منهج الجماعة في تكفير مرتكبي الكبائر، ووجدته الكتاب الوحيد الذي صيغ بعقلية سليمة وصحيحة، وإن كانت مأخذي عليه تتلخص فيما يلي:

- لم يذكر المؤلف اسماً لكتابه، ورفض نشره لأسباب لا أعرفها.

- كُتِبَ على عجل بأسلوب عاطفي.

- لم يتجاوز فيما كتب الرد على الجماعة في تكفيرها لمرتكبي الكبائر إلا في مواضع تكاد لا تذكر لندرته.

٥) لم أعتد على معظم ما نشرته الصحف والمجلات التي صدرت بعد قضية الذهبي، لأنها ليست حيادية، وكيف أعتد على صحف تنشر صورة شكري مصطفى في الصفحة الأولى وتزعم أنه يقول: (أنا طه المصطفى)؟! وكل من يتابع أخبار شكري يعلم أنه لا يقول مثل هذا الكلام، ولا يؤمن به. ومع ذلك فلا نستطيع رفض كل ما نشره الصحف والمجلات، ولكل قاعدة استثناء، فهناك مجلات عربية تصدر في أوروبا نشرت تحقيقات واستطلاعات مهمة عن الجماعة وعن اختطاف الذهبي، وأثبتت بالأدلة والأرقام تورط النظام في هذه القضية، والذين نشروا هذه الاستطلاعات يعرفون رجال السلطة، ويعرفون كيف يحصلون على هذه المعلومات؟ وأعترف بأنني استفدتُ من هذه المجلات عند حديثي عن اختطاف الذهبي، مع أنها لم تكن المصدر الوحيد فيما توصلت إليه من نتائج.

واستفدتُ من الصحف المصرية فيما نقلته عن شكري مصطفى من أقوال أثناء محاكمته، لأنَّ قائد هذه الجماعة أدلى بأقواله أمام جمع كبير من الناس كان بينهم من يعارض النظام، ونُقلت هذه الأقوال بصيغة واحدة، ولا تتعارض من جهة أخرى مع ما نعرفه عن هذه الجماعة من أفكار وتصورات.

وأحسب أن هذه المصادر التي اعتمدتُ عليها كافية إن شاء الله لمعرفة أصول

الجماعة وتصوراتها وتاريخها منذ نشأتها وحتى إعدام زعيمها، ولا أعتقد أنّ أحداً من الذين ينتمون إلى هذه الجماعة يجرؤ على القول: «نحن نؤمن بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، أو نحن لا نقول بكفر مرتكبي الكبائر».

منهجي في البحث

(١) قسمت البحث إلى الفصول التالية:

الأول: الاجتهاد والتقليد.

الثاني: الإجماع.

الثالث: أقوال الصحابة وأفعالهم.

الرابع: الكتاب والسنة.

الخامس: تكفير مرتكبي الكبائر.

السادس: أصول وتصورات أخرى، أهمها:

- المهدي المنتظر.

- دعوة صريحة إلى الأمية.

- موقفهم من التاريخ الإسلامي.

- متى يبدأ دور الجماعة.

- حوار.

السابع: المحنة: أسبابها، نتائجها.

ولم أتحدث في بحثي عن بعض أصول الجماعة دون بعضها الآخر، وإنما تحدثت في ستة فصول عن أصولهم كلها، وتجاوزتُ الأصول إلى ما هو أقل منها: كموقفهم من التاريخ، وقضية المهدي، وبعد أن بينتُ بالأدلة والبراهين فساد أصولهم وتعارضها مع أصول أهل السنة والجماعة، انتقلتُ في الفصل الأخير إلى الحديث عن الظروف التي نشأت فيها الجماعة، والعقلية التي كان

يسوس بها شكري جماعته كالأستبداد والمزاجية، ثم تكلمت عن ملف اختطاف الذهبي، وما أعقبه من نتائج مؤسفة.

(٢) بدأتُ كلَّ فصل بعرض أقوال الجماعة كما وردت في رسائلهم، دون تصحيح لما ورد فيها من أخطاء، وكنتُ أضع تعليقاتي السريعة بين قوسين أو في الهامش، وفي حالات قليلة جداً كنتُ أكتفي بتلخيص أهم أقوالهم، وذلك خشية الإسهاب الممل، ولأنَّ هذه الأقوال مشهورة عنهم، وواردة في رسائلهم، ويؤكدونها جمع كبير من الدعاة الثقات الذين كانوا وثيقي الصلة بهم.

(٣) شكري وأصحابه يؤكدون بأنَّ مرجعهم الأول والأخير في أصولهم وفروعهم كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، وينكرون أن تكون لهم أية صلة بالخوارج أو المعتزلة أو الرافضة.

ولهذا فقد حرصت على أن أبدأ ردِّي عليهم بعرض أدلتي من الكتاب والسنة، وأنقل الروايات الصحيحة التي وردت في تفسير الآيات القرآنية وبيان سبب نزولها، وأما الأحاديث النبوية فقد اعتمدت على ما صحَّ منها، وذكرتُ تخريج كل رواية، وأثبتُّ في الهامش المصادر التي اعتمدت عليها من أمهات كتب التفسير والحديث.

ثمَّ بينتُ التناقضات التي وقع بها قوم شكري في هذه المسألة، وما أكثرها! فعندما يستدلون بحديث لا يذكرون درجته من الصحة، ولا يفسرون القرآن بالمأثور، وإنما يؤوِّلون الآيات تأويلاً لا يسنده دليل شرعي، ولا يتفق مع قواعد

ومعاني اللغة العربية، ولا سُبِقوا إليه قبلُ إلا ما عُرِف عن أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة ومن نحا نحوهم.

(٤) بعد ذكر الأدلة من الكتاب والسنة كنت أنقل أقوال الأئمة المجتهدين من رجال خير القرون ومن جاء بعدهم من كبار العلماء المحققين، وإن كان هناك اختلاف أشير إليه، ثم أُبين القول الراجح والأدلة التي ترجحه.

ولا يهمني بعد ذلك قول أصحاب شكري: (هذا هو التقليد بمختلف أبعاده وأوسع مجالاته) لأن أقوال الأئمة لا أسوقها على أنها أدلة شرعية بحد ذاتها، ولكنني أعزُّ بها قولي لأُعرف القراء بأن أقوالي ليست شاذة أو غريبة، وإنما سبقني إليها كبار الأئمة والعلماء.

(٥) في معظم ردودي على شكري وأصحابه، كنتُ أذكر أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً- وذلك لأن المشكلات التي أثارها شكري ومن معه موغلة في القدم، وتعود جذورها إلى بداية الخلاف الذي نشب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- وموقف الخوارج من التحكيم، وإقدامهم على إباحة دماء المسلمين بغير حق، وجاء أهل الاعتزال فيما بعد، فعظمت المصيبة واشتدت البلوى، وكان بين الخوارج والمعتزلة من جهة وأهل السنة والجماعة من جهة أخرى معارك استخدمت فيها كافة أنواع الأسلحة الفكرية منها والحربية، وقد أسفرت هذه المعارك عن هزيمة

منكرة مُني بها أهل الباطل أمام أهل السنة والجماعة، والله سبحانه وتعالى وعد عباده الموحدين بالنصر والتمكين في كل عصر ومصر.

ومما لا شك فيه أن السابقين الأولين أقدر منا على فهم هذه الأمور والإحاطة بها، لأنهم عاصروا أشهر علماء الخوارج والمعتزلة وناظروهم، ولا بد لكل باحث في مثل هذه المسائل أن ينقل أقوال هؤلاء وأولئك من العلماء، كما لا بد لكل من يأتي بعدنا ويبحث مشكلات عصرنا من نقل أقوال أهم علماء هذا العصر.

وشيخ الإسلام ابن تيمية كانت له جولات وجولات مع المعتزلة والرافضة والباطنيين، وترك لنا مؤلفات نفيسة جداً، كان من أهمها: منهاج السنة، ودرء تعارض العقل والنقل، وجاءت كتبه حافلة بالأدلة الشرعية، وأقوال الصحابة والتابعين وفحول أئمة هذا الدين.

وإذا كنتُ والحمد لله قد أثبتُ المصادر التي نقلت عنها ولم أتجاهلها أو أنسبها لنفسِي، فشكري وأصحابه كان لهم شأن آخر، فهم أخذوا أصولهم عن المعتزلة والخوارج والرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء، كما أخذوا بعض أصولهم وتصوراتهم عن بعض أهل السنة الذين كان لهم شذوذات وغرائب كثيرة كالظاهرية وغيرهم، ولم يذكروا المصادر التي أخذوا عنها، وهذا منهم سرقة واضحة، والسرقة عندهم كبيرة، وصاحب الكبيرة يرتد بكبيرته عن الإسلام -على حد زعمهم- هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد نقلوا كلام الآخرين -الذي نسبوه لأنفسهم- مبتوراً،

وبشكل يختلف مع سياق النص ومع قناعة الذين نقلوا عنهم، وهذا منهم سوء أمانة، وهو من صفات المنافقين، والمنافقون عندهم كفار على الإطلاق لأنهم لا يفرقون بين النفاق الاعتقادي والعملية.

ومن هذه النقول المتضاربة المتناقضة التي سرقوها من هنا وهناك حاولوا أن يُؤسّسوا مذهباً خاصاً بهم، لهذا فقد أثبت في كل فصل المصادر التي سرقوا منها أقوالهم، وهذا يعني أنهم مقلدون وليسوا مجتهدين، والتقليد عندهم كفر، وإذا واجهناهم بالأسلوب الذي يحكمون به على غيرهم عملاً بالمبدأ القائل: [من فمك ندينك] فهم كفّار ومرتدون - حسب منهجهم - عن الإسلام ثلاث مرات فقط في الأصول والتصورات التي نقلوها عن غيرهم ونسبوا لأنفسهم.^(١)

٦) تكرر قولي في هذا البحث: (حدثني من أثق به) و (أخبرني أحد الدعاة من الذين عاشوا مع شكري في معتقل ليان طرة)، وقد يقول قائل: (لقد أكثر المؤلف من الاعتماد على المجاهيل في الروايات والأخبار التي استدل بها).

وجواباً عن ذلك أقول:

لم أتعتمد على مجاهيل فيما ذكرته عن أصول الجماعة وتصوراتها، وكذلك لم أتعتمد على مجاهيل عند حديثي عن نشأة الجماعة ونظامها الداخلي، وعقلية القائد في إدارة الجماعة وتصريف أموالها؛ لأنني اعتمدتُ في ذلك كله على

(١) وهذا لا يعني أنني أحكم عليهم بالكفر والردة.

رسائل الجماعة والمذكرات التي كتبها بعض أعضائها، وأمور أخرى واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

أما أخبار الدعاة -الذين قد يسميهم بعض الناس مجاهيل- فجاءت لتسليط الضوء على جوانب غامضة في مسيرة الجماعة أو فيما فعلته من أعمال، وقد اشترط هؤلاء الدعاة ألا تذكر أسماءهم، والحق معهم؛ فأجواء التحقيقات وفضولية المحققين وطريقتهم المزعجة في ربط الأمور وتضخيمها، كل ذلك جعلهم يتعدون عن مواطن الشبهات، ويرفعون شعار الحذر والبعد عن المغامرات.

(٧) من العبارات التي أكثرت من استخدامها: (يخالفوننا) و (يتفقون معنا) والضمير في ذلك كله يعود لأهل السنة والجماعة.

(٨) وأحسب أن سائلاً بيننا يسأل: (من المستفيد من هذه الدراسة؟!) و (لماذا استعداد الآخرين؟!)^(١).

وجوابي عن ذلك:

قلت من قبل بأنه ليس بيني وبين أحد من المنتسبين إلى هذه الجماعة عداوات شخصية، والقضية ليست استعداداً أو تشهيراً بأحد، ولكنها الحقيقة التي يجب أن تقدم للشباب المسلم ليحذروا من المبتدعين وأساليبهم، ومن أجمل ما قرأت في هذا الصدد ما يلي:

(١) مثل هذه الأسئلة كانت في الفترة التي أعددت فيها هذه الدراسة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

(... وقال بعضهم لأحمد بن حنبل: إنه يثقل عليّ أن أقول فلان كذا وفلان كذا... فقال: إذا سكتت أنت وسكتت أنا، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة والعبادات المخالفة للكتاب والسنة... فإنّ بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع. فقال: إذا قام وصلّى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع، فإنما هو للمسلمين، وهذا أفضل.

فتبين أنّ نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشريعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساد أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب... فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً).^(١)

وخلاصة القول:

لقد بذلت جهداً كبيراً في المعلومات التي وردت في هذا الكتاب، فإن وفقْتُ

(١) مجموع الرسائل والمسائل (٤/ ١١).

إلى ما أردت فالفضل في ذلك لله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي.

وأقول في الختام ما قاله العبد الصالح:

اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا
قدماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتب في سبيلك، فبرحمتك لا تدخلني النار،
اللهم آمين.

محمد سرور زين العابدين

٢٠ ذو الحجة / ١٤٠٦ هـ

برمنجهام

الفصل الأول

الاجتهاد والتقليد

المبحث الأول: عرض أقوالهم

المبحث الثاني: دحض أقوالهم

المبحث الأول

عرض أقوالهم

عرض أصحاب شكري في رسالة [الحجيات]^(١) أقوال أهل السنة والجماعة في الاجتهاد والتقليد. وبعد أن ذكروا تعريف الاجتهاد، وشروط المجتهد، وأنواع المجتهدين انتقلوا إلى الحديث عن التقليد، فأسهبوا في عرض أقوال أهل السنة ونقدتهم لها.

قالوا في تعريف المقلد:

«المقلد عندهم -المسلم-: هو من يقلد المجتهد ويأخذ عنه المسألة الفقهية، ويقبل حكمه في المسائل الفقهية من غير أن يسأله عن الدليل.

وستثبت بإذن الله تعالى أن أول كفر وقع في هذه الأمة هو كفر التقليد أو ترك الهدى -الاجتهاد فيه- إلى التقليد. قال تبارك وتعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ووصلت بهم الحماسة إلى أن أوجبوا التقليد على العامة، وحرّموا عليهم الاجتهاد في دين الله».

(١) أشرنا في المقدمة إلى ما تضمنته رسالة الحجيات من موضوعات، وقد جاء في تعريفهم لها: هي المصدر الذي نأخذ منه الهدى أو الحجج التي نهتدي بها.

أولاً - الرد عليهم^(١)

١- الذي يسأل المجتهد عن الحكم، ولا يسأله عن الدليل -من يسمح لنفسه بذلك- فقد أثبت العصمة لمن يقلده، أي اعتبره معصوماً لا يجوز الخطأ في حقه، وهذا لا يكون لبشر إلا إذا كان يوحى إليه، فالمعصومون هم الأنبياء فقط سلام الله عليهم. ومادام الخطأ جائزاً في حق المجتهد فيمكنه إذن أن يضل من يقلده، ويكون له -في النهاية- مشرعاً من دون الله. وتصبح القضية كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن على عهد رسول الله ﷺ أحبار ورهبان حتى يحذرنا الله منهم. فهذا - يقيناً- تحذير للمسلمين من درب هؤلاء، وليس على سبيل القصة والتسلي، بل هذا هو عين ما حدث في هذه الأمة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لقد استدرکوا على الله أن يكلف العامة بالإسلام، وأعطوا أنفسهم صفة الله سبحانه وتعالى عندما جعلوا المجتهد إلهاً: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

٢- ورداً على قولهم: إن الله لا يمكن أن يكلف هؤلاء الجاهلين بالإسلام، نقول: إن الحقيقة أنهم ما كانوا جاهلين إلا لتركهم الإسلام وانشغالهم بالدنيا، وأنهم

(١) أي رد جماعة شكري على أهل السنة والجماعة. ومما يجدر ذكره أن كل ما ذكرته تحت عنوان [عرض أفوالهم] هو من كلام جماعة شكري ولا دخل لي فيه إلا ما يقتضيه الاختصار.

بعد أن أصبحوا جهلاء لا يعلمون فقد انخلعوا من الإسلام كلية. ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾.

٣- وهل يكلف الله تعالى الناس أكثر مما يطيقون أم ما يطيقون؟! فإن قالوا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي ما تطيقه، قلنا: فقد بين الله أن الناس في طوقهم أن يتدبروا آيات الله.

٤- ونسألهم لماذا تقلدون فلاناً؟! ومهما ذكروا من علل، فرسول الله ﷺ أكثر من فلان هذا بالعلل التي ذكرتموها وهو أولى أن يتبع.

٥- وما قلناه في الرد [١] هذا لو سلمنا جدلاً بحسن نيات هؤلاء، ولكن لا ندع هذه أيضاً، فهل تجزمون بحسن نياتهم على فرض أنهم علماء كبار؟! فإن قالوا: نجزم بحسن نياتهم فقد أعطوا أنفسهم ما لا يكون إلا لله تعالى، وهو معرفة ما في الصدور. وإن قالوا: الله أعلم بهم وجب عليهم ترك هذا المصدر الذي يحتمل فيه سوء النية.

٦- ونسألهم هل ورد عن الصحابة - رضوان الله عليهم - ما يؤيد دعوكم بوجوب التقليد وتحريم الاجتهاد؟!

نقول بل ورد ما يدحض دعوكم هذه. وأذكركم فقط بقول ابن عباس: أقول لكم قال الله وقال الرسول وتقولون قال أبو بكر وقال عمر، يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء.

والمشكلة أنّ هؤلاء الناس افترضوا الواقع الذي يعيشون فيه واقعاً إسلامياً، وعليه بنوا آرائهم وشطحاتهم، فوجدوا من المسلمين بزعمهم من لا يكاد يفقه حديثاً، ولا يعرف عن الإسلام إلا اسمه، فقالوا: كيف يكلف الله هؤلاء بالاجتهاد لمعرفة أحكام الإسلام.

ويزول الإشكال بقولنا: إنّ الأصل هو أن نحتج بالإسلام على الواقع الذي نعيش فيه، فيتبين لنا أنّ هؤلاء الناس ليسوا على أدنى صلة بالإسلام، وإنهم من الأصل ليسوا مسلمين، فلا عجب إذن جهلهم بالإسلام، ولا داعي آنذاك أن يستدرك من لا عقل له على الله أن يكلف مثل هؤلاء بالإسلام.

ثانياً - ثلاثة أمور حول هذه المسألة - التقليد

١ - صلة التقليد بالكفر وضياع دولة الإسلام. حدث هذا مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ إذ قال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...» إلى آخر الحديث.

وصلة التقليد بضياع دولة الإسلام صلة مباشرة، فمنذ أن ترك الناس الاجتهاد في أمر دينهم ووكلوه إلى شيوخهم وألتهتهم، ودولة الإسلام لم يعد لها أثر في الواقع.

وعلينا أن نعرف أنّ جماعة المسلمين جماعة واحدة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١﴾.

٢- كذب الجماعات المنتسبة إلى الإسلام: في ادعائهم الإسلام، وادعائهم الحكم بكتاب الله ودعواهم لذلك. والحقيقة أن كل هذه الجماعات لا هي تحكم ولا تتحاكم لكتاب الله، فكلهم ورثوا الإسلام عن شيوخهم يدافعون عنهم وعن تقليدهم.

٣- صفة الجماعة المسلمة: هي جماعة واحدة، لها أمير واحد، سندها الكتاب والسنة يكفرون بالتقليد، وكل مسلم فيها مجتهد، لا مجال فيها للفرق والمذاهب والأحزاب، بل كلها حول أميرها معتصمون بحبل الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْمُوضٌ ﴿٣﴾ وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ...» الحديث.

ثالثاً- أصل الشرك هو تقليد الرجال وعبادة الرجال للرجال

فالشرك هو اتخاذ أرباب مع الله وكما قد علمنا أن هذا محال أن يحدث إلا في أمر الهداية، حيث أننا علمنا بالدليل المادي والشرعي أن ادعاء الربوبية يكون في أمر الهداية فقط، ويكون الشرك تحت هذا الباب من منطلق: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «ألم يكونوا يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال

فاتبعوهم.. فتلك عبادتهم إياهم».

رابعاً - صورة التقليد المتخذة الآن

- * رأي الفقيه.
- * رأي الصحابي.
- * عمل أهل المدينة - نزعة مالك -.
- * رأي الجمهور.
- * الإجماع.^(١)

(١) يعتقد أتباع هذه المدرسة كفر كل مقلد على الإطلاق، ومن صور التقليد التي تخرج من الملة:

- رأي الفقيه: أي الذين يقلدون الأئمة الأربعة.
 - رأي الصحابي بل وأقوال الصحابة، ولو كانت مشهورة، ولم يخالفها أحد من الصحابة.
 - عمل أهل المدينة، والإجماع بشكل عام، ولو كان إجماع الصحابة الذي لا خلاف عليه عند أهل السنة والجماعة.
- ويحدثنا عبد الرحمن أبو الخير في كتابه [ذكرياتي مع جماعة المسلمين] أنه استأذن القيادة في الصلاة على صالح سرية وكارم الأناضولي بعد أن أعدمتها السلطة، فرفضت الجماعة لأنهما يقلدان الأئمة والصحابة.

المبحث الثاني

دحض أقوالهم

وردنا على جماعة شكري من الوجوه الآتية:

الوجه الأول - نعم، التقليد المذموم مأساة في تاريخنا

حقاً، لقد كان التقليد المذموم وما يزال مأساة في تاريخ أمتنا الإسلامية وحاضرها، ومن نتائج الوخيمة أن كثيراً من المسلمين أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأقبلوا على كتب ورسائل شيوخهم، وزعموا أنها هذه هي الطريق الوحيد لتعلم العلوم الإسلامية وفهمها، ونسبوا إلى شيوخهم شيئاً من العصمة، وأحاطوهم بهالات من التبجيل والتعظيم، وقالوا: لا يجوز أن يُتهم أحد منهم بالفسق والعصيان أو الخطأ والنسيان.

ومن أشهر هذه الفرق الضالة:

١ - الباطنيون: وينقسمون إلى أقسام كثيرة، من أهمها: أهل الرفض الذين يقولون بعصمة الأئمة الاثني عشر، بل ويرى معظمهم أن هؤلاء الأئمة يعلمون ما كان وما سيكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وكل ما يصدر عنهم من قول أو عمل حق يجب اتباعه والإذعان له وتحرم مخالفته وعصيانه، ولا يجوز أن يسألوا عن أدلتهم من الكتاب أو السنة؛ لأن أقوالهم وأعمالهم من السنة وهي

أدلة بحد ذاتها.

وفي ظل هذه العقيدة المنحرفة انتشرت الخرافات، وراجت الأساطير، واتخذ كثير من الناس شيوخهم وآياتهم أرباباً يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى.

٢- غلاة الصوفية^(١): الذين يعتقدون أنّ للقرآن ظاهراً يعرفه المفسرون والفقهاء، وباطناً لا يعلمه إلا شيوخهم الأولياء، وهؤلاء الشيوخ يتلقون علومهم وإلهاماتهم عن طريق الأوتاد، والأوتاد عن الأقطاب الذين يعلمون الغيب ويشاركون الحق - جلّ وعلا- في تصريف شؤون الكون.

وغلاة الصوفية لا يقيمون أيّ وزن لأحاديث رسول الله ﷺ، ولا لأقوال الصحابة وإجماعهم أو لأقوال وفتاوى أئمة الفقه والحديث، ولا يجهدون أنفسهم في معرفة الأدلة الصحيحة من الضعيفة، ويكفيهم أن أولياءهم قد أباحوا هذا وحرّموا ذلك.

٣- الخوارج: ومن نحا نحوهم وسار على دربهم. لقد كفّروا بعض السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، وكفّروا أصحاب الذنوب والمعاصي من المسلمين، وتلاعبوا في أصول الإسلام وأحكامه فضعّفوا وأولّوا كل ما يتعارض مع معتقداتهم الفاسدة... وجاء خلفهم فقلّدوا شيوخهم السابقين فيما ذهبوا إليه من آراء ومعتقدات.

(١) هذا إذا أطلقنا القول بأن الباطنيين وغلاة الصوفية مسلمون.

ولو أن شكري تحدث عن أخطار ومضار التقليد عند أتباع هذه الفرق لكان معه الحق، ولو قال: إنهم من الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، إنهم والحق يقال - اتخذوا شيوخهم وقادتهم أرباباً من دون الله.

وهناك صنف آخر من المقلدين الذين يتمسكون بقول مذهب من المذاهب، ولو خالف دليلاً واضحاً لا مجال لتأويله لأنهم يفترضون أن إمامهم كان يعرف هذا الدليل، ولم يأخذ به لأنه ليس صحيحاً... لو نقد شكري هؤلاء وبين فساد العقلية التي يفكرون بها لكان مصيباً - إذا انطلق في نقده من تصورات ومنهج أهل السنة والجماعة - ولكنه لم يقف عند حد نقد هؤلاء وأولئك، وإنما زعم أن جماعته هي الجماعة المسلمة الوحيدة على وجه الأرض، وما عداها من الجماعات والهيئات والأفراد مرتدون عن الإسلام، وهذا يعني أن عدد المسلمين على وجه الأرض لا يتجاوز ألف شخص، وهم عدد المنتسبين إلى الجماعة.

إذاً، فالتقليد عند شكري هو غير التقليد المذموم عند أهل السنة والجماعة؛ إن التقليد عنده يعني عدم الإيمان بالأصول الجديدة التي ابتدعها وزعم أنها من الإسلام وليست من الإسلام في شيء، ومن اعتقد أن إجماع الصحابة - رضوان الله عليهم - دليل فهو عند شكري مرتد وحلال الدم والمال، وقُل مثل ذلك فيمن يعتقد أن المسلم الذي يرتكب معصية ليس مرتداً وغيره وغيره.

وإذاً، فنحن عندما نرد على شكري، لا ندافع عن التقليد المذموم الذي نعده

مصدر الخلاف والشقاق في الأمة الإسلامية، وإنما نرد على مبتدع يسمي الأمور بغير مسمياتها، ويتلاعب في كتاب الله وسنة رسوله.

الوجه الثاني - الدعوة إلى العلم والاجتهاد والتحذير من التقليد

قبل أن نرد على جماعة شكري في جواز التقليد من عدمه، وفي عدم تكفير المقلد، وبيان حدود التقليد الجائز، لا بد أن نبسط فيما يلي شيئاً من الأدلة الشرعية التي تدعو إلى الاجتهاد وتُنْفِر من الجمود والتقليد.

لقد كانت أول آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]، ومنذ ذلك الحين ورسول الله ﷺ يعلم أصحابه، ويحذّرهم من الجهل. قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١). ورفع الله مكانة العلماء الدعوة، وقرن اسمهم مع اسمه الجليل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

وفي المقابل ذمّ الإسلام الجهل والتقليد، والجمود على عقيدة الآباء والأجداد، وبيّن سبحانه وتعالى أنّ هذه الصفات - أي التقليد والجمود - من أخصّ صفات المشركين والمنافقين، كما أنّها من صفات الضعفاء الإمّعات.

(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه -.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أُولُو
كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا ءِآبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦١﴾ فَهُمْ عَلَى ءَاتِدِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصفات]. وقال: ﴿يَوْمَ
تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا
أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].
وقال: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَهًا وَاحِدًا ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

ودعا أئمة خير القرون ومن نحا نحوهم إلى عدم تقليدهم، قال أبو حنيفة
رحمه الله: (هذا رأيي، فمن جاء برأي خير منه قبلناه). والشافعي كان يقول: (إذا
صحَّ الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على
الطريق فهي قولي). والإمام أحمد كان يقول: (لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكا ولا
الشافعي ولا الثوري، وتعلموا كما تعلمنا). وكان يقول: (من قلة علم الرجل أن

يقلد دينه الرجال، فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا).^(١)

قال أبو عمر بن عبد البر وغيره من العلماء: (أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله). وقال أيضاً: (إن الناس لا يختلفون أن العلم هو معرفة المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد).

وعقب ابن القيم رحمه الله على كلام أبي عمر فقال: (فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من وراثه الأنبياء، فإن العلماء هم وراثه الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من وراثه الرسول ﷺ من يجتهد ويكدر في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه؟! ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟! تالله إنها فتنة عمت فأعمت، ورمت القلوب فأضمت، ربا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً).^(٢)

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/٢١١).

(٢) إعلام الموقعين. لابن قيم الجوزية (١/٧).

الوجه الثالث - العامة لا بد لهم من التقليد

إذا كان الأصل في ديننا أن يكون كل مسلم ملماً بأحكام دينه، قادراً على معرفة الحلال من الحرام دون واسطة... فهذا الأصل استثناء، لا بد منه ولا غنى عنه، حيث لا نستطيع تطبيق هذه القاعدة على عامة المسلمين الذين لم يبلغوا مرحلة الاجتهاد، بل وليس عندهم نصيب مهم من العلم والمعرفة لأسباب: منها أن يكونوا حديثي عهد بالإسلام، ومنها أنهم يعيشون في البوادي والمناطق النائية التي ليس فيها مدارس ومعاهد علمية، ويصعب عليهم التخلي عن ديارهم وأرضهم وأنعامهم، ولو كُلفوا بالاجتهاد لأدى ذلك إلى تعطيل الصنائع والحرف وإهلاك الحرث والنسل، وهو من الحرج والإضرار المنفي بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»^(١).

ولهذا أسقط جلَّ وعلا الطهارة بالماء عن المريض، وأسقط الصيام عن المريض والمسافر، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وأسقط اجتناب محظورات الإحرام كالحلق وغيره عمَّن كان مريضاً أو به أذى من رأسه وأمر بالفدية، وفي الصحيحين^(٢) عن أنس أن النبي

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢٧/٥) ومالك في الموطأ (أفضية/ ٢١) وابن ماجه في الأحكام، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٨٥) وقال عنه: حديث حسن، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٥٠).

(٢) صحيح البخاري [جزاء الصيد/ باب من نذر المشي إلى الكعبة]، وصحيح مسلم [كتاب=

ﷺ: «رأى رجلاً يمشي، قيل له: إنه نذر أن يحج ماشياً، فقال: إن الله لغني عن مشيه فليركب».

ومن عليه دين لا يطالب به مع إعساره بل يُنظر إلى حال يساره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ولا يكلف المدين أن يقضي بما عليه في خروجه من ملكه ضرر كتيابه ومسكنه المحتاج إليه وخادمه كذلك.^(١)

وقضية التقليد لم يخل منها أي عصر من العصور الإسلامية، فقد كان بين أصحاب رسول الله ﷺ من سأله أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وكان منهم من لا يعرف الخيط الأبيض من الأسود في الصباح، وكان من خيارهم من لا يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ [عبس]، وكانوا رضوان الله عليهم لا يجدون حرجاً في السؤال عما لا يعلمون.^(٢)

قال الأمدي:

لم تزل العامة في زمن الصحابة والتابعين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم في الأحكام الشرعية، والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى

=الندور/ باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة].

(١) انظر شرح ابن رجب لحديث: «لا ضرر ولا ضرار» في كتابه [جامع العلوم والحكم] (٢٨٥).

(٢) جماعة شكري يتفقون معنا في هذه المسألة، فقد ذكروا أمثلة كثيرة في رسائلهم تؤكد أن كثيراً من الصحابة لم يبلغوا مرتبة الاجتهاد.

ذكر الدليل، لا يهونهم عن ذلك، من غير نكير، فكان إجماعاً على جواز اتباع العامي للمجتهد مطلقاً. وقد مضى على ذلك المسلمون في كل العصور، ولو أن الله - عزّ وجلّ - لم يقبل من المسلمين أن يعبدوه إلا بالاجتهاد لكلفهم ما لا يطيقون، وفي ذلك منافاة ليسر الإسلام، ومخالفة عن فطرته، والله - تبارك وتعالى - إنما خلق الخلق لعبادته، ولا يعبد إلا بما شرع.^(١)

وقال ابن قدامة:

(وذهب بعض القدرية^(٢) أن العامة يلزمهم النظر في الدليل في الفروع أيضاً، وهو باطل بإجماع الصحابة فإنهم كانوا يفتون العامة، ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد، وذلك معلوم على الضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم، ولأن الإجماع منعقد على تكليف العامي الأحكام، وتكليفه رتبة الاجتهاد يؤدي إلى انقطاع الحرث والنسل وتعطيل الحرف والصنائع فيؤدي إلى خراب الدنيا.

ثم ماذا يصنع العامي إذا نزلت به حادثة إن لم يثبت إلى أن يبلغ رتبة الاجتهاد فيألى متى يصير مجتهداً، ولعله لا يبلغ ذلك أبداً، فتضيع الأحكام، فلم يبق إلا سؤال العلماء، وقد أمر الله تعالى بسؤال العلماء في قوله: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ

(١) الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين علي بن محمد الآمدي (٤/٢٣٨) مؤسسة الحلبي.

(٢) القدرية: هم نفاة القدر القائلون بنفي قدرة الله على خلق أفعال العباد، وجعلوا العبد خالقاً لأفعاله، وينفون علم الله بما سيكون، ومن زعمائهم معبد الجهني وغيلان، والجعد بن درهم.

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[النحل: ٤٣]﴾.^(١)

وقال حافظ المغرب ابن عبد البر بعد كلام مهم له عن التقليد وفساده:

(وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بدّ لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها، لأنها لا تتبين موقع الحجة، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها. وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة والله تعالى أعلم).^(٢)

وكان شيخ الإسلام العالم المجدد ابن تيمية -رحمه الله- يدعو إلى الاجتهاد وأخذ الأحكام بأدلتها، ويحذر من التقليد المذموم، ومع ذلك كان يرى أنه لا بدّ من التقليد في بعض الحالات. قال رحمه الله:

(والذي عليه جماهير الأمة أنّ الاجتهاد جائز في الجملة والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد، ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد، وأنّ الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد، فأما القادر على الاجتهاد فهل يجوز له التقليد؟ هذا فيه خلاف، والصحيح أنه يجوز حيث عجز عن الاجتهاد إما لتكافؤ الأدلة، وإما لضيق الوقت عن الاجتهاد، إما لعدم ظهور دليل له فإنه حيث عجز

(١) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ص (٣٤٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٤٠).

سقط عنه وجوب ما عجز عنه، وانتقل إلى بدله وهو التقليد كما لو عجز عن الطهارة بالماء.

وكذلك العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الاجتهاد فإن الاجتهاد منصب يقبل التجزؤ والانقسام).

وعن أتباع العامي لمذهب من المذاهب الأربعة، قال شيخ الإسلام:

(وأتباع الشخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له، وليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق. بل كلُّ أحد عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله، فيفعل المأمور ويترك المحذور والله أعلم).^(١)

لقد ضلَّ جماعة شكري وأضلُّوا عندما زعموا أنَّ كلَّ مسلم يجب أن يبلغ مرتبة الاجتهاد، وخالفوا بذلك إجماع الأمة في القديم والحديث، ووقعوا في تناقض لا يحسدون عليه عندما حكموا بردة كل مقلد لم يبلغ مرتبة الاجتهاد، ولم يحكموا على بعض الصحابة رضوان الله عليهم بالردة رغم اعترافهم بأنَّ كثيراً جداً من السابقين الأولين فيهم لم يبلغوا مرتبة الاجتهاد، وكانوا يجهلون جوانب غير قليلة من العلوم الإسلامية التي يستغرب عدم إمامهم بها، ومع ذلك لم يذكروا لنا الأدلة التي دعتهم إلى استثناء الصحابة من قاعدتهم التي وضعوها.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/٨-١٨، ٢٠٢-٢٠٤) (٢/٢٣٩-٤٦١).

الوجه الرابع - أقوال العلماء في الاجتهاد والتقليد

وجواز التقليد لا يعني أن يقعد المسلمون عن طلب العلم ويعتمدوا على أقوال شيوخهم وفتاويهم في جميع أمورهم، ومن فعل ذلك كان من الضالين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (من نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً).^(١)

وقال رحمه الله: (من نصّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضلّ في ذلك، كأئمة الضلال الرافضة الإمامية، حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء).^(٢)

فالتقليد إذاً: استثناء وليس أصلاً، رخصة عند الحاجة وليس فرضاً.

وللعلماء أقوال في هذه المسألة، نوجزها فيما يلي:

١ - ابن قدامة: قال -رحمه الله-: (إنّ بعض العلماء لا يجيز التقليد في الأمرين التاليين:

(١) الفتاوى الكبرى (٢/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ٦٩).

الأول: معرفة الله ووجدانيته وصحة الرسالة ونحو ذلك.

الثاني: أركان الإسلام الخمسة ونحوها مما اشتهر ونقل نقلاً متواتراً لأنّ العامة شاركوا في ذلك فلا وجه للتقليد.^(١)

٢- أبو حامد الغزالي: للغزالي كلام مهم في جواز التقليد من عدمه نقتطف منه ما يلي:

(... وأما الفقهية فالقطعية منها: كوجوب الصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم وتحريم الزنا والقتل والسرقة والشرب، وكل ما علم قطعاً من دين الله، فالحقُّ فيها واحد وهو المعلوم والمخالف فيها آثم، ثم ينظر فإن أنكر ما علم ضرورة من مقصود الشارع كإنكار تحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم فهو كافر لأنّ هذا الإنكار لا يصدر إلا عن مكذب بالشرع).

ومن الأمثلة التي يجوز فيها الخلاف ذكر الغزالي ما يلي:

(إجماع الصحابة على ترك النكير على المختلفين في الجِدِّ والإخوة ومسألة العَوْل، ومسألة الحرام وسائر ما اختلفوا فيه من الفرائض وغيرها، فكانوا يتشاورون ويتفرقون مختلفين، ولا يعترض بعضهم على بعض ولا يمنعه من فتوى العامة، ولا يمنع العامة من تقليده، ولا يمنعه من الحكم باجتهاده، وهذا متواتر تواتراً لا شك فيه، وقد بالغوا في تخطئة الخوارج، ومانعي الزكاة، ومن

(١) روضة الناظر لابن قدامة. ص (٣٤٣-٣٤٤).

نصّب إماماً من غير قریش أو رأى نصب إمامین، بل لو أنکر منکر وجوب الصلاة والصوم وتحريم السرقة والزنا لبالغوا في التأثيم والتشديد لأنّ فيها أدلة قاطعة^(١).

٣- الشوكاني: قال بوجوب النظر وحرمة التقليد على العامي وغيره. ومن يدقق النظر في أقوال الشوكاني يعلم أنه أجاز التقليد في العموم.

قال -رحمه الله- عن سلفنا من رجال خير القرون:

(كان المقصر منهم يسأل العالم عن المسألة التي تعرض له فيفتيه بالنصوص التي يعرفها من الكتاب والسنة).

وفي موضع آخر قال -رحمه الله-:

(وكان العامي يسأل العالم عن حكم الله تعالى، وحكم رسوله ﷺ، أي يسأله عمّا عنده من القرآن والسنة الواردة في النازلة، فلو أجاب بما فهم أنه رأيه الشخصي، يسأل غيره من العلماء حتى يصل إلى حكم الشرع مع دليله)^(٢).

ومما سقناه من أقوال الشوكاني نعلم ما يلي:

- يعترف الشوكاني وغيره^(٣) بوجود عامة من المسلمين يجهلون كثيراً من أحكام

(١) المستصفي للغزالي: ص (٤٨٧-٤٩٠).

(٢) إرشاد الفحول في علم الأصول للشوكاني. ص (٢٤٨ / ٢٥٠ / ٢٦٨).

(٣) يقول بمثل رأي الشوكاني في الاجتهاد والتقليد في القديم ابن حزم وصديق حسن خان.

الشريعة الإسلامية.

- يقرر الشوكاني ومن معه جواز استفتاء العامة للعلماء المجتهدين.

- بعضهم [ابن حزم] يرى إجماع الصحابة رضوان الله عليهم حجة.^(١)

- والنظر الذي يراه أصحاب هذه المدرسة يعني معرفة الأمور بأدلتها، سواء كانت هذه المعرفة مباشرة أو عن طريق استفتاء أهل العلم، وهذا الذي ينكره الخوارج والمعتزلة في القديم، وأصحاب شكري في الحديث، والاختلاف بين هؤلاء وأولئك ليس هيئاً، وإنما هو اختلاف جذري لا لقاء فيه.

والذي نأخذه على الشوكاني ومن يقول بمثل رأيه: أنّ العامة حين يستفتون العلماء يطلبون منهم حكم الشرع، وإن لم يصرحوا بذلك، وقد يصرحون في بعض الحالات كقولهم: إن هذا العالم أو ذاك من أفقه الناس أو أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، ولهذا فهم يتوجهون إليه بالسؤال.

ومن جهة ثانية فالعامي عاجز عن معرفة الدليل والإحاطة به في معظم الحالات لاسيما إذا كان الدليل مبنياً على أصول الفقه ومصطلح الحديث ومعرفة الناسخ من المنسوخ والمطلق من المقيد، والخاص من العام. وعندما نطالب العامة بالدليل نكون قد كلفناهم ما لا يطيقون.

وممّا يقتضي التنويه به أنّ مواقف ابن حزم، والشوكاني وصديق حسن خان

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/١٤٧).

جاءت بمثابة رد فعل على مواقف المقلدين الذين يقدمون أقوال أئمتهم على الكتاب والسنة، ولا يسمحون لعقولهم الجامدة أن تفكر بمخالفة قول الشيخ أو علمه، لأنّ الدليل مع الشيخ ولا يفتي إلا به، وما أكثر هؤلاء الخلائق في القديم والحديث! لكننا مع ذلك كله نرى أن الشوكاني ومن قال بمثل رأيه قابلوا الغلو بشيء من الغلو.

٤- شيخ الإسلام ابن تيمية: فقد كان -رحمه الله- أميناً^(١) كعادته في عرض منهج رجال خير القرون، من الصحابة والتابعين وأئمة العلماء المجتهدين الذين نجاهم الله من التعصب المذهبي الذميم، وحفظ الله -جلّ وعلا- بهم دينه سالمًا من التغيير والتبديل والتحريف.

قال شيخ الإسلام بتحريم الطاعة المطلقة لإمام من الأئمة مهما علا شأنه وشاع بين الناس ذكره، ومن جهة أخرى أكد أنّ الوجوب مشروط بالقدرة، والعقوبة لا تكون إلا على ترك مأمور أو فعل محظور بعد قيام الحجة، ثم ضرب أمثلة على ذلك منها ما ثبت في الصحيح أنّ من الصحابة من أكل بعد طلوع الفجر في رمضان حتى تبيّن له الخيط الأبيض من الأسود، ولم يأمر النبي ﷺ أحداً منهم بالقضاء، ولا شك أنّ خلقاً من المسلمين بمكة والبوادي صاروا يصلون إلى بيت المقدس حتى بلغهم النسخ ولم يؤمروا بالإعادة ومثل هذا كثير.^(٢)

(١) وكل العلماء الذين استشهدنا بأقوالهم كانوا أمناء.

(٢) انظر فتاوى شيخ الإسلام (١٩/٢٢٦-٢٢٧).

وبعد أن عرضنا أقوال عدد من العلماء يمثلون اتجاهات إسلامية مختلفة، نستطيع أن نوجز أقوال سلف هذه الأمة من خير القرون بما يلي:

- لا يجوز تقليد إمام من الأئمة على الإطلاق في كل ما يفتي به.
- لا يجوز الاعتذار بالتقليد في إنكار معلوم من الدين بالضرورة إلا لمن كان حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ويجوز للعامة تقليد العلماء المجتهدين أو تقليد مذهب من المذاهب الأربعة في أركان وسنن الصلاة والحج والصوم.
- من يجهل حكماً من الأحكام عليه أن يستفتي الأتقياء الأئمة من العلماء الذين يعتمدون في فتاويهم على الكتاب والسنة، وعليه أن يسأل المفتي عن الدليل الذي اعتمد عليه، وعلى المستفتي أن يحذر أشد الحذر من العلماء المقلدين الذين لا يقدمون على أقوال شيوخهم دليلاً ولو كان آية أو حديثاً صحيحاً، كما أن على المستفتي أن يحذر الحذر كله من العلماء المنافقين الذين يبيعون دنياهم بأخرتهم^(١).

(١) فيما نقلناه عن العلماء أضفنا أموراً أخرى غير الإجتهد والتقليد:

ففي قول شيخ الإسلام ابن تيمية (من نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول و الفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) دليل على كراهية التقليد المذموم ولكن قوله هذا يدخل في باب الولاء والبراء.

وكذلك فيما نقلناه عن الإمام الغزالي يدخل في باب هل الحق واحد أم يمكن أن يتعدد. وكذلك تكرار قولي: من يجهل الحكم عليه أن يستفتي الأتقياء الأئمة من العلماء، أما الكتاب والسنة فالكل يزعم أخذ الفتوى منهما.

الوجه الخامس - من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد

يدندن شكري ومن معه حول نية المفتي، انظر إلى قولهم:

(وما قلناه في الرد [١] ^(١) هذا لو سلمنا جدلاً بحسن نيات هؤلاء، ولكن لا ندع هذه أيضاً، فهل تجزمون بحسن نياتهم على فرض أنهم علماء كبار؟! فإن قالوا: نجزم بحسن نياتهم فقد أعطوا أنفسهم ما لا يكون إلا لله تعالى وهو معرفة ما في الصدور، وإن قالوا: الله أعلم بهم وجب عليهم ترك هذا المصدر الذي يحتمل فيه سوء النية).

هذا ما قالوه في رسالة [الحجيات]، أما في رسالتهم [إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها] فقد زعموا أن المجتهد الذي يخطئ في مسألة من المسائل ضال مضل لأنه قصر في اجتهاده، وكان من الواجب عليه أن يصيب الحق ولا يحيد عليه قيد أنملة، والحق واحد ولا يجوز أن يتعدد، وأن يكون الطرفان المختلفان مصيبين).

وفي ردنا عليهم نقول، وبالله التوفيق:

الأصل أن حسن النية مقطوع به، ولا سيما ونحن نتحدث عن القرون الأولى المفضلة، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ولو وافقنا أصحاب شكري

(١) الرد [١] أي الذي يسأل المجتهد عن الحكم ولا يسأله عن الدليل فقد أثبت له العصمة.

على هذا الاحتمال لما استقر لنا قَدَم على شيء أبداً، ومن جهة أخرى لا يلزم من القول بحسن نيّاتهم ادعاء معرفة الغيب وما تخفيه الصدور.

ومن ثمّ فالقضية المطروحة عند أهل السنة والجماعة ليست حسن نية المجتهد أو سوئها، وإنّما: هل أخطأ المجتهد أم أصاب؟ وفي استبدالهم القضية المطروحة بقضية أخرى تلاعب في الألفاظ، وحيدة عن الحقّ، وسوء أمانة في النقل.

ووقوع الخطأ في الاجتهاد لا يعني الضلال، أو أنّ المشرع صار ندّاً لله، ففي الصحيحين عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».^(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في تعليق له على هذا الحديث: (فتبين أنّ المجتهد مع خطئه له أجر؛ وذلك لأجل اجتهاده، وخطؤه مغفور له؛ لأنّ درك الصواب في جميع أعيان الأحكام إمّا متعذر أو متعسر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفي الصحيحين^(٢) عن

(١) رواه البخاري [كتاب الاعتصام/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد (٣١٨/١٣) الفتح] الطبعة السلفية، ومسلم [كتاب الأقضية/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد (٣/١٣٤٢)] طبعة فؤاد عبد الباقي.
(٢) رواه البخاري [كتاب المغازي/ مرجع النبي من الأحزاب (٧/٤٠٧) الفتح] ومسلم [كتاب الجهاد والسير/ باب المبادرة بالغزو وتقديم أهمّ الأمرين] (٢/١٣٩١).

النبي ﷺ أنه قال لأصحابه عام الخندق:

«لا يُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرکتهم صلاة العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي إلا في بني قريظة، وقال بعضهم: لم يُرد منا هذا، فصلوا في الطريق فلم يعب واحدة من الطائفتين، فالأولون تمسكوا بعموم الخطاب، فجعلوا صورة الفوات داخله في العموم، والآخرين كان معهم من الدليل ما يوجب خروج هذه الصورة عن العموم، فإن المقصود المبادرة إلى القوم.

وهي مسألة اختلف فيها الفقهاء اختلافاً مشهوراً: هل يُخص العموم بالقياس؟ ومع هذا فالذين صلوا في الطريق كانوا أصوب.

وكذلك بلال رضي الله عنه لما باع الصاعين بصاع،^(١) أمره النبي ﷺ برده، ولم يرتب على ذلك حكم آكل الربا من التفسيق واللعن والتغليظ لعدم علمه بالتحريم. وكذلك عدي بن حاتم الطائي وجماعته من الصحابة لما اعتقدوا أن قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ معناه الحبال البيض والأسود، فكان أحدهم يجعل عقالين أبيض وأسود، ويأكل حتى يتبين أحدهما من الآخر! فقال النبي ﷺ لعدي:

(١) رواه البخاري [كتاب الوكالة/ باب إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود (٤/ ٣٩٠) الفتح] ومسلم [كتاب المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل] (٣/ ١٣٩١).

«إنَّ وسادك إذن لعريض، إنما هو بياض النهار وسواد الليل»^(١) فأشار إلى عدم فهمه لمعنى الكلام، ولم يرتب على هذا الفعل ذم من أفطر في رمضان، وإن كان من أعظم الكبائر.^(٢)

ومن هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها نعلم أن الصحابة -رضوان الله عليهم- اختلفوا في أمور كثيرة، وكان بعضهم يقلد ابن عباس، وبعضهم يقلد ابن عمر أو ابن مسعود، وكان ﷺ تبلغه مثل هذه القضايا، فيوضحها لهم، ويبين الصحيح منها، لكنه ﷺ ما كان يحكم على الذين أخطؤوا بكفر أو ردة، وقوم شكري يتفقون معنا في حجية الأحاديث الصحيحة، ومعظم هذه الأحاديث ورد في الصحيحين أو في أحدهما، بل وهم قد استدلوا بها ولم يضعفوا واحداً منها، لكنهم بكل أسف يتخذون منها أدلة ضد الصحابة أو من يقلدهم، لأنهم -أي الصحابة- كغيرهم من الناس يخطئون ويصيبون. وهذا نهج أصحاب البدع والأهواء في تأويل الأدلة التي تخالف ما يدعون إليه من أفكار وتصورات شاذة.

الوجه السادس - شكري فيما قاله عن التقليد كان مقلداً فيه

يعتقد شكري وجماعته أن أول كفر وقع في الأمة الإسلامية هو كفر التقليد، ويرون أن كل مسلم يجب أن يكون مجتهداً. ومن صور التقليد التي تعدها هذه

(١) رواه البخاري [كتاب التفسير/ باب وكلوا واشربوا ... (١٨٢/٨) الفتح] ومسلم [كتاب

الصيام/ باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر] (٧٦٦/٢).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/٢٥٢-٢٥٣).

الجماعة كفرًا: قول الصحابي أو التابعي والقياس ورأي الجمهور والإجماع سواء كان إجماع أهل المدينة أو الصحابة أو رجال خير القرون، ويضعنا قولهم هذا أمام السؤالين التاليين: هل كان شكري في الأصول التي وضعها، وفي جميع رسائله التي كتبها مجتهداً؟! وهل ربّي أصحابه ليكونوا في المستوى الاجتهادي الذي تحدّث عنه وأوجبه على كل مسلم؟!!

وجوابنا عن ذلك: لقد كان شكري مقلداً في كل ما كتبه عن الاجتهاد والتقليد، ففيما زعمه أنّ الخطأ والإثم متلازمان كان مقلداً للمعتزلة البغداديين^(١) وبشر المريسي،^(٢) وقد ذكرنا في الوجه الخامس رداً موجزاً عليهم، ومن شاء مزيداً من التفصيل فليعد إلى كتب أهل السنة والجماعة كفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وسائر كتب الأصول المشهورة. أما حديث جماعة شكري في رسالتهم الحجيات عن التقليد، فليعد القراء إلى كتاب [الإحكام في أصول الأحكام] لابن حزم^(٣)، وكذلك إلى كتاب [إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول]

(١) المعتزلة البغداديون: هي إحدى مدرستي المعتزلة [بغداد والبصرة] وهي متأخرة في الظهور عن مدرسة البصرة، ومؤسسها بشر بن المعتمر، وهي لا تخالف مدرسة البصرة في أصولها ولكن في بعض الفروع. انظر الفرق بين الفرق. ص (١٥٦).

(٢) بشر المريسي: بشر بن غياث من رؤوس المعتزلة، ويقول بالإرجاء أيضاً، أخذ الفقه عن القاضي [أبو يوسف]، وقيل كان أبوه يهودياً، وللدارمي كتاب في الرد على مذهبه، توفي سنة ٢١٨ هـ. انظر الأعلام (٢/٥٥).

(٣) باب إبطال التقليد (١٠٣٦-١١٥١) وباب الاجتهاد (١٤٧٨-١٤٩٣).

للسوكاني^(١)، وسيعلم من يعود إلى هذين الكتابين أن شكري اعتمد عليهما في كل ما كتبه عن الاجتهاد والتقليد إلا ما قلده به المعتزلة في قولهم: إن الخطأ والإثم متلازمان.

وليس غريباً على شكري أن يتناول بالدراسة أمهات كتب الأصول، لأن رسالة الحجيات من رسائل الأصول التي وضعها، بل هي أهم رسائل الجماعة في هذا الفن، وتصنيف هذه الرسالة كان في نهاية العقد العاشر من القرن الرابع عشر الهجري، وقد ناقش فيها أقوال الأئمة وآراءهم التي تخالف مذهبه كالتنوي والخطابي وغيرهما، وهذا يعني أنه عاد إلى كتبهم وأطلع عليها، كما أنه عاد إلى الكتب والمؤلفات التي فيها ما يتفق مع مذهبه في بعض الجوانب، ومن أبرزها الأحكام لابن حزم، وإرشاد الفحول للسوكاني، وليس من قبيل المصادفة أن تكون أقواله مطابقة لأقوالهم إلى حد كبير... ومن هنا نعلم بأن شكري لم يكن أميناً ولا ثقة لأنه استدل بأموور وشواهد لم يشر إلى مصادرها، بل أوهم طلابه ومؤيديه بأنه لم يسبق إلى مثل هذه الآراء، ومن جهة أخرى فكان مقلداً لابن حزم والشوكاني، وهو القائل بأن التقليد كفر وردة عن الإسلام، فكيف وقع بما كفر الناس من أجله؟!!

أما أتباع شكري فقد قلّدوه في الأصول التي وضعها، فكان شيخهم وإمامهم - بل إمام المسلمين زعموا- هو المرجع الوحيد عندهم في تفسير الكتاب

(١) ص (٢٦٥-٢٧٣) مطبعة البابي الحلبي.

والسنة، وقوله أهم من إجماع الصحابة -رضوان الله عليهم-، مع أنه ليس من أهل الاجتهاد وكذلك أتباعه، وفاقد الشيء لا يعطيه، فكيف أمرهم بعدم تقليد الصحابة والتابعين ورجال خير القرون وأوجب عليهم تقليد نفسه؟!

فإن قالوا: نحن اقتنعنا بهذه الأصول وارتضيناها منهجاً لنا، قلنا لهم: ونحن اقتنعنا بالأصول التي أجمع عليها أهل السنة والجماعة وارتضيناها منهجاً لنا، فلماذا يكون اقتناعنا كفراً واقتناعكم حقاً؟!

نعود إلى ما أخذوه عن الشوكاني وابن حزم ونسألهم: لماذا أخذتم عن هذين الإمامين كل أدلتكم وتجاوزتم ردودهما عليكم من خلال نقدهم لمنهج المعتزلة؟!

قال الإمام الشوكاني -رحمه الله-:

(واعلم أن التكفير لمجتهدي الإسلام بمجرد الخطأ في الاجتهاد في شيء من مسائل العقل عقبة كؤود لا يصعد إليها إلا من لا يبالي بدينه ولا يحرص عليه؛ لأنه مبني على شفا جرف هار، وعلى ظلمات بعضها فوق بعض، وغالب القول ناشئ عن العصبية، وبعضه ناشئ عن شبه واهية ليست من الحق في شيء، ولا يحل التمسك بها في أيسر أمر من أمور الدين فضلاً عن هذا الأمر الذي هو مزلة الأقدام ومدحضة كثير من علماء الإسلام، والحاصل أن الكتاب والسنة ومذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يدفع ذلك دفعاً لا شك فيه ولا شبهة، فإياك أن تغتر بقول من يقول منهم إنه يدل على ما ذهب إليه الكتاب

والسنة، فإنّ ذلك دعوى باطلة مترتبة على شبهة داحضة، وليس هذا المقام مقام بسط الكلام على هذا المرام فموضعه علم الكلام.^(١)

وقال ابن حزم - رحمه الله -:

(ولكن من لا يتقي الله عزّ وجل ممن قد بهره الحق وعجز عن نصره الباطل وأراد استدامة سوقه، ولا يبالي إلى ما أذاه ذلك أوقع على اعتقاد الحق الذي قد ثبت برهانه اسم التقليد، فسَمَّى الانقياد لخبر الواحد تقليداً، وسَمَّى الإجماع تقليداً، وسَمَّى اتّباع النبي ﷺ فيما أمر باتّباعه من ملة إبراهيم عليه السلام تقليداً).^(٢)

وجماعة شكري يسمون الإجماع تقليداً، وأمّا خبر الواحد فليس عندهم من التحقيق ما يمكنهم من تفريق الخبر المتواتر عن خبر الواحد... رأيت أخي كيف نقلوا ما يوافق ضلالاتهم وتجاوزوا القول الذي يفضحهم ويكشف أباطلهم؟

الوجه السابع - استدلالهم بقول ابن عباس

أما استدلالهم بقول ابن عباس: (أقول لكم قال الله وقال الرسول، وتقولون: قال أبو بكر وقال عمر، يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء)، فلنا عليه الاستدراكات الآتية:

١ - كان ابن عباس رضي الله عنهما يرى أنّ التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، وكان يقول: (إذا

(١) إرشاد الفحول للشوكاني. ص (٢٦٠).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، ص (١٠٤٦/٢).

طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلّ من عمرته شاء أم أبي) لحديث سراقه بن مالك حين أمرهم رسول الله ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة فقال سراقه: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «بل للأبد، وإنّ العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة».^(١)

إذاً، كان ابن عباس يفتي بأحاديث نبوية صحيحة، وكان بعض الصحابة يردون عليه بأقوال لأبي بكر وعمر، ومن المعروف عند أهل السنة والجماعة، أنه لا يصح الأخذ بقول الصحابي إذا عارض قولاً أو عملاً ثبت عن رسول الله ﷺ. سئل ابن عمر -رضي الله عنهما- عن متعة الحج هي حلال: فقال له السائل: إنّ أباك قد نهى عنها، فقال: رأيت إن كان أبي نهى عنها، وصنعها رسول الله ﷺ أمر أبي تتبع أم أمر رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ.^(٢)

وقال الإمام الشافعي -رحمه الله-: (أجمع العلماء على أنّ من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد). وقال الإمام أحمد -رحمه الله-: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول:

(١) رواه البخاري (٤٨٥/٣) و (٩٧/٥) و (١٨٧/١٣) ومسلم (١٢١٦) و (١٢١٨) وابن ماجه (٢٩٧٧) والنسائي (١٧٨/٥) وأبو داود (١٧٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي [كتاب الحج/ باب ما جاء في التمتع] (٨٢٤) وإسناده صحيح.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك).^(١)

فكلام ابن عباس وغيره من العلماء خير ردّ يرد به أهل السنة والجماعة على أهل الغلو: كالخوارج والمعتزلة وجماعة شكري وعلى أهل البدع من الشيعة وأهل التصوف ودعاة التعصب المذهبي، ومن المفارقات العجيبة أن يستدل به شكري للرد على أهل السنة والجماعة.

٢- يجب ألا ننسى أنّ الذي كان يقول بوجوب التمتع بالعمرة إلى الحج هو ابن عباس: الصحابي الجليل الذي لازم رسول الله منذ نعومة أظفاره، وروى عنه الأحاديث، وكان يسمّى حبر الأمة، وترجمان القرآن. وقال عمرو بن دينار: (ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أعضلت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له: (أنت لها ولأمثالها).^(٢)

وجملة القول: فقد كان المفتي فارساً من فوارس هذا الميدان، وكل من توفرت فيه الصفات التي يجب أن تتوفر في المفتي جاز له أن يجتهد ويفتي.

(١) فتح المجيد. ص (٣٨٣).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢/١٢٠) وإعلام الموقعين (١/١٩).

٣- الغريب أنّ قول ابن عباس وغيره من أقوال الصحابة لا تساوي شيئاً عند شكري وأصحابه، وأنهم استدلوا به هنا للرد على أهل السنة والجماعة، ومثلهم في ذلك كمن يرد على النصارى بنصوص من الإنجيل، وعلى اليهود بنصوص من التوراة دون أن يكون مقتنعاً بصحة الأناجيل أو التوراة المتداولة بين أيدي اليهود والنصارى، ومثل هذا الأسلوب معروف عند أهل الجدل والمناظرة.

الوجه الثامن - افتراؤهم على أهل السنة

لم يقل أهل السنة والجماعة: إنّ الله لا يمكن أن يكلف الجاهلين بالإسلام، وإنما الذي قالوه: إنّ الله لا يمكن أن يكلف عامة المسلمين بالاجتهاد، والفرق واسع بين هذا القول وذاك.

لقد فرض الله على كل مسلم: ^(١) شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله والصلاة والزكاة والصوم والحج، وحرّم عليه نكاح ذوات المحارم، والزنا والربا وشرب الخمر، وليس لأحد من المسلمين أن يدعي أنه لا يصلي لأنه لا يعلم أنّ الله قد فرض عليه الصلاة، كما أنه ليس لأحد من المسلمين أن يزعم أنه قد زنى لأنه لا يعلم أنّ الله قد حرم عليه الزنا، ليس لمسلم أن يقول بهذا أو ذاك لأنّ مثل هذه الأمور معلومة من الدين بالضرورة، ولا تحتاج معرفتها إلى بذل جهد كبير.

أما الذين يزعمون بأنّ الله قد أوجب الاجتهاد على كل مسلم، ومن لم يبلغ

(١) أي على كل مسلم ومسلمة إذا بلغ حدّ الرشد وكان عاقلاً.

هذه المرتبة فهو كافر مشرك، فقد بيّنا في الصفحات الماضية أنّ أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا جميعهم من المجتهدين، ولم تخل العصور الإسلامية من مقصرين يقلدون كبار العلماء والأئمة، كما بيّنا أنّ جماعة شكري كانوا مقلدين لزعيمهم الذي لم يبلغ مرتبة الاجتهاد، ولم يكن بين جميع أعضاء هذه الجماعة مجتهد واحد.

ومع ذلك فلقد فتح الإسلام باب الاجتهاد على مصراعيه لكل من تتوفر فيه صفات الاجتهاد، ومن أهمها:

- معرفة اللغة والنحو.

- معرفة النسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة.^(١)

- معرفة الرواية وتمييز صحيح السنة عن ضعيفها.

ولا يلزم أن يبلغ مرتبة كبار الأئمة والعلماء، وقد يكون مجتهداً مطلقاً، فيجوز له أن يطرق كلّ باب، وقد يكون مجتهداً في مسألة من المسائل أحاط بها من جميع أطرافها.

وإذا كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه أمام أهل العلم الأتقياء العدول، فهو مغلق أمام الجهلة ولو كانوا صادقين، كما أنه مغلق أمام أهل الضلالة المبتدعين، بل ومن أخطر الأمور في دين الله أن يتصدر الفتوى من لم

(١) أصول الفقه للشيخ محمد الخضري. ص (٣٦٩).

يكن أهلاً لها. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رِءُوساً جَهَالاً، فَسَأَلُوا فَأُفْتُوا بغير علم فضلوا وأضلوا».^(١)

ولهذا كان سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- يتهيبون من الفتيا، ويزهدون في مناصب القضاء، ولا يجد أحدهم أي حرج في قوله لمن يسأله: لا أدري.

قال الترمذي -رحمه الله-: (كل حديث في كتابي قد عمل به بعض أهل العلم إلا حديثين: حديث الجمع، وقتل الشارب،^(٢) ومع هذا فكلا الحديثين قد عمل به طائفة، وحديث الجمع قد عمل به أحمد وغيره).^(٣)

لقد كان الترمذي إماماً من كبار أئمة الحديث في عصره بل في تاريخنا الإسلامي، ومع ذلك كان يخشى أن ينفرد بحديث لم يعمل به أهل العلم، ولا يضيره أن ينفرد برواية ثبت عنده صحتها لأنه فارس في هذا الميدان. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (ولكن من ثبت عنده نص ولم يعلم قائلًا به، وهو لا يدري: أجمع على نقيضه أم لا؟ فهو بمنزلة من رأى دليلاً عارضه آخر

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر [كتاب العلم/ كيف يقبض العلم (١/١٩٤) الفتح] ومسلم [كتاب العلم/ باب رفع العلم وقبضه] (٤/٢٠٥٨).

(٢) الجمع أي بين الصلاتين، وقتل الشارب أي شارب الخمر. انظر كتاب العلل للترمذي في آخر سننه (٥/٧٣٦).

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/٢٦٨).

وهو بعد لم يعلم رجحان أحدهما، فهذا يقف إلى أن يتبين له رجحان هذا أو هذا، فلا يقول قولاً بلا علم، ولا يتبع نصاً مع ظن نسخه وعدم نسخه عنده سواء، لما عارضه عنده من نص آخر أو ظن إجماع، ولا عاماً ظن تخصيصه وعدم تخصيصه عنده سواء).^(١)

فأين جماعة شكري من هذه المعاني التي قرّرها أعلام الإسلام؟! أو لا يعلمون أنّ نقل جبل من مكان لآخر أهون عند الله من أن يطلق الإنسان العنان للسانه في شتم علماء الإسلام في القديم والحديث؟!!

زعموا أنهم أعلم من الترمذي ومن سبقه من الصحابة والتابعين، ومن يطلع على رسائلهم، يتبين له بطلان ادعائهم، وسقم عقولهم، وشدة جهلهم. وإن وُجد من أهل السنة والجماعة من يقول: (إنّ الله لم يكلف الجاهلين بالإسلام)، فالواجب يقتضي أن ينسب القول لأهله القائلين به أفراداً كانوا أو جماعات، أمّا أن يُنسب لأهل السنة ولجميع الجماعات الإسلامية فهذا هو الظلم بعينه، والافتراء بأوسع معانيه، وتحداهم أن يأتونا بدليل على ذلك، نتحداهم أن يأتوا بشبهة دليل في مصدر من مصادر أهل السنة المعتمدة.

ولا أدري، كيف يظلمون أهل السنة ويكذبون عليهم مع أنهم يعتقدون بأنّ الظلم والكذب كفرٌ مخرج عن الملة؟!!

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٦٨/١٩).

ومن المؤسف جداً أن بعض الشباب الذين هم على عجلة من أمرهم وافقوا مدرسة شكري، وظنوا أنهم قادرون على الاجتهاد والإفتاء بمجرد حفظ بعض الأحاديث ودون أن تكون لهم أدنى صلة بأممات كتب الأصول والفقه والتفسير فسقطوا في أحوال الجهالة ووقعوا في متناقضات لا تحصى وظنوا أنهم يحسنون صنعاً. فليحذر هؤلاء الشباب ومن نهج نهجهم أن تصيبهم فتنة أو تنزل عليهم قارعة، وليصححوا اعوجاجهم قبل أن يأتي يوم لا ينفعهم فيه الندم.

الوجه التاسع - استهانتهم بالعلماء الأعلام... ولماذا؟!!

ومن غرائب هذه الجماعة قولهم في رسالة الحجيات: (إن الفقيه لا يحمل من العلم أكثر مما يحمله العامة). وقالوا في موضع آخر من الرسالة: (ثم إن دعوى أن الفقيه يحمل علماً أكثر مما هي دعوى مرفوضة... ونحن ننازعهم في ذلك).

ثرى، هل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر ومعاذ... إلخ لا يحملون من العلم إلا ما يحمله العامة من المسلمين في أطراف جزيرة العرب في عصرهم؟!!

وهل كان أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم ويحيى بن معين والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود وابن حجر العسقلاني وابن تيمية وغيرهم وغيرهم لا يحملون من العلم إلا ما يحمله العامة في عصورهم أو في عصرنا؟!!

ليتصور القارئ الكريم ابن حجر العسقلاني وما دونه من علوم في مختلف المجالات ثم يتصور مسلماً من العامة لا يفقه كثيراً من أمور دينه، ثم يتصور بعد ذلك قول هذه الجماعة: (إن ابن حجر العسقلاني لا يحمل من العلم أكثر مما يحمله هذا العامي)!!

ويتلاعب أصحاب شكري في الألفاظ من أجل تثبيت هذه الأقوال الشاذة في أذهان أتباعهم فيضيفون إلى قولهم السابق ما يلي: (لا يمكن معرفة علم أحد من الناس إلا بما يكتبه أو يفتي به).

سبحان الله كيف تحيد هذه الجماعة عن الحق!! إننا لم نشهد لكبار أئمتنا بالعلم إلا بعد أن رأينا لهم من آثار وكتب علمية شهد لهم بها العدو قبل الصديق ومن أهمها: التفسير وعلومه، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، وعلوم اللغة العربية، علم الرجال، علوم العقيدة... وأجمعت الأمة جيلاً بعد جيل على أهمية هذه العلوم، مع وجود الخلاف في التفاصيل التي من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر فيها. أما الأصول المعلومة من الدين بالضرورة فلا خلاف عليها والحمد لله.

وبعد التلميح يسفر شكري عن وجهه، ويفصح عن قصده بقوله: (ثم إن دعوى أن الفقيه يحمل علماً أكثر مما هي دعوى مرفوضة... ونحن ننازعهم في ذلك).

وبشكل أكثر صراحة يقول شكري لأتباعه: (من قال لكم أن الصحابة والتابعين وكبار الأئمة المحققين من رجال خير القرون أكثر علماً مني؟!).

إذاً، لماذا يقبل المسلمون على كتبهم ويتعلقون بها تعلقاً يهدد زعامته التي يريد فرضها على جميع الناس.

ثم يسترسل شكري في دفاعه عن مقولته التي زعمها فيقول: (بين أيدينا عدد كبير من الأحاديث الصحيحة التي لم تكن متوفرة لأي عالم أو إمام من كبار الأئمة).

عجباً من منطق هذه الجماعة: كيف قبلت الأحاديث التي صحّحها هؤلاء العلماء الأفاضل، ثم ترفض الاعتراف بأنهم أعلم من شكري وأصحابه؟!!

إنّ فضل علماء الحديث على الأمة الإسلامية لا ينكره إلا كل جاهل متعنّت، وسوف يستمر دورهم وفضلهم لأنهم الطائفة المنصورة التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله. ومن زعم أنه يستطيع أن يقوم بالجهد الذي يؤديه علماء الحديث، ولا علم عنده فقد أبعده النجعة وافتري بهتاناً وإثماً مبيهاً.

بل ومن زعم أنّ علماء الحديث عنده كعمال الخدمات يقدمون له الحديث الصحيح، وهو الذي يتولى فهمه وشرحه... من زعم ذلك فقد أساء للعلم وأهله ووضع نفسه في مكانة لا يستحقها، وهذا شأن المغرورين الذين يعجبون بأرائهم، ولا يرون لأحد من الناس فضلاً عليهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

الفصل الثاني

الإجماع

لماذا أفردنا للإجماع فصلاً؟

الوجه الأول: حجية الإجماع.

الوجه الثاني: مستند الإجماع.

الوجه الثالث: التقليد.

الوجه الرابع: أنواع الإجماع.

الوجه الخامس: حكم منكري الإجماع.

لماذا أفردنا للإجماع فصلاً؟

من أنواع التقليد المذموم التي دعت جماعة شكري إلى نبذه [الإجماع]، ولم يتوقفوا عند القول بخطأ من يراه دليلاً شرعياً، وإنما تجاوزوا ذلك وزعموا كفر من يعتقد حجيته؛ لأنه اتخذ الناس آلهة و أرباباً من دون الله - سبحانه وتعالى -. جاء في رسالتهم [الحجيات] ما يلي:

(الإجماع ليس حجة، وإنما الحجة في مستنده إن ظهر لنا، وإن لم يظهر فلا يصح أن يشرع لنا الرجال ديناً ثم نطيعهم فيكونوا آلهة وأرباباً من دون الله).

إذاً، فخلافتنا مع قوم شكري حول الإجماع ليس كسائر الخلافات التي تقع بين العلماء داخل إطار أهل السنة والجماعة حول هذه المسألة.

فمن علماء أهل السنة والجماعة من ينكر حجية الإجماع السكوتي، ومنهم من ينكر حجية إجماع أهل المدينة، وحجية الإجماع بعد أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم من ينكر حجية الإجماع على الإطلاق سواء كان صريحاً أم سكوتياً، كما ينكر حجية إجماع الصحابة -رضوان الله عليهم- وهم قلة، وقولهم هذا غريب وشاذ، وربما كان بسبب عدم تصورهم وقوعه، ولكن ليس بين علماء أهل السنة والجماعة من يعتقد كفر الذين يقولون بحجية الإجماع.

ومن جهة أخرى عندما تحدث أصحاب شكري عن الإجماع تجاوزوا قضية

الاجتهاد والتقليد، وأثاروا الشبهات^(١) التي أثارها من قبلهم أهل الأهواء والبدع كالرافضة والمعتزلة. وإزالة لكل التباس ينتج عن شيوع تصورات هذه الجماعة وغيرها من جماعات أهل الغلو، ولأن الإجماع مصدر من مصادر التشريع، وهو حجة بذاته، وله أهمية كبيرة في طريقة فهم الكتاب والسنة، وحرصاً مني على عرض أقوال المحققين من علماء أهل السنة والجماعة في مسألة الإجماع، فقد أفردت له هذا الفصل، وقسمته إلى الوجوه الآتية:

الوجه الأول - حجية الإجماع

ليس الإجماع أقوال وآراء الرجال مجردة، كما تزعم جماعة شكري، وإنما يستند الإجماع إلى أدلة ونصوص شرعية، وهو حجة قطعية عند أهل السنة والجماعة إذا علم وكان صريحاً، والأدلة على ذلك ما يلي:

١- الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل والخيار، وقد جعلهم الله شهداء على الناس، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول.

(١) شبهاتهم حول الصحابة -رضوان الله عليهم- لا تختلف كثيراً عن شبهات الرافضة، فقد لجؤوا إلى التلميح والمراوغة وتجنبوا الصراحة والوضوح، لذا أفردت فصلاً مستقلاً للرد على هذه الشبهات.

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهو ثناء عليهم، وثناء الله - عز وجل - تعديل لهم، وتأکید منه - جلّ وعلا - بأنّ خير أمة أخرجت للناس لن تجتمع على ضلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، لقد رضي الله عمّن أتبع السابقين الأولين، وفي هذا دليل على أنّ متابعهم عامل بما يرضي الله، والله سبحانه و تعالى لا يرضى إلا بالحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

(وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات، كان مالك يأثرها عنه كثيراً. قال: سنّ رسول الله ﷺ وولاية الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله ومعونة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها، فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولأه الله ما تولى وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً^(١) والشافعي رحمه الله لما جرّد الكلام في أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع، كما كان هو

(١) انظر الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/١٧٣) طبعة دار إحياء السنة النبوية.

وغيره ومالك ذكر عن عمر بن عبد العزيز. والآية ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد، كما كان مشاق الرسول ﷺ من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد... ومعلوم أن هذا الوصف يُوجب الوعيد بمجرد، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل في ذلك لكان لا فائدة من ذكره.^(١)

٢- السنة:

قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار».^(٢)

وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية».^(٣)

وقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضيرهم من خذلهم حتى

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/١٧٦-١٨٠).

(٢) رواه أبو داود في الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها (٤/٩٨) والترمذي في الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٦٦) ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر وصححه الألباني، انظر تخريج المشكاة (١٧٣).

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والدارمي، انظر الفتح (كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة) (١٣/١٢١) ومسلم (كتاب الإمارة) (٣/١٤٧٦).

يأتي أمر الله»^(١).

عن عبد الله بن أبي لييد عن ابن سليمان بن يسار عن أبيه أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية فقال: إن رسول الله قام فينا كمقامي فيكم، فقال: «أكرموا أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليحلف ولا يستحلف، ويشهد ولا يستشهد، ألا فمن سره بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهم، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»^(٢).

(١) البخاري ومسلم وأحمد في المسند عن معاوية بنحوه، انظر الفتح (كتاب المناقب/ أحاديث علامات النبوة) (٦/٦٣٢) ومسلم في الإمارة (٣/١٥٢٣).

(٢) قال العلامة أحمد شاكر - رحمه الله - : [الحديث بهذا الإسناد مرسل، لأن سليمان بن يسار لم يدرك عمر، ولم أجده بهذا الإسناد في غير هذا الموضع، ولكنه حديث صحيح معروف عن عمر. رواه أحمد في المسند من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر، ومن طريق عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن عمر (١/١٨-٢٦) رقم (١١٤/١٧٧). ورواه الطيالسي من الطريق الثاني أيضاً [٧] وكذلك روى ابن ماجه قطعة (٢/٣٤). ورواه الترمذي في أبواب الفتن في باب لزوم الجماعة من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر (٣/٢٠٧) من شرح المباركفوري، قال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وكذلك رواه الحاكم في المستدرک بأسانيد من طريق عبد الله بن دينار وصححه، ورواه أيضاً من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن عمر، وصححه، ووافقه الذهبي (١/١١٣-١١٥). وورد المعنى أيضاً في أحاديث صحاح، من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين وعائشة وجعدة بن هبيرة، أشار إليها العجلوني في كشف الخفاء رقم (١٢٦٥)، انظر حاشية الرسالة للشافعي (٤٧٥).

قال الشافعي رحمه الله في تعليق له على هذا الحديث: (إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة وأبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى، لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئاً، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى، إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما).

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها، وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة من معنى كتاب ولا سنة ولا قياس، إن شاء الله).^(١)

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها. فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة، وإنما تكلم بعضهم بالرأي في مسائل قليلة، والإجماع لم يكن يحتاج به عامتهم ولا يحتاجون إليه إذ هم أهل الإجماع فلا إجماع قبلهم، ولكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح: اقض بما في كتاب الله، فإن لم تجد فيما في سنة رسول الله، فإن لم تجد فيما به قضى الصالحون قبلك).

(١) الرسالة للإمام الشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر (٤٧٤-٤٧٦).

وفي رواية: فيما أجمع عليه الناس.

وعمر قدّم الكتاب ثمّ السنة وكذلك ابن مسعود وقال مثلما قال عمر، قدّم الكتاب ثمّ السنة ثمّ الإجماع وكذلك ابن عباس كان يفتي بما في الكتاب ثمّ بما في السنة ثمّ بسنة أبي بكر وعمر، لقوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر و عمر»^(١) وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء، وهذا هو الصواب.^(٢)

٢- النظر:

وهذه الأحاديث النبوية وغيرها من الأدلة لم تزل ظاهرة مشهورة في الصحابة والتابعين لم يدفعها أحد من السلف والخلف، وهي وإن لم يتواتر آحادها حصل لنا بمجموعها العلم الضروري أنّ النبي ﷺ عظم شأن هذه الأمة ويبن عصمتها عن الخطأ، وأكد لنا أنّ طائفة من أمته لا تزال على الحق حتى يأتي أمر الله.

و بمثل ذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى تصديق شجاعة علي وسخاء حاتم وعلم عائشة، وإن لم يكن آحاد الأخبار فيها متواتراً، بل يجوز على كلّ واحد منها

(١) رواه الترمذي (كتاب المناقب/ مناقب أبي بكر وعمر) (٦٠٩/٥) وقال حديث حسن [طبعة أحمد شاكراً] وابن ماجه (المقدمة/ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) (٣٧/١) [طبعة عبد الباقي] وصححه الحاكم والذهبي [المستدرک (٣/٧٥)] وصححه أحمد شاكراً في حاشيته على (الإحكام في أصول الأحكام) لابن حزم (٦/٨٠).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/٢٠٠-٢٠٢).

الكذب لو جرّدنا النظر إليه ولا يجوز على المجموع، ويشبه ذلك ما يحصل فيه العلم بمجموع قرائن آحاد بها لا ينفك عن الاحتمال ويحصل بمجموعها العلم الضروري.

(ومن وجه آخر أن هذه الأحاديث لم تنزل مشهورة بين الصحابة والتابعين يتمسكون بها في إثبات الإجماع، ولا يظهر فيه أحد خلافاً إلى زمن النظام - أي المعتزلة - ويستحيل في مطّرد العادة ومستقرها توافق الأمم في أعصار مطّردة على التسليم لما لم تقم الحجة بصحته مع اختلاف الطباع وتباين المذاهب في الردّ والقبول، ولذلك لم ينفك حكم ثبت بأخبار الآحاد عن خلاف مخالف وإبداء تردد فيه.

ومن وجه آخر وهو أنّ المحتجين بهذه الأخبار أثبتوا بها أصلاً مقطوعاً به وهو الإجماع الذي يُحكم به على كتاب الله و سنة رسوله، ويستحيل في العادة التسليم بخبر يرفعون به الكتاب المقطوع به إلا إذا استند إلى مستند مقطوع به، وأما رفع المقطوع بما ليس بمقطوع فليس معلوماً حتّى لا يتعجب متعجب ولا يقول قائل: كيف ترفعون الكتاب القاطع بإجماع مستنده إلى خبر غير معلوم الصحة، وكيف يذهل عنه جميع الأمة إلى زمن النظام؟! (١).

ولبيان أهمية الإجماع وكونه دليلاً قطعياً إذا كان صريحاً، نختار مثالين من أهم الأمور التي أجمع عليها أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته:

(١) انظر روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي (١١٨-١١٩).

الأول: إجماعهم على قتال مانعي الزكاة وسائر أهل الردة.

الثاني: إجماعهم على تنصيب خليفة المسلمين وعلى صحة إمامة أبي بكر ونحو ذلك.

ترى ماذا كان سيحدث من مصائب وويلات على المسلمين لو لم يتفقوا على خليفة لهم بعد التحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى؟! بل وكيف سيكون حالة المسلمين لو لم يقاتلوا مانعي الزكاة!؟

ليس بين أيدينا أدلة صريحة واضحة وقطعية تحدد كيفية انتقال القيادة بعد رسول الله ﷺ وَمَنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَخُولٌ لَتَوْلِي هَذَا الْمَنْصِبِ، ولو كان الأمر كذلك لما تعددت الآراء، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليختاروا واحداً منهم، وكادت تحدث فتنة بين المسلمين لو لا فضل الله عليهم ورحمته بهم.

كانت هنالك ولا شك أحاديث نبوية تحدد شكل الحكم، وهي بمثابة خطوط عريضة، كما كانت هنالك أحاديث نبوية تؤكد الخلافة في قريش - لأسبقيتهم - وليست في الأنصار، وإذا كان الأمر في قريش فأفضلهم بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، وقد اختاره رسول الله إماماً للمسلمين في الصلاة، فكيف لا يكون إماماً لهم في الحكم وتصريف أمور المسلمين.

وما زال الشيخان والسابقون الأولون يوضحون للمسلمين أهمية اختيار خليفة، ويقدمون لهم الأحاديث التي صحّت عن رسول الله ﷺ في هذه المسألة حتى انعقد إجماع أهل الحلّ والعقد من المهاجرين والأنصار على تنصيب خليفة للمسلمين،

وأن يكون أبو بكر رضي الله عنه هو هذا الخليفة، وأصبح دليل تنصيب خليفة للمسلمين في كل عصر من العصور حجة قطعية بعد إجماع الصحابة رضوان الله عليهم.

وقل مثل ذلك في قتال مانعي الزكاة، وفي جمع القرآن الكريم في خلافة الصديق أبي بكر، وتوحيد المصاحف في خلافة عثمان. ولولا هذا العمل الجليل لجرّ تعدد المصاحف بلاءً عظيماً على المسلمين، ولكن الله جلّت أسماؤه وصفاته الذي تعهد بحفظ دينه وكتابه هيئاً لهذه الأمة رجالاً أفذاذاً، وشرع لهم الاجتهاد والإجماع بأدلة من كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم، فأين من هذا قول جماعة شكري ومن نحا نحوهم: (إنّ الإجماع ليس حجة، وإنما الحجة في مستنده إن ظهر لنا!!).

لقد كان المستند موضع خلاف بين أبي بكر وعمر بل بين أبي بكر وجميع الصحابة في قضية قتال مانعي الزكاة. وكان المستند موضع استغراب وتردد الذين أمرهم أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم، وانتهى كل خلاف بين الصحابة ومن جاء بعدهم بعد أن انعقد الإجماع.

بل وأين من هذا قول جماعة شكري عن الإجماع: (لا يصح أن يشرع لنا الرجال ديناً ثم نطيعهم فيكونوا آلهة وأرباباً من دون الله).

هذا - لعمر الله - جهل أو تجاهل فاضح بحجية الإجماع ومشروعيته!

الوجه الثاني - مستند الإجماع

الإجماع - عند علماء الأصول - هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد النبي ﷺ على حكم شرعي. ويستحيل أن يتفق مجتهدو أهل السنة والجماعة في عصر من العصور على مسألة ثم لا يكون في هذا الاتفاق دليل من قول المصطفى ﷺ أو فعله أو تقريره.

مثال: نقل فيما يلي الحوار الذي دار بين أبي بكر وعمر في مسألة قتال مانعي الزكاة: «عمر: يا أبا بكر، كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله».

أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها.

عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق^(١).

وفي هذا المثال اعتمد أبو بكر في موقفه من مانعي الزكاة على نص من قول المصطفى ﷺ، والعجيب أنّ عمر بن الخطاب اعتمد على النص نفسه في

(١) رواه الشيخان، انظر فتح الباري (٣٠٢/١٥) [مطبعة الحلبي]. عناقاً: الأثني من ولد المعز. (فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) أي ظهر له الحق من صحة احتجاج أبي بكر، لا أنه قلده في ذلك.

معارضته لأبي بكر، لكنه لم ينتبه لقول الرسول ﷺ إلا «بحقه»، وعندما سمع رد أبي بكر اطمأنت نفسه، وشرح الله صدره للحق، وانتهى الخلاف إلى إجماع قطعي صريح لا يجوز لأحد من المسلمين أن يعمل بخلافه، وقد سير أبو بكر الجيوش لحرب مانعي الزكاة، ولم يخالف صحابي واحد.

ولما كان أصحاب شكري يرددون في هذه المسألة أقوال سلفهم من أهل البدع والضلالة، نختار فيما يلي ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على المعتزلة ومن نحا نحوهم:

(لا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الإجماع فيستدل به، كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص، وهو دليل ثانٍ مع النص، كالأمثال المضروبة في القرآن، وكذلك الإجماع دليل آخر، كما يقال: قد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، وكلّ من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها؛ فإنّ ما دلّ عليه الإجماع فقد دلّ عليه الكتاب والسنة، وما دلّ عليه القرآن فعن الرسول أخذ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه، ولا يوجد مسألة متفق عليها إلا وفيها نصّ).

وضرب شيخ الإسلام على ذلك الأمثلة التالية:

(وقد كان بعض الناس يذكر مسائل فيها إجماع بلا نص كالمضاربة وليس كذلك، بل المضاربة كانت مشهورة بينهم في الجاهلية لا سيما قريش؛ فإن الأغلب كان عليهم التجارة، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال، ورسول الله ﷺ قد

سافر بمالٍ غيره قبل النبوة كما سافر بأموال خديجة، والعرير التي كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة، مع أبي سفيان وغيره، فلما جاء الإسلام أقرها رسول الله ﷺ، وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة ولم ينه عن ذلك، والسنة: قوله وفعله وإقراره. فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة.

والأثر المشهور فيها عن عمر الذي رواه مالك في الموطأ ويعتمد عليه الفقهاء، لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتجرا فيها وربحا، وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصّهما بذلك دون سائر الجيش، فقال له أحدهما: لو خسر المال كان علينا فكيف يكون لك الربح وعلينا الضمان؟ فقال له الصحابة: اجعله مضارباً فجعله مضارباً، وإنما قال ذلك لأنّ المضاربة كانت معروفة بينهم على عهد الرسول كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والجزارة).

وحول تقديم الإجماع على ما صحّ من السنة قال شيخ الإسلام:

(إنّ الإجماع إذا خالفه نص فلا بدّ أن يكون مع الإجماع نص معروف به أنّ ذلك منسوخ، فأما أن يكون النص المحكم قد ضيّعته الأمة، وحفظت النص المنسوخ فهذا لا يوجد قط، وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نهيت عن أتباعه وإضاعة ما أمرت باتباعه وهي معصومة عن ذلك، ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراً أو غالباً، فمن ذا الذي يحيط بأقوال المجتهدين بخلاف النصوص، فإن معرفتها ممكنة متيسرة.

وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولاً لأنّ السنة لا تنسخ الكتاب، فلا يكون

في القرآن شيء منسوخ بالسنة، بل إن كان فيه منسوخ كان في القرآن ناسخه، فلا يقدم غير القرآن عليه، ثم إذا لم يجد ذلك طلبه في السنة، ولا يكون في السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته، لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره؛ ولا تعارض السنة بإجماع وأكثر ألفاظ الآثار، فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة مع أنه فيها، وكذلك في القرآن، فيجوز له إذا لم يجده في القرآن أن يطلبه في السنة، وإذا كان في السنة لم يكن ما في السنة معارضاً لما في القرآن، وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة.^(١)

الوجه الثالث - التقليد

إن كل ما كتبه جماعة شكري في نقد الإجماع ليس جديداً على الإطلاق، فليس في رسائلهم فكرة أو ردّ واحد إلا وقد سبقهم به أهل الرفض والاعتزال، وكعادتهم لا يشيرون إلى المصادر التي أخذوا منها ليوهموا طلابهم ومؤيديهم بأنهم مجددون مصلحون جاؤوا بأفكار وتصورات لم يسبقوا إليها، ومن الشواهد على ذلك نختار المثال التالي: من الأدلة التي اعتمد عليها الأصوليون في إثبات الإجماع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

قالت جماعة شكري: (هذه الآية لا تدل على مورد النزاع؛ فإن الذمّ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩٥/١٩ - ٢٠٢).

فيها لمن جمع الأمرين وهذا لا نزاع فيه؛ أو لمن أتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين وهي متابعة الرسول وهذا لا نزاع فيه؛ أو أن سبيل المؤمنين الاستدلال بالكتاب والسنة وهذا لا نزاع فيه؛ فهذا ونحوه قول من يقول: لا تدلّ على محل النزاع).

وهو القول نفسه الذي اشتهر عن المعتزلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (... إنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم، ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى، وهو يدل على ذم كل من هذا وهذا كما تقدم، ولكن لا ينفي تلازمهما كما ذكر في طاعة الله والرسول.

وحينئذ نقول: الذم إما أن يكون لاحقاً لمشاقة الرسول فقط، أو باتباع غير سبيلهم فقط؛ أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما، بل بهما إذا اجتمعا؛ أو يلحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر؛ أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر. والأولان باطلان؛ لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط كان ذكر الآخر ضائعاً لا فائدة فيه، وكون الذم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعاً؛ فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمّن اتبعه؛ ولحوق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية؛ فإن الوعيد فيها إنما هو على المجموع.

بقي القسم الآخر وهو أن كلاً من الوصفين يقتضي الوعيد لأنه مستلزم للآخر، كما يقال مثل ذلك في معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والإسلام، فيقال: من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل

النار، ومثله قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فإن الكفر بكل من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره، فمن كفر بالله كفر بالجميع، ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسول، فكان كافراً بالله إذا كذب رسله وكتبه، وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسول فكان كافراً. فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، ومن شاقه فقد اتبع غير سبيلهم وهذا ظاهر، ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضاً؛ فإنه قد جعل له مدخلاً في الوعيد، فدل على أنه وصف مؤثر في الذم، فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً، والآية توجب ذم ذلك.

وإذا قيل: هي إنما ذمته مع مشاقة الرسول. قلنا: لأنهما متلازمان، وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصاً عن الرسول، فالمخالف لهم مخالف للرسول، كما أن المخالف للرسول مخالف لله، ولكن هذا يقتضي أن كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول؛ وهذا هو الصواب.^(١)

لقد كانت أجوبة شيخ الإسلام شافيه مفحمة، كما كانت وسطاً بين غلو أهل الاعتزال وغلو أهل التقليد الذين قالوا بوجوب اتباع المؤمنين مطلقاً، وتكلفوا لذلك ما تكلفوه. أما جماعة شكري فقد نقلوا عن أصحاب البدع ما يخدم بدعتهم الجديدة دون أن ينتهوا إلى النتائج نفسها، وأكثروا النقل عن أهل الظاهر

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩/١٩٢-١٩٤).

من غير أن يلتفتوا إلى إيمان الظاهرية بالإجماع كدليل شرعيّ، ووقوفهم عند حدّ إجماع الصحابة لأنهم أهل التوقيف.

الوجه الرابع - أنواع الإجماع

ينقسم الإجماع إلى القسمين التاليين:

الإجماع الصريح: وهو أن يتفق مجتهدو العصر على حكم، ويعلن كلّ منهم رأيه صراحة بالقول أو الفعل. وهذا هو الإجماع الحقيقي، وهو قطعي الدلالة، ولا مجال للاجتهاد في واقعة بعد انعقاد إجماع صريح على حكم شرعيّ.

الإجماع السكوتي: وهو أن يبدي بعض مجتهدي العصر رأيهم صراحة في الواقعة بفتوى أو قضاء، ويسكت باقوهم عن إبداء رأيهم فيها بموافقة ما أبدي فيها أو مخالفته.

وللعلماء أقوال في الإجماع السكوتي: منهم من قال: إنه إجماع بشرط انقراض العصر لأنه يبعد مع ذلك أن يكون السكوت لا عن رضا. قاله الجبائي، وأحمد في رواية، ونقله ابن فورك عن أكثر أصحاب الشافعي، ونقله أبو طاهر البغدادي عن الحذاق منهم، واختاره ابن القطّان والرويانى. وقال الرافعي: إنه أصح الأوجه عند أصحاب الشافعي، وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في اللمعة: إنه المذهب.

ومنهم من قال: إنه حجة وليس بإجماع. قاله الصيرفي واختاره الآمدي، وهو

أحد الوجهين عند الشافعي.^(١)

ولننظر البديل الذي يقدمه أهل البدع الذين يرفضون الإجماع على مختلف أشكاله وأنواعه:

- فالبديل عند الرافضة أقوال وأفعال الأئمة المعصومين من آل البيت، وفي غيبة إمام آخر الزمان -التي مضى عليها أكثر من ألف عام- تعد أقوال وأفعال مراجعهم وآياتهم هي البديل؛ لأنهم نواب الإمام المعصوم حسب مبدأ ولاية الفقيه، ولنائب الإمام من الصلاحيات والحقوق ما يخجل كبار القياصرة في العصور الجاهلية من المطالبة بها.
 - والبديل عند المعتزلة العقل الذي جعلوا منه وصياً على دين الله، وكلّ حكم شرعيّ يتعارض مع عقولهم التي لوّثتها البدع مرفوض ولا قيمة له.
 - والبديل عند جماعة شكري أقوال وأفعال أميرهم: خليفة الله في أرضه، وأمير المؤمنين الذي لا يجوز لأحد عصيان أو امره أو التردد في تنفيذ رغباته واجتهاداته.
- فكيف يريد منا أهل البدع أن نرفض إجماع الصحابة أو التابعين، أو إجماع المجتهدين الثقات في عصر من العصور، ونقبل أوامر نائب ما يسمّى بالإمام المعصوم، أو أوهام وترهات بعض العقول الشاذة. ومع ذلك يزعم أهل البدع والأهواء بأنّ الإجماع يعني اتخاذ أقوال وآراء الرجال ديناً... إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

(١) إرشاد الفحول للشوكاني (٨٤).

إننا لا نشك بأن الإجماع السكوتي أقوى مرات ومرات من البدائل التي يقدمها أهل البدع، هذا إن جاز لنا أن نوازن هذا بذاك، ولنأخذ مثلاً على ذلك فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مسألة التتار: هل هم مسلمون أم مرتدون؟

لقد جاءت الفتوى بعد اختلاف الناس وتعدد آراء علمائهم، فكانت موضع ارتياح الجميع للأسباب الآتية:

- صاحب هذه الفتوى عالم مجتهد، ومشهود له بالعلم والفضل والزهد، وقد اعتمد في فتواه على أدلة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة.
- أيد شيخ الإسلام في فتواه كثير من علماء عصره، ولا نعلم أحداً خالفه رغم كثرة خصومه وتعدد مذاهبهم وشدة تعصبهم.
- أجمع المسلمون على قتال التتار بعد هذه الفتوى، وكان شيخ الإسلام في طليعة المجاهدين الذين لا يشق لهم غبار... وانجلت المعركة عن هزيمة نكراء لحقت بأعداء الله التتار، وردّ الله كيدهم إلى نحورهم، ونجّى بلاد الشام من شرورهم.^(١)

(١) مقارنة الإجماع السكوتي مع أقوال أهل البدع، لا يعني أنه قطعي الدلالة، بل وإنني أحترم وجهة نظر الذين يقولون لا يوجد إجماع صريح بعد عصر الصحابة -رضوان الله عليهم-.

الوجه الخامس - حكم منكري الإجماع

أفتى جماعة شكري بكفر من يعتقد بأن الإجماع حجة، لأنه يتخذ الرجال آلهة وأرباباً من دون الله سبحانه وتعالى.

ورأينا فيما مضى حجية الإجماع من الكتاب والسنة، وأنه لا ينعقد بدون مستند من قول المصطفى -عليه أفضل الصلاة والتسليم-... ولهذا قال بعض الأصوليين: إنكار الإجماع القطعي كفر، كإجماع الصحابة بصريح القول المنقول عنهم تواتراً، وفصل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- القول في هذه المسألة فقال: (وقد تنازع الناس في مخالف الإجماع هل يكفر؟ على قولين: والتحقيق أن الإجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص بتركه، لكن هذا لا يكون إلا فيما علم ثبوت النص به. وأما العلم بثبوت الإجماع في مسألة لا نصّ فيها فهذا لا يقع، وأما غير المعلوم فيمنع تكفيره. وحيث أن الإجماع مع النص دليلان كالكتاب والسنة. وتنازعوا في الإجماع: هل هو حجة قطعية أو ظنية؟ والتحقيق أن قطعيه قطعي، وظنيّه ظني، والله أعلم.)^(١)

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/٢٧٠).

الفصل الثالث

أقوال الصحابة وأنعالهم

- عرض أقوال الجماعة.

- مناقشة أقوالهم وبيان بطلانها.

عرض أقوال الجماعة

جاء في رسالتهم [الحجيات] ما يلي:

(... الصحابة عندكم - عند أهل السنة والجماعة - : كل من صاحب النبي ﷺ رآه وسمعه. فإن قالوا هم كذلك. قلنا: هؤلاء يدخل فيهم:

- من ارتد عن الإسلام وكفر بعد ذلك.

- ويدخل فيهم كل الثلاثين ألفاً في حجة الوداع.

- ويدخل فيهم الذين أخطؤوا في الفتيا، واختلفوا مع صحابة الرسول ﷺ.

- ويدخل فيهم من جعلوها ملكاً عضواً.

- ويدخل فيهم الذين قيل للرسول عنهم: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، لا يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ أن فارقتهم، فقال الرسول ﷺ: سحقاً لهم، سحقاً لهم.

- ويدخل فيهم الأعراب الذين قال الله عنهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾

- ويدخل فيهم قتلة عمار الذين وصفهم الرسول ﷺ بالضلالة يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار.

- ويدخل فيهم من قال الله فيهم: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ

الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ والذين قال الله فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾

فأين الهدى في هؤلاء؟

- وفيهم الثمانية من المنافقين الذين أخبرهم الرسول ﷺ لحذيفة.

- وفيهم المنافقون بصفة عامة.

فأين الهدى في هؤلاء؟! وكيف يحل لمسلم أن يقول بعد ذلك بأيهم اقتديتم اهتديتم حتى مع اختلاف من صلح منهم في الآراء؟!!

فإن قالوا: نقصد بصحابة النبي ﷺ من شهد لهم بالصلاح أو بشرهم بالجنة أو كانوا من أصحاب بدر أو أهل الشجرة أو... فهؤلاء قد اختلفوا، والحق واحد، فكيف يكون الحق معهم جميعاً حين الاختلاف حتى يقولوا بأيهم اقتديتم اهتديتم؟!!

وليست التقوى هي كل الفتيا، بل أصل الفتيا هي العلم مع الصدق، فلا ارتباط بين تقوى الله وتمام العلم أو العصمة من الخطأ وإلا ما جاز للمبشرين بالجنة أن يختلفوا.

ولقد اختلف عمار وعليّ مع عائشة وطلحة والزبير، واعتزل سعد بن أبي وقاص، وكلُّ من المبشرين بالجنة. ويدخل في ذلك قوله ﷺ: خير القرون قرني وما يشابهه، فضلاً على أن أفضلية القرن عموماً لا تدلُّ على أفضلية كل أحد من هذا القرن على أحد فيما عداه من القرون.

و أخبرنا رسول الله ﷺ بأناس يأتون بعد قرنه ﷺ لو كان الإيمان في الثريا لطلوه أو لناله رجال من فارس. [صحيح البخاري].

كما أخبرنا رسول الله ﷺ عن سماهم إخوانه أجر أحدهم بخمسين من أجر الصحابة.

وقال ﷺ سيجد منهم عيسى بن مريم خلفاً من حواريه فمن يقول لأحد بعد حجة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فيقول له: اسكت ولا تتكلم إلا بما قال رجل من خير القرون.

ونحن لا ننكر أن قرنه ﷺ خير القرون، وإنما الفضل في ذلك هو أن المعصوم من عصمه الله تبارك وتعالى وأنه:

- لا يمنع عائشة وهي زوج الرسول ﷺ.

- أو علي مع مكانته من النبي ﷺ كمكانة هارون من موسى.

- أو طلحة أو الزبير وإن كانوا حواريه هذه الأمة.

لا يمنع هؤلاء أن يخطئوا، بل هم الذين يخطئون ويصيبون ويدخلون في قول النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

- وابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ بالتفقه في الدين ظلّ يفتي بحلّ زواج المتعة، واختلف مع عمر بن الخطاب في ذلك.

- وقدامة بن مظعون وهو ممن شهد بدرًا أحلّ الخمر في زمن عمر ثم رجع بعد ذلك بعدما حاجّه عمر.

- وعثمان بن عفان أتمّ الصلاة أربعاً بمني فخالفه صحابة النبي ﷺ.

- وعبد الله بن مسعود حرّم التيمم وراجعه في ذلك أبي بن كعب وغيره. وراجع عمر عماراً في ذلك، وقال له: اتق الله يا عمار.

هذا الإفتاء مع وجود الآيات البيّنات في ذلك غير الكثير من المسائل التي كان يفتي الصحابة في خلافها.

فإن قالوا: صحابة النبي هم الذين لازموا رسول الله ﷺ، وعرفوا أسباب النزول، وربطوا بين النص والواقع. حتى قال قائلهم -ابن مسعود-: (لو أعلم أحداً تبلغه المطي أعلم مني بكتاب الله لتجشمت لقاءه، وما من آية في كتاب الله إلا وأعلم موضعها وفيما نزلت).

نقول لهم والله المستعان: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]. والعبرة أصلاً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أمّا ما نحتاج في فهمه لذكر سببه فيصبح ذكر السبب حينئذٍ من الذكر المحفوظ الذي يجب حفظه بأن يروي لنا ويبلغ لنا، فينقل إلينا مع النص، وهذا عين ما حدث فكان يبلغنا الحكم والحالة المصاحبة له إن كان لا بدّ منها، فسمعنا ما سمعوا إذأً، ونقلوا إلينا ما رأوا مما لا بدّ من حفظه من كلام الرسول ﷺ، والحالة التي كان عليها وقت نطقه بالحديث إن كانت لها أهمية في فهم النص، وبذلك وصلنا ما رأوا.

أما قولهم -أي أهل السنة و الجماعة-: إن الصحابة أعلم منا باللغة وبالتالي أعلم منا بحديث رسول الله ﷺ، فنقول في هذه كما قلنا في غيرها: إن الدعوة

العامة أو التفاضل العام لا يوجب أن ينسحب على كل فرد بعينه، وأنه إذا كان هناك جيل أعلم من جيل باللغة، فليس بالضرورة أن كل واحد في هذا الجيل أعلم من كل واحد في الآخر.

- ثم أنه إن كان كل واحد من هذا الجيل أعلم من كل واحد من الجيل الآخر في اللغة، فليس بالضرورة أن يكون أعلم منه في كل جانب من اللغة: ﴿قُلْ هَآؤُا بُرْهَٰنِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

- ولو سلمنا معهم في هذا الأمر لانتهى بنا المطاف إلى جيل في نهاية الأمر لا يفهم شيئاً في اللغة، ولا تقطع علمه بالشريعة تمام الانقطاع، وعلى الذين يقولون هذا القول عليهم أن يحددوا لنا هذا الجيل الذي يولد فيه الطفل لا يفقه شيئاً في أمر لغته ودينه.

- وقد ثبت عن بعض صحابة النبي ﷺ نقص في فهم بعض معاني اللغة، كما جاء عن عدي بن حاتم الطائي أنه لم يكن يعرف معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. فظنهما خيطان، مع أن هذه المسألة قد يفهمها صبي في هذا الزمان.

- وها هو عمر بن الخطاب يعجب من نفسه حين تكلف فهم كلمة «الأب» في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَأَ﴾. فقال: وما يضرك يا ابن أم عمر ألا تفهم كلمة ﴿وَأَبَأَ﴾.

- وهاهو الصديق حين سئل عن الأب يقول: أيّ سماء تظلني وأيّ أرض تقلني إذا قلت في مسألة بغير علم.

- وها هو ابن عباس الذي كان يعقد في كلّ أسبوع يوماً يتدارس فيه الشعر وقول الرسول ﷺ لم يعرف كلمة [فطر] حتى عرفها من أعرابي حين اختلف مع غيره في حفر بئر فقال: أنا فطرته أول مرة.

فكيف يأمرنا الله - سبحانه وتعالى - أن نترك التدبر في كتابه إلى فهم قوم يعرفون ويجهلون ويصيبون ويخطئون؟!

والصحابه سينقلون لنا ما فهموه باللغة العربية فتصبح المسألة مرة ثانية: هل كلامهم أين وأوضح من كلام الرسول ﷺ؟! ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

- ثمّ نسألهم: أين ومتى فسّر الصحابة كلام رسول الله ﷺ لفظاً لفظاً وحرفاً حرفاً...؟؟؟ أين ومتى حدث ذلك في الأحكام الجزئية فضلاً من الأحكام الكلية، فضلاً عن موضوع نقاشنا؟

وهم، قد أقيمت لهم دولة الإسلام من الناحية التشريعية بما يوحي إليه ﷺ، ومن يدعي أنهم شاركوا الرسول ﷺ في التشريع في إقامة دولة الإسلام فقد كفر بما أنزل على محمد، إنما كان نصيب الصحابة نصيباً علمياً عبادياً امثالياً و فقط. بل قد نهوا عن أن يسألوا فيما ليس لهم فيه حاجة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴿١٠٣﴾.

وفي موضع آخر من رسالة [الحجيات] يقول شكري عن جماعة المسلمين في آخر الزمان - أي جماعته -: (... فقد كلّفهم الله - سبحانه وتعالى - من الناحية القدرية التي يعلمها والتي يديرها بما يكلف صحابة النبي ﷺ حيث سوف يتم على يد جماعة آخر الزمان ظهور الإسلام على كافة الأديان والملل، ويعبد الله لا يشرك به شيئاً، ولا يبقى بيت من وبر أو مدر إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذل ذليل، ويتم قدره على عباده، ويتنصر هو ورسله وحزبه على العالمين، ويُمكنّ لهم في الأرض كما وعد بذلك).

ويقول في موضع آخر عن جماعة آخر الزمان: (وقد اجتباهم [!!] الله تبارك وتعالى أيضاً، وخصّهم من فضله حتّى قال رسول الله ﷺ لأجر الواحد منهم بخمسين منكم - أي الصحابة-).

وينتهي في رسالته إلى القول: (إنّ وسائل معرفة الأدلة أيسر في هذا العصر منها في عصر الصحابة، لأنّ المراجع اللغوية متوفرة أكثر، ويسهل على الباحث أن يحصل على معلومات وافرة بجهد يسير).

وحول هذه المسألة يذكر الأدلة التالية:

١ - أنه لا ارتباط أصلاً - أقصد ارتباطاً شرطياً - بين الفهم في اللغة والتكلم بها.

٢ - وكذا التعبير عما يريده الفاهم كتابة يختلف عما يريد التعبير عنه نطقاً.

- ٣- إن موهبة الفهم في اللغة -كأي موهبة- تتوارث من زمان إلى زمان، ولا يخلو زمان من صاحب موهبة مهما تباعدت الأزمان والعصور.
- ٤- إن أصول اللغة العامية هي عربية الأصل، وأنّ الكلمة العامية هي من اشتقاقات عربية.

مناقشة أقوالهم وبيان بطلانها

وردنا على شكري وجماعته من الوجوه الآتية:

الوجه الأول - تعريف الصحابي

لم يقل أحد من علماء أهل السنة والجماعة في القديم والحديث: إن المنافقين والمرتدين من أصحاب الرسول ﷺ، وإنما عدوا من الصحابة الذين عادوا إلى الإسلام وماتوا عليه بعد فتنة الردة كالأشعث بن قيس^(١)، وحاشا لله أن يقول العلماء الثقات مثل هذا الكلام وهم الذين يقرؤون في كتاب الله - عز وجل - قوله في وصف المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَمُؤْمِنِينَ وَالْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة]. وبعد نزول هذه الآية لم يصلِّ ﷺ على منافق،^(٢) ولا قام على قبره حتى التحق بالرفيق الأعلى، مع أنهم - أي المنافقون - كانوا قد أعلنوا إسلامهم، ورأوا رسول الله ﷺ وبايعوه.

(١) الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي، وفد على النبي سنة عشر في سبعين ركباً من كنده، وكانوا ملوكها... وأخرج البخاري ومسلم حديثه في الصحيح، وكان قد ارتد فيمن ارتد من الكنديين، وأسر فأحضر إلى أبي بكر فأسلم فأطلقه، ثم شهد اليرموك بالشام، والقادسية وغيرها بالعراق، وسكن الكوفة، وشهد مع علي صفين، وله معه أخبار. الإصابة (١/٥١).

(٢) رواية «لم يصلِّ ﷺ على منافق...» وردت في البخاري (كتاب التفسير/ تفسير سورة براءة) وفي سنن الترمذي (٤/٣٤٣)، وقال عنها: حسن غريب صحيح. [طبعة دار الفكر - بيروت].

أما المرتدون فلقد أجمع الصحابة -رضوان الله عليهم- على قتالهم لأنهم مرتدون كافرون، وإجماع الصحابة دليل عند أهل السنة والجماعة، ولو كانوا عدولاً لما قاتلهم الصديق ومن معه قتال ردّة لا قتال بغية. فمن أين جاءت جماعة شكري بهذا الزعم الباطل؟!

وصحيح أن بعض علماء الأصول قالوا في تعريف الصحابة: (كل من صاحب النبي ﷺ رآه وسمعه)، ولكن هذا القول محمول على من رآه وأسلم بين يديه ثم مات على الإسلام، ودليلنا على ذلك أن هؤلاء العلماء يؤكّدون بعد ذكر هذا التعريف الموجز بأنّ الصحابة كلهم عدول، لما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وبما نطقت به السنة النبوية في المدح لهم في جميع أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يديّ الرسول ﷺ، رغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل، والمنفقون والمرتدون ليسوا عدولاً للأسباب التي مرّ ذكرها قبل قليل، فهم ليسوا من الصحابة. ولكن أصحاب البدع كالروافض وجماعة شكري وغيرهم وغيرهم فصلوا هذا التعريف الموجز عما بعده من كلام، وبنوا عليه ما يريدون من أحكام.

و التعريف الموجز الذي استدل به جماعة شكري لغاية في نفوسهم، ليس كلّ شيء في هذا الموضوع. فقد وردت تعريفات أخرى، من أهمها ما قاله ابن حجر العسقلاني: (أصح ما وقفت عليه من ذلك أنّ الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت،

ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولم يجالسه،
ومن لم يره لعارض كالعمى).^(١)

وقال ابن حزم في تعريف الصحابي: (أما الصحابة رضي الله عنهم، فهو كل
من جالس النبي ﷺ ولو ساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها، أو شاهد منه -
عليه السلام- أمراً يعيه، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نفاقهم واشتهر حتى
ماتوا على ذلك، ولا مثل من نفاه -عليه السلام- باستحقاقه كهيت المخنث^(٢)
ومن جرى مجراه، فمن كان كما وصفنا أولاً فهو صاحب، وكلهم عدل أمام
فاضل رضي، فرض علينا توقيهم وتعظيمهم وأن نستغفر لهم، وتمرة يتصدق
بها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بما يملك، وجلسة الواحد منهم مع النبي ﷺ
أفضل من عبادة أحدنا دهره كله).^(٣)

وهذا القول تتهاوى ادعاءات شكري وأصحابه، ويتضح بطلان ما ينسبون
لأهل السنة والجماعة من أقوال هم برآء منها، وفوق ذلك كله فقيادة هذه الجماعة
تقدم لنا دليلاً جديداً على سوء أمانتهم وتزييفهم للحقائق.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١/٤-٥).

(٢) هيت كان يدخل على النساء لأنه مخنث، وقد منعه الرسول ﷺ من الدخول على النساء، ثم
نفاه من المدينة؛ لأنه كان قال كلاماً منكراً في وصف النساء. وذكر خبره البخاري في صحيحه،
كما ذكره مسلم وأبو داود والنسائي دون تسميته، ومات في خلافة عمر رضي الله عنه عن الإصابة
(٣/٦١٤).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (٥/٨٦٥).

الوجه الثاني - ميزات انفراد بها الصحابة

قالوا عن الصحابة رضوان الله عنهم: (ومن يدعي أنهم شاركوا الرسول ﷺ في التشريع في إقامة دولة الإسلام فقد كفر بما أنزل على محمد).
وبنوا على كلامهم السابق ما يلي: (إنما كان نصيب الصحابة نصيباً علمياً
عبادياً امثالياً فقط).

وفي كلامهم مغالطات نفنها فيما يلي:

لا يعتقد أهل السنة والجماعة بأن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاركوا الرسول ﷺ في التشريع، كما أنهم يرون بأن الصحابة بشر يخطئون ويصيبون بخلاف الرافضة -الذين نقل عنهم أصحاب شكري هذه الأقاويل- الذين يعتقدون بعصمة أئمتهم الاثني عشرية، والعصمة لا تكون إلا للنبي من أنبياء الله.

وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الكلام في حجية قول الصحابي فقال: (وأما أقوال الصحابة: فإن انتشرت ولم تنكر في زمانهم فهي حجة عند جماهير العلماء، وإن تنازعا رُدَّ ما تنازعا فيه إلى الله والرسول، ولم يكن قول بعضهم حجة مع مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء، وإن قال بعضهم قولاً ولم يقل بعضهم بخلافه ولم ينتشر، فهذا فيه نزاع، وجمهور العلماء يحتجون به كأبي حنيفة ومالك، وأحمد في المشهور عنه، والشافعي في أحد قوليه، وفي كتبه الجديدة الاحتجاج بمثل ذلك في غير

موضع، ولكن من الناس من يقول: هذا هو القديم).^(١)

ويقول ابن قدامة: (وإذا اختلف الصحابة على قولين لم يجز للمجتهد الأخذ بقول بعضهم من غير دليل خلافاً لبعض الحنفية وبعض المتكلمين أنه يجوز ذلك ما لم ينكر على القائل قوله لأن اختلافهم إجماع على تسويغ الخلاف، والأخذ بكل واحد من القولين، ولهذا رجع عمر إلى قول معاذ في ترك رجم المرأة وهذا فاسد، فإن قول الصحابة لا يزيد على الكتاب والسنة، ولو تعارض دليلان من كتاب أو سنة لم يجز الأخذ بواحد منهما بدون ترجيح، ولأننا نعلم أن أحد القولين صواب والآخر خطأ، ولا نعلم ذلك إلا بالدليل، وإنما يدل اختلافهم على تسويغ الاجتهاد في كلا القولين، وأما على الأخذ به فكلا، وأما رجوع عمر إلى معاذ فإنه بان له الحق بدليله فرجع إليه).^(٢)

نعم لم يشارك الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ في التشريع، ولكن هل كان دورهم كدور أي مسلم ممن جاء بعدهم كما زعم جماعة شكري في قولهم: (إنما كان نصيب الصحابة نصيباً علمياً عبادياً امثالياً و فقط؟!)^(٣).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/٢٠).

(٢) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي (١٤٦) دار الكتاب العربي.

(٣) وردت شواهد كثيرة في رسائل جماعة شكري زعموا فيها أن الصحابة لا يختلفون عن غيرهم من المسلمين بل في جيل آخر الزمان من هم خير وأفضل من الصحابة.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم نماذج رائعة في طاعتهم وامتثالهم لما يأمرهم به الله ورسوله، وكانت لهم مزايا وصفات تميزوا بها عن غيرهم من المسلمين، فرسول الله ﷺ كان يكثر من استشارتهم، وقد أمره الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ووصف جلّ و علا ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وفي كثير من الحالات كان ﷺ يشعر بالرضى من أجوبة بعضهم، ثم تكون موافقته تشريعاً للمسلمين، ولهذا ولغيره فقد ارتبطت أسباب نزول كثير من الآيات القرآنية بأسماء بعض الصحابة رضوان الله عليهم، كما ارتبطت معظم أحاديث رسول الله ﷺ بأسماء ناس من أصحابه، ومن المتعذر جداً فصل الأحكام عن أسبابها، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن أشهرها ما يلي:

- كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه رأي في أسرى بدر المشركين، ثم جاء القرآن الكريم فيما بعد يؤيد رأي الفاروق. ^(١)
- ولقد ارتبط إلغاء التبني بقصة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش

(١) أنزل الله تعالى في موضوع أسرى بدر قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال]، وكان عمر يرى قتل الأسرى، والحديث رواه أحمد (٣٨٣/١) والترمذي (٢٧١/٥) والحاكم في المستدرک (٣٢٩/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

بعد أن طلقها زيد بن حارثة.^(١)

- وارتبط حادث الإفك ببراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.^(٢)

أليس من الظلم أن نتجاهل دور الصديق أبي بكر مع رسول الله ﷺ، ومواقف الفاروق عمر، وعلم عائشة الجم، وفقه علي وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر... نعم أليس من الظلم أن نتجاهل دور هؤلاء الأصحاب الأفاضل لأجل عبارات مضطربة زعم قائلها من وراء تلاعبه في اللفظ أن دور الصحابة كدور أي مسلم ممن جاء بعد عصرهم؟!!

ومن أهم المزايا التي انفرد بها الصحابة رضوان الله عليهم في حديث الرسول ﷺ ما يلي:

- إذا كان تفسير الصحابي للقرآن متعلقاً بأسباب النزول، كان له حكم الحديث المرفوع، وكان حجة إذا صح سنده.

- من الأحاديث المرفوعة قول الصحابي: (من السنة كذا، أو أمرنا بكذا، أو نهينا

(١) قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب وردت في سورة الأحزاب، وفي أحاديث صحيحة رواها البخاري: (الفتح ٥١٧/٨) الطبعة السلفية، ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه. انظر تفسير ابن كثير للآية: ٣٧ من سورة الأحزاب.

(٢) ورد في سورة النور (١١-٢١)، وفي صحيح البخاري (٤٣١/٧) الفتح-الطبعة السلفية ومسلم (٢١٢٩/٤) من حديث الزهري عن عائشة -رضي الله عنها- كما ورد في مسند أحمد وأصحاب السنن الأربعة.

عن كذا، أو كُنا لا نرى بأساً بكذا، أو كان يقال كذا في عهد الرسول ﷺ، أو كُنا نقول كذا، أو فعلتُ أو فُعل بحضرة النبي ﷺ كذا، أو أُحلّ لنا كذا، أو حُرِّم علينا كذا، وكلّ حديث من هذا القبيل صحّ سنده فله حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ.

- الحديث الموقوف: هو ما أُضيف إلى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير. فإن كان مما لا مجال فيه للرأي أو الاجتهاد فله حكم الحديث المرفوع، وإن كان غير ذلك فله حكم الوقف.^(١)

لقد جهل أو تجاهل - لا ندري - جماعة شكري هذه الصفات والمزايا التي انفرد بها الصحابة عن غيرهم، مع قولهم بأنهم يؤمنون بالسنة كمصدر ثانٍ من مصادر التشريع الإسلامي، وهذا الذي ذكرناه عن الصحابة من السنة، فأين هم منه؟!

الوجه الثالث - حديث أصحابي كالجور

رأينا - في الصفحات القليلة الماضية - كيف أسفّ قوم شكري في هجوم ظالم على أهل السنة والجماعة، وختموا هذه الحملة المؤسفة بقولهم: (وكيف يحل لمسلم أن يقول بعد ذلك بأيهم اقتديتم - أي الصحابة - اهتديتم).

وسوف نبين فيما يلي ما قاله علماء أهل السنة والجماعة في سند هذا

(١) تفصيل ذلك في كتب مصطلح الحديث: كالباعث الحثيث ومقدمة ابن الصلاح وغيرهما من أمهات كتب علوم الحديث.

الحديث ومنتنه .

- قال البزار عن حديث أصحابي كالنجوم: (هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة).^(١)
- وقال ابن القيم رحمه الله: (إن هذا الحديث قد روي من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، ومن حديث سعيد بن المسيب عن ابن عمرو من طريق حمزة الجوزي عن نافع عن ابن عمر، ولا يثبت شيء منها).^(٢)
- وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: (الحمل في هذا الحديث على سلام بن سليم - ويقال: ابن سليمان وهو الطويل - أولى فإنه مجمع على ضعفه، بل قال ابن خراش: كذاب، وقال ابن حبان: روى أحاديث موضوعة، وأما أبو سفيان فليس ضعيفاً كما قال ابن حزم، بل هو صدوق كما قال الحافظ في التقریب، وأخرج له مسلم في صحيحه. والحارث بن غصين مجهول كما قال ابن حزم، وكذا قال ابن عبد البر وإن ذكره ابن حبان في الثقات، ولهذا قال ابن أحمد: لا يصح هذا الحديث، كما في المنتخب لابن قدامة: ١٠ / ١٩٩ / ٢).^(٣)

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٥٣٠) المكتب الإسلامي.

(٢) الدرر السنية (٤٢ / ٣) وانظر كلام ابن القيم في أعلام الموقعين (٢ / ١٣٢).

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٧٨ / ١) المكتب الإسلامي.

وقال أيضاً: (بل هو حديث باطل).^(١)

ومتن الحديث يتعارض مع ما ذهب إليه جمهور أهل الحديث في قولهم: قول الصحابي ليس حجة إذا كان من قبيل الرأي والاجتهاد، أو إذا تعارض مع قول صحابي آخر.

قال ابن حزم في هذه المسألة -أي أصحابي كالنجوم-: (قال ابن معين: عبد الرحمن بن زيد كذاب خبيث ليس بشيء، وقال البخاري: هو متروك، ورواه أيضاً حمزة الجوزي، وحمزة هذا ساقط هالك متروك).

وقال أبو محمد: بل هو مما يقطع على أنه كذب موضوع، لأن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا، فحرم واحد منهم وحلل آخر منهم ذلك الشيء الذي حرمه صاحبه، وأوجب بعضهم وأبطل غيره منهم ما أوجب صاحبه، فلو كان هذا الخبر صحيحاً لكانت أحكام الله متضادة في الدين مختلفة حراماً وحلالاً، معاذ الله تعالى، فقد كذب بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فصحح أن الاختلاف ليس إلا من عند غير الله.^(٢)

وجاء في الدرر السنية: (ولو صح حديث «أصحابي كالنجوم...» لوجب

(١) شرح الطحاوية (٥٣٠) المكتب الإسلامي.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٦/٨٢).

تقليد مَنْ قال: الحرام يمين، وَمَنْ قال: هو طلاق، وتقليد مَنْ حرّم الجمع بين الأختين بملك اليمين وَمَنْ أباحه، وتقليد مَنْ ورّث ذوي الأرحام وَمَنْ أسقطهم، وتقليد مَنْ رأى التحريم برضاع الكبير وَمَنْ لم يره، وتقليد مَنْ أوجب فسخ الحج إلى العمرة وَمَنْ منع منه، وتقليد مَنْ أباح لحوم الحمر الأهلية وَمَنْ منع منه، وتقليد مَنْ رأى بيع الأمة طلاقها وَمَنْ لم يره، وأضعاف أضعاف ذلك مما اختلف فيه الصحابة رضوان الله عليهم).^(١)

وإن كان حديث أصحابي كالنجوم مرفوضاً سنداً وامتناً عند أهل السنة، فلماذا تلصقه جماعة شكري بالصحابة وتبني عليه أحكاماً وحججاً تزعم بأنها مفحمة؟!

قد يقال: إن بعض الفقهاء يعتمدون على هذا الحديث، ويقولون بحجية قول الصحابي وإن عارض ما صحّ من السنة أو الإجماع، والذي يزيد الطين بلّة أنّ هؤلاء المقلّدين من الفقهاء لا يعلمون صحّة الرواية - التي اعتمدوا عليها - من ضعفها.

وجوابنا عن ذلك: لو كان أصحاب شكري أمناء لوجّهوا نقدهم إلى أهل البدع والأهواء الذين يقدمون قول الصحابي أو إمام المذهب على ما صحّ من السنة، وتجنبوا أسلوب تعميم الاتهامات بدون حقّ، نعم لو كانوا عدولاً لأنصفوا أهل السنة في هذه المسألة وغيرها.

(١) الدرر السننية في الأجوبة النجدية (٣/٤٢).

الوجه الرابع - أين الدليل على اهتماماتهم بالسنة؟! (١)

يؤكد قوم شكري في مناقشاتهم مع خصومهم - والمسلمون كلهم خصوم لهم - كما يؤكدون في رسائلهم التي وصلتنا بأن السنة النبوية من أهم مصادر التلقي عندهم، وتتبوا المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، ويعتقدون بأن الحديث الصحيح حجة قطعية لا يجوز أن تقدم عليه أقوال الرجال وأفعالهم، مهما كانت هذه الأقوال، ومهما كانت مكانة القائلين بها.

ومثل هذا الاعتقاد يقتضي احترام السنة، ومزیداً من الاهتمام بها، كما يقتضي سلامة المنهج في فهم الأحاديث وشرحها.

غير أن الأحاديث التي حشدوها واحتجوا بها في بيان موقفهم من الصحابة رضوان الله عليهم تعطينا دليلاً قوياً على ضعف عنايتهم بالحديث.

ومن الملاحظ أنهم لا يحققون هذه الأحاديث ولا يخرجونها، كما أنهم لا يشيرون إلى أمهات كتب الحديث التي اعتمدوا عليها.

وإذا كان الحديث صحيحاً فتراهم يؤولونه تأويلاً يخدم أهواءهم أولاً وأخيراً، ولا يبالون عند تأويل الحديث: هل ينسجم هذا المعنى الذي ابتدعوه مع أصول الإسلام وقواعد اللغة العربية أم لا؟! وإذا كانت الأمثلة على ذلك كثيرة

(١) لنا عودة إلى هذا الموضوع في الفصل القادم، واكتفينا في هذا الموضوع باختيار بضعة أحاديث تتعلق بالصحابة رضوان الله عليهم.

فسنكتفي باختيار ثلاثة منها:

المثال الأول: في تقديم تعريفات أهل السنة والجماعة لمسمى الصحابي قالوا: (ويدخل فيهم كل الثلاثين ألفاً في حجة الوداع).

لم يذكر المصادر التي أخذوا عنها هذا الرقم، ولم يبينوا درجة هذا الخبر من الصحة، مع أن عدد الذين شهدوا مع النبي ﷺ حجة الوداع أربعون ألفاً. نقل ابن الصلاح عن أبي زرعة^(١) أنه سئل عن عدد من روى عن النبي ﷺ، فقال: (ومن يضبط هذا؟! شهد مع النبي ﷺ حجة الوداع أربعون ألفاً، وشهد معه تبوك سبعون ألفاً)^(٢).

المثال الثاني: وقالوا عن الصحابة أيضاً:

(... وفيهم الثمانية من المنافقين الذين أخبرهم الرسول ﷺ لحذيفة، وفيهم المنافقون بصفة عامة).

(١) أبو زرعة: هو عبيدالله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ القرشي المخزومي أحد الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام روى عن أبي نعيم وقبيصة وخلاد بن يحيى ومسلم بن إبراهيم... وروى عنه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو عوانة وخلق. قال أحمد: ما جاوز الجسر أفقه من إسحاق بن راهويه: كل حديث لا يعرفه أبو زرعة الرازي ليس له أصل. مات بالري آخر يوم من ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين [عن طبقات الحفاظ للسيوطي: ١/ ٢٥٠ - مكتبة وهبة].

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح، ص(٢٦٧)، واستدل برواية أبي زرعة ابن كثير في كتابه اختصار علوم الحديث، ص(١٨٥)، تحقيق أحمد شاكر - مطبعة البابي الحلبي.

فمن هؤلاء المنافقون الثمانية، ومن أين جاءوا بهذا الرقم، وما درجة هذا الخبر من الصحة؟!

وإذا كانوا يقصدون عدد المنافقين الذين هموا بقتل رسول الله ﷺ في العقبة فهم أكثر من ثمانية.

(عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة، وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذا سألك، قال: كنا نُخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة، قالوا ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حرة فمشى فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ)^(١).

وإن كانوا يعنون المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فقد جاء في الصحاح أن عددهم بضعة وثمانون^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، انظر مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، ص(٢٧٦)، الحديث رقم (١٩٤١).

و العقبة: مكان على طريق تبوك، وليست العقبة المشهورة التي كان بها بيعة الأنصار.

(٢) صحيح البخاري - الفتح، كتاب المغازي: (٨/١١٣)، وصحيح مسلم - باب قبول التوبة: (٤/٢١٢٣)، وزاد المعاد، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: (٣/٥٥٢).

وإن كانوا يعنون المنافقين بشكل عام، فلقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه هو وحده بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يعرف عددهم، وما كان ييوح بأسرار ائتمنه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يصلي على ميت حتى يتقدم حذيفة للصلاة عليه، فإذا امتنع حذيفة علم عمر بأن المتوفى منافق، فترك الصلاة عليه عملاً بقوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

وجملة القول: فإن الاستدلال بالأحاديث التي لا يعرف صحيحها من ضعيفها، يقود إلى اجتهادات خاطئة، وفتاوى غير صحيحة، ويعتقد جماعة شكري بأن من أخطأ في فتواه فقد ضل وأضل، ومن ضل فقد كفر وارتد عن الإسلام، لأن الحق واحد ولا يجوز أن يتعدد ونحن نذكرهم بأصولهم التي يحكمون من خلالها على الآخرين، ونرد إليهم بضاعتهم غير منقوصة لعلهم يتعظون.

المثال الثالث: وفي تقديم تعريفات أهل السنة لمسمى الصحابي قالوا: (ويدخل فيهم - أي الصحابة - الذين قيل للرسول عنهم: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ أن فارقتهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «سحقاً لهم سحقاً لهم»).

ومن حسن حظهم أن هذا الحديث صحيح - رغم أنهم لم يذكروا إسناده ولا درجته من الصحة -، ونصه كما يلي:

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بينا أنا نائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هَلُمَّ، فقلت: أين؟! قال: إلى النار والله، قلت، وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هَلُمَّ، قلت: أين؟! قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟! قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. فلا أراه يخلص إلا مثل هَمَلِ النَّعَمِ»^(١).

فَمَنْ هؤُلاء الذين ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل يصح أن يتخذ جماعة شكري من هذا الحديث دليلاً لتعميم هجومهم على الصحابة رضوان الله عليهم؟!!

- روى البخاري عن قبصة قال: هم الذين ارتدوا على عهد أبي بكر، فقاتلهم أبو بكر حتى قتلوا وماتوا على الكفر.

- وقال الخطابي: لم يرتد من الصحابة أحد، وإنما ارتد قوم من جفاة الأعراب ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قدهاً في الصحابة المشهورين، ويدل قوله: [أصيحابي] بالتصغير على قلة عددهم^(٢).

(١) رواه الشيخان في صحيحيهما، و اللفظ للبخاري. انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب في الحوض: (١٤ / ٢٦١)، مطبعة البابي الحلبي.

خرج الرجل: أي الملك الموكل بذلك. هَمَلِ النَّعَمِ: الإبل بلا راعي.

(٢) [أصيحابي] وردت في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك.

- وقال النووي: قيل هم المنافقون والمرتدون .

- وقال القاضي: هذا دليل لصحة تأويل من تأول أنهم أهل الردة، ولهذا قال فيهم: سحقا سحقا، ولا يقول ذلك في مذنبى الأمة بل يشفع لهم ويهتم لأمرهم^(١) .

ومن فقه هذا الحديث أنه ﷺ أخبر أصحابه بأمر المرتدين قبل أن تقع الردة، وقبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى، وبين لهم بأن من مات على الردة خلع رقبة الإسلام من عنقه، وكان من الخالدين المخلدين في نار جهنم وبئس المصير .

وليس بين هؤلاء المرتدين من كان من السابقين الأولين، أو من أصحاب بدر، أو ممن أسلم قبل الفتح أو من أصحاب بيعة الرضوان، وليس بين علماء أهل السنة والجماعة من يقول: إن المرتدين والمنافقين من الصحابة، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟!

الوجه الخامس - رمي الصحابة بالجهل

ينكر شكري وجماعته أن يكون الصحابة رضوان الله عليهم أعلم منا بأصول اللغة العربية وقواعدها، وبحديث رسول الله ﷺ ، ومن أمثلتهم الكثيرة التي استدلوا بها نختار المثالين التاليين:

(١) وردت هذه الأقوال في صحيح مسلم بشرح النووي: (٦٤/١٥)، وفي فتح الباري: (١٤/١٧٥)، مطبعة البابي الحلبي.

المثال الأول: أسهبوا في عرض شواهد وأدلة أرادوا من خلالها أن يبينوا جهل الصحابة، وعدم معرفتهم معاني كلمات بسيطة: [أبأ، أبقال، فطر^(١)...].

ويصح لهم أن يذكروا مثل هذه الشواهد وأكثر منها لو قرؤوا في كتب الأصول المعتمدة عند أهل السنة والجماعة ما يدل على أن الصحابة معصومون، وأنهم كانوا يعلمون الصغيرة والكبيرة في دين الله، لا بل في هذه الكتب ما يؤكد أنهم بشر يعلمون بعض الأمور ويجهلون بعضها الآخر، ويصيبون في اجتهاداتهم حيناً ويخطئون حيناً آخر. قال الإمام الشافعي رحمه الله:

(لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء).

والذي تعتبره جماعة شكري جهلاً في الصحابي نحن نعدّه ورعاً وفضلاً وعلماً، فمن تمام صدقهم مع ربهم أنهم كانوا يقفون عند كل عبارة وكل كلمة لا يفهمون معناها، فلا يتمحلون ويقولون أي كلام في تفسيرها، كما كانوا أوابين إلى الحق عندما يظهر لهم، وكان الخلفاء الأربعة لا يجدون أي حرج في استفتاء الصحابة في كل قضية لا يعرفون قولاً لرسول الله ﷺ بها أو بمثيلاتها.

والصحابة رضوان الله عليهم عدول كلهم، لا يحتاجون إلى توثيق، ولهذا

(١) في حديث ابن عباس قال: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى احتكم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها: أي ابتدأت حفرها [عن النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٤٥٧/٣)].

فنحن نطمئن إلى منهجهم في فهم كتاب الله وسنة رسوله.

المثال الثاني: في ردهم على كل من يقول بأن الصحابة رضوان الله عليهم أعلم منا بأصول اللغة العربية وقواعدها قالوا:

(إن الدعوة العامة أو التفاضل العام لا يوجب أن ينسحب على كل فرد بعينه، وأنه إذا كان هناك جيل أعلم من جيل باللغة، فليس بالضرورة أن كل واحد في هذا الجيل أعلم من كل واحد في الآخر، ثم إنه إن كان كل واحد من هذا الجيل أعلم من كل واحد من الجيل الآخر في اللغة، فليس بالضرورة أن يكون أعلم منه في كل جانب من اللغة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] اهـ.

وأهل السنة والجماعة لا يقولون: إن كل صحابي أفقه وأعلم من أساطين وفحول علماء اللغة العربية في العصور اللاحقة، وإنما يذهب أهل السنة لأكثر من هذا عندما يقولون: إن كثيراً من الصحابة كسكان البوادي وبعض الذين كانوا يسكنون المدينة أقل علماً ومعرفة من كثير من العلماء الذين جاءوا بعد عصرهم.

وإذن فالنتائج التي بنوها على هذه المقدمة مرفوضة وإن دلت على شيء فإنما تدل على تلاعبهم في اللفظ، وحيدتهم عن الحق، وخلطهم العثّ بالسمين. والمقدمة التي كان عليهم أن ينطلقوا منها - لو كانوا منصفين أمناء - ما يلي:

أيهم أكثر علماً بأصول اللغة العربية وقواعدها، كبار علماء الصحابة أمثال:

[أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة]، أم كبار علماء عصرنا؟!؟

والذي نؤكد أنه كبار علماء الصحابة رضوان الله عليهم أكثر علماً بأصول اللغة العربية وقواعدها من كبار علماء عصرنا وغيره من العصور - بعد عصر الصحابة للأسباب التالية:

- ١- لأنهم فطروا على النطق بالفصحى، بينما فُطر جيلنا على النطق بالعامية واللهجات المحلية - التي تختلف من بلد لآخر - وفوق ذلك كله كان اللحن في العربية من أكبر العيوب في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي الأول.
- ٢- لم يستعمر الفرس أو الرومان قلب الجزيرة العربية، ولم تتأثر لغة أهل الحجاز بكثرة الاصطلاحات والألفاظ العجمية.
- ٣- أمر بعض الصحابة بتنقيط الحروف، كما أمروا بوضع قواعد علم النحو عندما اختلط العرب بالأعاجم، وبعد أن قل الاهتمام بعلوم العربية .

وأول من أَلَّف في هذا الميدان أبو الأسود الدؤلي^(١) - تلميذ علي بن أبي طالب-، وكان أمير المؤمنين قد أمر بذلك، ورسم له الخطوط العريضة في أصول النحو وعلومه.

وبرز بعد الدؤلي: سيبويه^(٢) والفراهيدي^(٣)، والكسائي^(٤)، فشاركوا في تأسيس البناء، ورفعوا أعمدته وجدرانته حتى أصبح قلعة لا تخترق.

وجملة القول: إن قواعد النحو إنما وضعت بناء على استقراء كلام العرب، وكان الصحابة رضي الله عنهم أفصح العرب وأعلامهم درجة في البيان، فمن كان كلامه هو الحجة وهو أصل القاعدة والعلم لا يمكن أن يقارن علمه بعلماء عصرنا.

(١) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمر بن سفيان بن جندل الكناني، ولد في السنة الأولى من هجرة المصطفى ﷺ وتوفاه الله سنة [٦٩] هـ، رسم له علي بن أبي طالب شيئاً من أصول النحو، فكتب أبو الأسود فيه، وأخذه عنه جماعة، وكان والياً على البصرة في أيام علي. عن الأعلام للزركلي (٣/٣٤٠) حرف الظاء.

(٢) سيبويه [١٤٨-١٨٠هـ] اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، إمام النحاة. عن [الأعلام]: (٥/٢٥٢).

(٣) الفراهيدي [١٠٠-١٧٠هـ]: الخليل بن أحمد، واضع علم العروض، وأستاذ سيبويه في النحو. عن [الأعلام]: (٢/٣٦٢).

(٤) الكسائي [٠٠-١٨٩هـ]: علي بن حمزة الأسدي بالولاء: إمام في اللغة والنحو والقراءات. عن [الأعلام]: (٥/٩٤).

وإذن فكبار علماء الصحابة والتابعين أعلم من كبار علماء عصرنا، وغيره من العصور التي تلت عصر الصحابة، وكانوا رضوان الله عليهم أعلم ممن جاء بعدهم في كل جانب من علوم العربية، وبهذا تتهاوى أقوال شكري وأصحابه: (ثم إنه إن كان كل واحد من هذا الجيل أعلم من واحد من الجيل الآخر في اللغة، فليس بالضرورة أن يكون أعلم منه في كل جانب من اللغة).

وأي نحن من رجال كانت أقوالهم حجة في علوم العربية؟!.

أما عن توافر المعلومات والمراجع اللغوية في هذا العصر، فنحن لا ننكر ذلك، ولكننا نقول: رغم توفر المعلومات والمراجع، وتقدم وسائل الطباعة، وتعدد دور النشر، وما إلى ذلك من أمور يسرّها التقدم الصناعي في هذا العصر.. رغم ذلك يبقى جيل الصحابة والتابعين أعلم منا وأقدر على فهم العربية من كبار علماء عصرنا، هذه حقيقة لا يجروء على إنكارها أو التشكيك بها باحث منصف، وما كتب اللغة إلا جمع لما نقل من كلام الصدر الأول الذي كان الصحابة أفصح أهلهم وأبلغهم، وهي نقول فيها الخطأ والصواب بحسب ثبوت ما فيها عن أولئك المحتج بهم وعدمه، فكيف يكون قارئوها أعلم من الصحابة؟..

وفي أجواء دفاع شكري وأصحابه عن أفكارهم الشاذة الغربية وقعوا في مشكلة أخرى عندما زعموا أن اللغة العامية واللهجات المحلية من أصول عربية، وفهم العربية لا يعني إجادة التحدث بالفصحى!!.

وفي ردنا عليهم نقول: صحيح أن معظم الكلمات العامية من أصول عربية،

ولكن بعضها الآخر من أصول أعجمية، وما كان منها من أصول عربية حصل فيه كثير من التغير والتحرير في النطق، ويختلف هذا التغير من بلد لآخر، ولهذا أصبح من الصعوبة بمكان التفاهم بالعامية [الدارجة] بين أهل المشرق العربي وأهل المغرب العربي.

ولست في صدد الدفاع عن الفصحى، وحسبي أن أقرر أن شكري وأصحابه وقفوا هذه المرة - أي في دفاعهم عن العامية - في صف المستشرقين والمستغربين وتلامذتهم من النصارى العرب، وإن اختلفوا معهم في الأهداف والنتائج.

ومن خلال هذين المثالين - هناك أمثلة أخرى لا يتسع المجال لعرضها - يتضح لنا مدى تطاول أصحاب شكري على أصحاب رسول الله ﷺ.

وتراهم أحياناً يَسْفُونَ في وصف الصحابة رضوان الله عليهم، ففي تعليق لهم على قصة عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قالوا: (... مع أن هذه المسألة - أي معرفة الخيط الأبيض من الأسود في الصيام - قد يفهمها صبي في هذا الزمان).

إن هذا والله لهو الغرور بأوسع معانيه أن تزعم هذه الجماعة بأن بعض صبيان هذا الزمان أكثر فهماً وعلماً في معاني اللغة من صحابي جليل!!

وإذا كان هذا هو حال صبيان هذا الزمان إذن كيف يكون حال الرجال العلماء

فيه؟!.

كل الذي يريده شكري أن يفهم الناس بأن الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا أعلم منه بالفقه والحديث والأصول، فاشتطَّ فيما ذهب إليه وراح ينسب إليهم الجهل وغيره.

وهناك أصل من أصول أهل البدع وهو الإعراض عن منهج الصحابة رضي الله عنهم في فهم النصوص والتنقيب عما يوافق هواهم في كلام الشعراء صح أو لم يصح وبهذا أوَّلوا الصفات وأوَّلوا نصوص الإيمان والقدر ونحوها، وعلى هذا جرى شكري.

أما كان الأجدر به أن يلتفت إلى جماعته فيعلمها الأدب والتواضع ويشغلها بما ينفعها في دنياها وآخرتها؟!.

أما وجد من يتناول عليهم إلا الرجال الذين شرفهم الله سبحانه وتعالى بصحبة خير الورى عليه أفضل الصلاة والتسليم؟!.

ونحن - علم الله - لا نسيء فهم أقوال هذه الجماعة ولا نحملها ما لا تحتمل، وسيجد القارئ الكريم في الصفحات القادمة ما هو أدهى وأمر.

هناك جانب مهم في الموضوع وهو أن فهم القرآن والسنة ليس مجرد معرفة معاني ألفاظهما في كلام العرب، وإنما كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون القضية نفسها التي تنزل فيها الآية أو يرد فيها الحديث ومن هنا لا يمكن أن يأتي من بعدهم من هو أعلم منهم بهذا أبداً، ومن ذلك مثلاً آية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى

أَلْتَهْلِكُ ﴿﴾ [البقرة: ١٩٥] فمعناها اللغوي واضح سهل ولكن المراد بها لا يفهم من مجرد الألفاظ، ولهذا بين أبو أيوب الأنصاري ؓ أنها نزلت في ترك الجهاد والاشتغال بالدنيا.

ومثل ذلك قول الصديق ؓ في آية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] أيها الناس إنكم تقرؤون آية من كتاب الله تفهمونها على غير وجهها... أو كما قال ؓ [يراجع تفسير ابن كثير عن الآيتين: ١٩٥ من سورة البقرة، و١٠٥ من سورة المائدة].

الوجه السادس - أيهما أفضل: جيل الصحابة أم جيل آخر الزمان؟!

زعم شكري وجماعته أنهم أفضل من جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وسلخوا في محاولتهم إثبات هذا الزعم طريقاً ملتويّاً يتألف من مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: زعموا بأن أقوال الصحابة وأفعالهم وإجماعهم ليست حجة، وأضافوا بأن الصحابة ليسوا أفقه من غيرهم في علوم العربية، وفي فهم السنة النبوية، وقد فصلنا القول في هذه المسألة فيما مضى من هذا الفصل.

المرحلة الثانية: قالوا بأن جيل آخر الزمان أفضل من جيل الصحابة، واستدلوا على ذلك بقول الرسول ﷺ بأن أجر أحدهم بخمسين من أجر الصحابة، وأن عيسى بن مريم سيجد منهم خلقاً من حواريه، وقالوا عنهم أيضاً:

(... فقد كلفهم الله سبحانه وتعالى من الناحية القدرية التي يعلمها والتي

يريدها بما لم يكلف صحابة النبي ﷺ).

المرحلة الثالثة: زعموا بأنهم جماعة آخر الزمان. جاء في رسالتهم التي أسموها [التوسمات]:

(ونحن جماعة الحق في آخر الزمان تشملنا الآيتان: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] و﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ [المائدة: ٥٤].

أما ادعاؤهم بأنهم جماعة آخر الزمان، وأن شكري هو مهديهم المنتظر، فسوف نرجئ الرد عليه إلى موضع آخر من هذا الكتاب، ونكتفي في هذا الموضوع بالرد على قولهم: إن جيل آخر الزمان خير من جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وسوف نعرض الأحاديث التي وردت في هذه المسألة، ثم نبين أقوال العلماء المحققين فيها، وكيف جمعوا بين الأقوال التي تبدو متعارضة.

* الأحاديث الواردة:

الحديث الأول: عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها^(١). فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال:

(١) تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها: يعني تقدم عبد الرحمن بن عوف في الإسلام عن خالد، ولا يخفى ما لخالد من الفضل في الفتوح ومحاربة الأعداء حتى سماه النبي ﷺ سيف الله.

«دعوا لي أصحابي^(١) فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ أو مثل الجبال ذهباً ما بلغت أعمالهم»^(٢).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدكم ولا نصيفه»^(٣).

الحديث الثاني: عن يوسف بن عبد الله بن سلام^(٤) أنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنحن أفضل أم من بعدنا؟! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أصحابي: الإضافة للتشريف تؤذن باحترامهم وزجر سائهم وتعزيره عند الجمهور. قال النووي: وهو من أكبر الفواحيش.

(٢) أورده الهيثمي وقال رواه أحمد، المسند (٣/٢٦٦)، ورجاله رجال الصحيح، وأورد نحوه عن أبي هريرة وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عاصم بن أبي النجود وقد وثق [عن كتاب الفتح الرباني، بلوغ الأمان، كتاب المناقب: (١٦٨ / ٢٢)]. وانظر صحيح الجامع الصغير وزيادته: (٢/٣٣٨٠)، المكتب الإسلامي، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، باب تحريم سب الصحابة: (١٦/٩٢). وقد انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري.

(٤) يوسف بن عبد الله بن سلام المدني حليف الأنصار، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبيه وعثمان وعلي وأبي الدرداء وخويلدة بنت ثعلبة وأم معقل وجماعة. قال ابن أبي حاتم رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقال البخاري: إن له صحبة. توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز [عن تهذيب التهذيب: (١١/٤١٦)].

«لو أنفق أحدهم أحداً ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه»^(١).

الحديث الثالث: عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي مرة، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات»^(٢).

الحديث الرابع: عن أنس رضي الله عنه يرفعه: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره»^(٣).

الحديث الخامس: عن أبي ثعلبة رفته: «تأتي أيام للعامل فيهن أجر خمسين، قيل منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم»^(٤).

الحديث السادس: روى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله

(١) أورده الهيثمي وقال رواه أحمد في لمسند: (٦/٦) وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح [قال شارح مسند الإمام أحمد الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا الشهير بالساعاتي، كتاب المناقب من الفتح الرباني: (٢٢/١٦٩)].

(٢) حديث صحيح رواه أحمد: (٣/١٥٥)، والبخاري في تاريخه وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة [عن سلسلة الأحاديث الصحيحة، الحديث رقم: (١٢٤١، ٣/٢٤٤)] و[صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم: (٣٨١٩، ٤/١٣)].

(٣) رواه الترمذي وحسنه: (٥/١٥٢) - كتاب الأمثال - وقال ابن حجر: هو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم: (٥٧٣٠)، وقال الألباني في المشكاة: وهو صحيح لطرقه، الحديث رقم: (٦٢٧٧).

(٤) رواه أبو داود [في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي: (٤/١٢٣)، طبعة دار إحياء السنة]، والترمذي في كتاب التفسير - سورة المائدة - (٥/٢٥٧)، وقال: حديث حسن غريب.

عنهما قال: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع النبي ﷺ - خير من عمل أحدكم أربعين سنة»^(١).

الحديث السابع: حدثنا إسحاق: حدثنا النصر: أخبرنا شعبة، عن أبي حمزة: سمعت زهدم بن مضرب قال: سمعت عمران بن حصين رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن»^(٢).

* أقوال العلماء:

- قال شارح الطحاوية في تعليق له على الحديث الأول الذي رواه أنس بن مالك:

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة عن ابن عمر: (٦١ / ١) وقال المحقق إسناده صحيح، طبعة جامعة أم القرى، وانظر شرح الطحاوية (٥٣٠-٥٣١) المكتب الإسلامي، وقال الألباني: صحيح في الحاشية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٥ / ٨)، مكتبة الحلبي. ورواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، باب فضل الصحابة: (١٦ / ٨٣)، بيروت - دار الفكر. ورواه أحمد والترمذي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٣ / ١٢٥).

(والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرًا أن يسب من له صحبة أولاً، لامتنيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه .

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؟^(١).

-قال الشيخ الساعاتي رحمه الله في شرحه لمسند الإمام أحمد معلقاً على الحديث الأول:

(وظاهره أن الخطاب لخالد بن الوليد وأمثاله ممن تأخر إسلامهم، وما يخفى ما لخالد من الفضل في الفتوحات ومحاربة الأعداء حتى سماه النبي ﷺ سيف الله .

وعلى هذا فيكون المراد مَنْ بعد الصحابة مخاطباً بذلك حكماً إما بالقياس أو التبعية والله أعلم) اهـ .

وقال أيضاً في تعليقه على الحديث الثاني:

(وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال بخلاف غيرهم، و لأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمائته وذلك معدوم بعده وكذا جهادهم وسائر طاعاتهم . قال القاضي عياض:

(١) شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي: (٥٢٩-٥٣٠).

ومن أصحاب الحديث من يقول هذه الفضيلة مختصة بمن طالت صحبته وقاتل معه وأنفق وهاجر ونصر، لا لمن رآه مرة كوفود الأعراب أو صحبه آخرًا بعد الفتح، وبعد إعزاز الدين كمن لم يوجد له هجرة ولا أثر في الدين ومنفعة المسلمين. قال: والصحيح هو الأول وعليه الأكثرون. والله أعلم^(١).

-وقد فصل القول في المسألة شيخ المحدثين ابن حجر العسقلاني رحمه الله فقال: (واقضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟! محل بحث، وإلى الثاني نحا الجمهور والأول قول ابن عبد البر والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ أو في زمانه بأمره أو أنفق شيئاً من ماله بسببه لا يعدله في الفضل أحد بعده كائناً من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث.

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُوتَيْكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِكَ﴾ [الحديد: ١٠] الآية.

واحتج ابن عبد البر بحديث: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره» وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة.

و أغرب النووي فعزاه في فتاويه إلى مسند أبي يعلى من حديث أنس بإسناد ضعيف مع أنه عند الترمذي بإسناد أقوى منه من حديث أنس، وصححه ابن حبان

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد مع مختصر شرح بلوغ الأمان: (١٦٨/٢٢-١٦٩).

من حديث عمار . وأجاب النووي بما حاصله أن المراد من يشتهه عليه الحال في ذلك من أهل الزمان الذين يدركون عيسى بن مريم عليه السلام ويرون ما في زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام ودحض كلمة الكفر فيشتهه الحال على من شاهد ذلك: أي الزمانين خير؟!!

وهذا الاشتباه مندفع بصريح قول الرسول ﷺ:

«خير القرون قرني» والله أعلم.

وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير ثلاثاً، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»^(١).

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة رفعه:

«يأتي أيام للعامل فيهن أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟! قال: بل منكم» وهو شاهد لحديث «مثل أمتي مثل المطر».

واحتج ابن عبد البر - أي في تفضيل ناس من آخر الزمان على بعض الصحابة - أيضاً بحديث عمر رفعه: «أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولا يروني» الحديث، أخرجه الطيالسي وغيره لكن

(١) الحديث ضعيف وليس حسناً، انظر ضعيف الجامع الصغير للألباني، الحديث (٤٨٧٨).

إسناده ضعيف فلا حجة فيه^(١).

وروى أحمد والدرامي والطبراني من حديث أبي جمعة قال: قال أبو عبيدة: يا رسول الله: أأحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»^(٢) وإسناده حسن وقد صححه الحاكم. واحتج أيضاً بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن كانوا أيضاً عند ذلك غرباء وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك.

ويشهد له ما رواه مسلم^(٣) عن أبي هريرة رفعه: «بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً كما بدأ فطوبى للغرباء».

وقد تعقب كلام ابن عبد البر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة، وبذلك صرح القرطبي، لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية.

(١) انظر المستدرک: (٤/ ٨٥) وسلسلة الاحاديث الضعيفة للألباني (٦٤٨).

(٢) رواه أحمد: (٤/ ١٠٦)، والحاكم في المستدرک: (٤/ ٨٥)، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان: (١/ ١٢٢)، طبعة عبد الباقي.

نعم الذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده، لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا والذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده فظهر فضلهم. ومحصل النزاع يتمخض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهاً على أن حديث «للعامل منهم أجر خمسين منكم» لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. وأيضاً فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد فهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

وأما حديث أبي جمعة فلم تتفق الرواة على لفظه، فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية كما تقدم، ورواه بعضهم بلفظ «قلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟» الحديث أخرجه الطبراني وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة وهي توافق حديث أبي ثعلبة وقد تقدم الجواب عنه والله أعلم. انتهى كلام ابن حجر^(١).

(١) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر العسقلاني، (٧/٦-٧) طبعة البابي الحلبي.

الخلاصة:

- ١- الذي دل عليه صريح القرآن و الأحاديث الصحاح أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لا يعدلهم في الفضل أحد.
- ٢- الأحاديث التي وردت في تفضيل جيل آخر الزمان -ممن يشهدون المهدي والمسيح- على الصحابة إما ضعيفة أو حسنة، والأدلة التي تؤكد أفضليه الصحابة على غيرهم أصح وأشهر وأوفق للنصوص والأصول العامة.
- ٣- أن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وتفاضل الأجر يقع بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل.
- ٤- رغم ضعف الأدلة التي اعتمد عليها ابن عبد البر، وخالف بها الجمهور في تفضيله جيل آخر الزمان على بعض الصحابة، فإنه -أي ابن عبد البر- استثنى أهل بدر والحديبية وقال بأنهم لا يعدلهم في الفضل أحد ممن جاء بعدهم.

الوجه السابع - تناقضات وتدليس

تحدث قوم شكري عن الخلاف الذي نشب بين الصحابة رضوان الله عليهم بعد مقتل عثمان بن عفان، وخروج علي وطلحة والزبير وسعد وعائشة إلى صفين فكان مما قالوه:

(... لا يمنع هؤلاء أن يخطئوا، بل هم الذين يخطئون ويصيبون، ويدخلون

في قول النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

وذكروا في موضع آخر عدداً من أخطاء الصحابة رضوان الله عليهم، ثم قالوا

معلقين:

(فهؤلاء قد اختلفوا، والحق واحد فكيف يكون الحق معهم جميعاً حين

الاختلاف حتى يقول بأيهم اقتديتم اهتديتم).

وعن أخطاء الصحابة قالوا أيضاً:

(وعبد الله بن مسعود حرم التيمم وراجعته في ذلك أبي بن كعب وغيره.

وراجع عمر عماراً في ذلك القول وقال له: اتق الله يا عمار.

هذا الإفتاء مع وجود الآيات البيّنات في ذلك غير الكثير من المسائل التي

كان يفتي الصحابة في خلافها).

وسوف نبين فيما يلي إن شاء الله ما تضمنته هذه الأقوال من تناقضات

وتدليس:

١- إن الأعمال التي ذكروها عن الصحابة رضوان الله عليهم: كقتال بعضهم

بعضاً، وفتاويهم التي خالفوا فيها الآيات البيّنات من القرآن الكريم [على حد

زعم هذه الجماعة] وما إلى ذلك من أقوال وأفعال كلها توجب كفر فاعلها عند

أصحاب شكري، لكنهم ذكروا هذه الأمور دون أن ينسبوا إلى الصحابة كفراً أو

ردة، واكتفوا بقولهم:

[بل هم الذين يخطئون ويصيبون].

فلماذا يكون قتال المسلمين - فيما بينهم - كفرة^(١). ويكون قتال الصحابة - فيما بينهم - خطأ؟!.

ومما يجدر ذكره أن هذه الجماعة عندما ابتدعت هذه القواعد والأصول لم تضع لها استثناءات، وليس في رسالتهم التي بين أيدينا جواب عن هذا السؤال.

٢- من اجتهد في مسألة ولم يصب الحق فقد ضل وأضل، ومن ضل فقد كفر، فلماذا خالف أصحاب شكري هذا الاعتقاد عندما صاروا يتحدثون عن الصحابة رضوان الله عليهم؟!.

٣- أما قولهم: كان الصحابة يفتون مع وجود الآيات البيّنات في ذلك - واستدلّاهم على ذلك بقول عمر بن الخطاب لعمار: اتق الله يا عمار - فليس فيما ذكروه دقة ولا أمانة، وسوف نذكر فيما يلي القصة بأكملها وأقوال العلماء المحققين فيها: (روى الشيخان أنه كان من مذهب عمر بن الخطاب أن التيمم لا يجزئ الجنب الذي لا يجد الماء، فروى عنده عمار أنه كان معه في سفر فأصابته جنابة ولم يجد ماء، فتمعك في التراب فذكر ذلك عن رسول الله ﷺ وقال: إنما كان يكفيك أن تفعل هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بهما وجهه ويديه فلم

(١) عندما نتحدث عن الكفر من خلال عرضنا لأقوال شكري وأصحابه، فهذا يعني أنه كفر اعتقادي وليس في قاموسهم كفر لا يخرج عن الملة.

يقبل عمر ولم ينهض عنده حجة تقاوم ما رآه حتى استفاض الحديث في الطبقة الثانية من طرق كثيرة واضمحل وهم القادح فأخذوا به^(١).

وعن سبب قول عمر: اتق الله يا عمار. ننقل فيما يلي ما كتبه الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في تحقيق هذا الحديث وشرحه:

(وإنما لم يقنع عمر بقول عمار لكونه أخبره أنه كان معه في تلك الحال وحضر معه تلك القصة كما سيأتي في رواية يعلى بن عبيد، ولم يتذكر ذلك عمر أصلاً. ولهذا قال لعمار فيما رواه مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبيزى: [اتق الله يا عمار] قال - أي عمار-: إن شئت لم أحدث به، فقال عمر: [نوليك ما توليت] قال النووي: معنى قول عمر [اتق الله يا عمار] أي فيما ترويه، وتثبت فيه فلعلك نسيت أو اشتبه عليك فإني كنت معك ولا أتذكر شيئاً من هذا.

ومعنى قول عمار: إن رأيت المصلحة في الإمساك عن التحديث به راجحة على التحديث به وافقتك وأمسكت، فإني قد بلغت فلم يبق عليّ فيه حرج، فقال له عمر: [نوليك ما توليت] أي لا يلزم من كوني لا أتذكره أن لا يكون حقاً في نفس الأمر، فليس لي منعك من التحديث به، والذي زاده يعلى في هذه القصة قول عمار لعمر [بعثني أنا وأنت] وبه يتضح عذر عمر كما قدمناه.

(١) انظر فتح الباري - كتاب التيمم - (١/٤٥٥) الطبعة السلفية، ومسلم - كتاب الحيض، باب التيمم (١/٢٨٠)، طبعة عبد الياقي.

وأما ابن مسعود فلا عذر له في التوقف عن قبول حديث عمار، فلهذا جاء عنه أنه رجع عن الفتيا بذلك كما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد فيه انقطاع عنه^(١).

وإذن كان خلاف أصحاب رسول الله ﷺ حول صحة الحديث الذي رواه عمار لاسيما وأن عمر لم يتذكر أنه كان مع عمار، وعندما ثبت عندهم صحة الحديث تمسكوا به وعادوا عن مخالفتهم لعمار في صحة تيمم الجنب، ومع ذلك لم يمارس الفاروق ضد عمر أي لون من ألوان العنف أو الإرهاب، كما كان يفعل شكري مع من يخالفه الرأي من أتباعه، بل ولم يمنع أمير المؤمنين عماراً عن التحديث به، وكل الذي قاله له: [اتق الله يا عمار].

وليس في هذه القصة ولا في غيرها ما يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يخالفون الآيات البينات في فتاويهم، وإنما كانوا من أشد الناس تمسكاً بحديث رسول الله ﷺ عندما يظهر لهم. قال الدهلوي رحمه الله:

(ولذلك كان الشيخان - أبو بكر وعمر - إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألان الناس عن حديث رسول الله ﷺ، قال أبو بكر رضي الله عنه: ما سمعت رسول الله ﷺ قال فيها شيئاً - يعني الجدة -، وسأل الناس، فلما صلى الظهر قال: أيكم سمع رسول الله ﷺ قال في الجدة شيئاً؟ فقال المغيرة بن شعبة: أنا، قال: ماذا؟ قال أعطها رسول الله ﷺ سُدُساً، قال: أيعلم ذلك أحد غيرك؟ فقال محمد بن مسلمة:

(١) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر العسقلان: (١/٤٧٤)، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.

صدق. فأعطاها أبو بكر السُّدُسُ^(١).

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس في الغرّة ثم رجع إلى خبر المغيرة، وسأل رضي الله عنه الناس في الوباء^(٢) ثم رجع إلى خبر عبد الرحمن بن عوف، والأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جداً. ومن شاء مزيداً من الشواهد على هذه المسألة فليعد إلى صحيحي البخاري ومسلم وأمّهات كتب الحديث.

وجملة القول: لم يخالف أحد من الصحابة الآيات البينات في فتواه.

لقد كانوا رضوان الله عليهم يخطئون ويصيبون، وكانوا يختلفون في أمور اجتهادية، ويسارعون في التمسك بالحق عندما يتبين لهم الدليل الصحيح. كما كانوا رضوان الله عليهم لا يتعصبون لأرائهم، ويتجنبون المراء والجدل في جميع أمورهم، ولا يسفهون آراء غيرهم، وما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليجد حرجاً في العودة عن رأي يراه أمام اعتراض امرأة من عامة الناس عندما واجهته

(١) حجة الله البالغة، للإمام ولي الله الدهلوي، (١/١٤١). وحديث الجدة رواه مالك وأحمد وأبو داود [كتاب الفرائض: (٣/١٢١)] والترمذي [الفرائض: (٤/٤١٩)] وابن ماجه والدارمي، وصححه الترمذي. [عن الانصاف في بيان أسباب الإختلاف للدهلوي، (ص ١٩) دار النفائس].

(٢) الوباء: طاعون عمّواس الذي وقع خلافة عمر بن الخطاب، وقد رواه البخاري في كتاب الطب - باب ما يذكر في الطاعون [الفتح: (١٧٨/١٠)] - الطبعة السلفية.

والغرّة: الأدمي، يعني دية الجنين يؤذيها لوي الجنين من سبب لأمه الإملاص، والإملاص وضع الجنين قبل أوانه. وهو في البخاري في كتاب الديات - باب العاقلة [الفتح: (٢٤٧/١٢)] ومسلم - القسامة - باب صحة الإقرار ... (٣/١٣١١)، طبعة عبد الباقي.

بالدليل، فأين هؤلاء الرجال من أناس يعرضون عن الأدلة الواضحة انتصاراً
لأهوائهم وآرائهم السقيمة؟!

الوجه الثامن - التقليد

ما قاله شكري وجماعته عن الصحابة رضوان الله عليهم ليس فيه جديد على
الإطلاق.

- لقد سبقهم أهل الاعتزال فزعموا أن إجماع الصحابة ليس حجة، كما
زعموا أن حديث الآحاد ليس حجة، وفوق هذا وذاك جعلوا العقل وصياً على
شرع الله، وقالوا بأن الصحابة عدول إلا من قاتل علياً.

- وسبقهم الخوارج الذين كفروا عدداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وقتلوا
أمير المؤمنين علياً عليه السلام وآخرين من الصحابة والتابعين.

- وسبقهم أهل الرفض الذين قالوا بكفر جميع الصحابة إلا خمسة أو سبعة
عشر منهم، وسودوا مئات الكتب في الهجوم على السابقين الأولين أمثال: أبي
بكر وعمر وطلحة وعائشة وغيرهم وغيرهم. قال الشعبي رحمه الله:

(سئلت اليهود من خير أهل ملتكم قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة
من شر أهل ملتكم قالوا:

أصحاب محمد، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم^(١).

- وسبقهم المستشرقون الذين نقلوا أكاذيب الرافضة إلى كتبهم، وأضافوا إليها الكثير، ثم ادعوا الحياد وموضوعية البحث.

وجاء جماعة شكري فأخذوا عن المعتزلة شيئاً من أقوالهم في الصحابة، كما أخذوا عن الرافضة بقية أقوالهم في تعداد أخطاء الصحابة. ومن شاء مزيداً من المعلومات حول هذه المسألة، فليقارن بين ما كتبه قدامى أئمة الرفض عن الصحابة، وبين ما جاء في رسائل جماعة شكري.

لقد تشابهت قلوبهم، وتباينت غاياتهم وأهواؤهم، فليس مهماً عند جماعة شكري القول بكفر الصحابة من عدمه، بل المهم أن يثبت لأتباعه وغيرهم بأن أقواله وأفعاله حجة لأنه إمام جماعة آخر الزمان، التي فضلها على جماعة الصحابة، وكان الله في عون أهل آخر الزمان من أمثال هؤلاء الأئمة المزعومين.

والذي يعيننا في هذا الموضوع ما قلناه أكثر من مرة:

- زعم شكري بأن التقليد أول كفر وقع في هذه الأمة، ثم قلد النواصب والروافض في بعض مواقفهم من أصحاب رسول الله ﷺ.

- لم يشر شكري إلى المصادر التي استقى منها معلوماته، وهذا منه سوء أمانة في النقل، وتدليس على أتباعه.

(١) منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٦/١).

- كانت النواصب والروافض أكثر وضوحاً - في موقفهم من الصحابة - من أصحاب شكري.

الوجه التاسع - هل كان شكري وماهر أكثر علماً من أبي بكر وعمر؟!

تتبع ما جاء في رسائل هذه الجماعة عن أفضل خلق الله بعد رسله وأنبيائه، وكنت - وأنا أقرأ هذه الرسائل للمرة الأولى - أقول:

- لعلي أجد استثناء لطبقة معينة من الصحابة رضوان الله عليهم.

- لعل سوء التقليد هو الذي دفع الجماعة إلى اتخاذ مثل هذا الموقف، ولعلمهم يتشددون في تعريف الصحبة فلا يثبتونها إلا للسابقين الأولين الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ، وبذلوا أموالهم وأرواحهم رخيصة في سبيل الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن فرغت من قراءة رسائلهم - بكل روية وتمعن - أسفت أشد الأسف للنتائج التي توصلوا إليها.

لم أجد فيها إلا ما حاولوا من خلاله رمي الصحابة بالجهل والنفاق والردة وما إلى ذلك من ترهات وأباطيل، وكما أشرت أكثر من مرة سلكوا أسلوباً فيه كثير من التلويح والمراوغة...

وأمام هذه النتائج المؤسفة وجدت نفسي أتساءل باستغراب:

- كيف لا يُخصَّون جيل الصحابة بميزات ينفرد بها عن كل جيل جاء بعده؟!

- كيف منح شكري نفسه صلاحيات ومزايا لا نراها لأبي بكر الصديق وهو من هو

صحبة وخلقاً، ثم منح شكري ابن أخته [سيأتي الحديث عنه وعن غيره من قادة الجماعة في الفصل الأخير من هذا الكتاب] ماهراً صفات لا نراها في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فهل كان شكري وماهر أكثر علماً من أبي بكر وعمر؟!

لا ننكر أن أصحاب شكري لم يكفروا أحداً من الصحابة كما فعل النواصب والروافض، لكنهم تأثروا بهم وتجاهلوا ما ورد في كتاب الله تعالى من ثناء على الصحابة، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]

وقوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْمَهْجُورِينَ وَالْانصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

وقوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهْجَرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [٨] وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى عن أصحاب بيعة الرضوان:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح]

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، ومنهم أهل بيعة الرضوان الذين كان يربو عددهم على ألف وأربعمائة^(١).

- ولما كان للسابقين الأولين من فضل فقد غضب ﷺ من خالد بن الوليد

لأنه سب عبد الرحمن بن عوف، وقال له:

«دعوا لي أصحابي» مع أن خالد بن الوليد من أصحابه^(٢).

• وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال عن الأنصار عامّة:

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، (٥٣٠).

(٢) الحديث صحيح وقد سبق تخريجه.

«لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»^(١).

• ولمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا يبغض الأنصار رجل آمن بالله واليوم الآخر».

• وعن الصديق ﷺ قال ﷺ:

«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في

المسجد خوخة إلا سُدَّتْ إلا خوخة أبي بكر»^(٢).

• وعن أبي نجیح العرْباض بن سارية ﷺ قال:

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون

فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصينا قال:

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من

يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهتدين عضواً علينا بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة

(١) رواه الشيخان: [الفتح - مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان: (١١٣/٧)، الطبعة السلفية، ومسلم كتاب الإيمان - باب الدليل على أن حب الأنصار من الإيمان: (٨٥-٨٦)، طبعة عبد الباقي].

(٢) متفق عليه [الفتح - كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي: سدوا الأبواب: (١٢/٧)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي بكر الصديق: (٤/١٨٥٤)].

ضلالة»^(١).

هذا قليل من كثير ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى وما صح من أحاديث المصطفى ﷺ في فضائل الصحابة من السابقين الأولين ومن جاء بعدهم فكيف أعرض أصحاب شكري عن ذكره، بل كيف أعمى الهوى أبصارهم فلم تعد ترى من الرعيل الأول إلا العيوب؟!.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم (٥/٤٤)، [طبعة شاكر] وأبو داود في كتاب السنة باب لزوم السنة: (٤/٢٠٠).

الفصل الرابع

الكتاب والسنة

تقديم وتأخير

في نقدنا لأصول جماعة شكري قدمنا موقفهم من التقليد، والإجماع، وأقوال الصحابة على منهجهم في فهم الكتاب والسنة، لأننا أردنا أن يكون واضحاً حجم ما أنكروه وتشددوا في إنكاره إلى درجة تكفير من يخالفهم في الرأي، ومن جهة أخرى قد نجد من يجهل العقلية التي تفكر بها قيادة هذه الجماعة ثم يرد علينا قائلاً:

وماذا يضيرهم إذا أنكروا التقليد والإجماع وحججوا أقوال الصحابة، وتمسكوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله؟!.

والمشكلة عند هذه الجماعة ليست في تأكيدهم المستمر على التمسك بالكتاب والسنة، وإنما المشكلة فيما اختطوه من منهج خالفوا به أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ورجال خير القرون من كبار الأئمة والعلماء المحققين، ويجب أن يكون واضحاً منذ البداية أن أصحاب شكري يتعاملون مع القرآن والسنة مباشرة - رغم ما هم عليه من جهل - وليس لك أن تلزمهم بقول أو رأي لأنهم عندما رفضوا إجماع الصحابة رفضوا من باب أولى: عمل أهل المدينة، ورأي الجمهور، وجميع أنواع الإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسله، كما رفضوا اجتهادات الأئمة وما انتهوا إليه من تحقيقات.. لأن الالتزام بهذه الأقوال عندهم عبادة للرجال، والإيمان بها يعني اتخاذ الناس أنداداً من

دون الله سبحانه وتعالى، وسنكشف في هذا الفصل منهمجهم في فهم الكتاب والسنة، ونبين ما فيه من انحرافات ومخاطر.

أمور لا بد من معرفتها عند أهل البدع والأهواء

كشف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العقلية التي يفكر بها أهل البدع والأهواء، فقال كلاماً في غاية الأهمية عند حديثه عن الخوارج، نقله فيما يلي لما بين الخوارج وجماعة شكري من تشابهه:

(أول البدع ظهوراً في الإسلام و أظهرها ذمماً في السنة والآثار: بدعة الحرورية المارقة فإن أولهم قال للنبي ﷺ في وجهه:

اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!!).

وأمر النبي ﷺ بقتلهم وقاتلهم، وقتالهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب.

ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:

أحدهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة، أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا الذي أظهره في وجه النبي ﷺ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي^(١):

اعدل فإنك لم تعدل حتى قال له النبي ﷺ:

(١) سيأتي الحديث عن الخوارج وذو الخويصرة التميمي في جزء آخر من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

«ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل».

فقوله: «فإنك لم تعدل» جعل منه لفعل النبي ﷺ سفهاً وترك عدل.

وقوله: «اعدل» أمر له بما اعتقده هو القسمة التي لا تصلح، وهذا الوصف مشترك فيه البدع المخالفة للسنة، فقائلها لا بد أن يثبت ما نفته السنة وينفي ما أثبتته السنة، ويحسن ما قبحته السنة أو يقبح ما حسنته السنة، وإلا لم يكن بدعة، وهذا القدر قد يقع من بعض أهل العلم خطأ في بعض المسائل، لكن أهل البدع يخالفون السنة الظاهرة المعلومة.

والخوارج جَوَّزوا على الرسول نفسه أن يجور ويضل في سنته ولم يوجبوا طاعته ومتابعته، وإنما صدقوه فيما بلغه من القرآن دون ما شرعه من السنة التي تخالف - بزعمهم - ظاهر القرآن.

وغالب أهل البدع غير الخوارج يتابعونهم في الحقيقة على هذا فإنهم يرون أن الرسول لو قال بخلاف مقالتهما لما اتبعوه، كما يحكى عن عمرو بن عبيد في حديث الصادق المصدوق، وإنما يدفعون عن نفوسهم الحجة: إما برد النقل وإما بتأويل المنقول. فيطعنون تارة في الإسناد وتارة في المتن. وإلا فهم ليسوا متبعين ولا مؤمنين بحقيقة السنة التي جاء بها الرسول، بل ولا بحقيقة القرآن.

الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب وأن دارهم هي دار الإيمان، وكذلك يقول جمهور الرافضة،

وجمهور المعتزلة والجهمية، وطائفة من غلاة المنتسبة إلى أهل الحديث والفقهاء ومتكلميهم. فهذا أصل البدع التي ثبت بنص سنة رسول الله ﷺ وإجماع السلف أنها بدعة وهو جعل العفو سيئة وجعل السيئة كفراً.

فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين، وما يتولد عنهما من بغض المسلمين وذمهم ولفهم واستحلال دمائهم وأموالهم^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نقده لمنهج المعتزلة:

(إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين:

تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم)^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله:

(أما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية، ونظروا في السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحايلوا في رده أو رد دلالاته، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٩ / ٧١ - ٧٢).

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق د. عدنان زررور (٢٢).

أشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه) اهـ^(١).

وإذن: فأهل البدع يقدمون أهواءهم على الكتاب والسنة، ويضعون النتائج قبل المقدمات، ثم يلوون أعناق النصوص لتوافق ما هم عليه من انحرافات وضلالات، ومن ثم فهم يعلمون أن العقبة الكأداء في طريقهم [أصول الإسلام] التي أجمع عليها أهل السنة والجماعة على مختلف عصورهم و أمصارهم، ولهذا فهم يبدؤون دعواتهم بحذف بعض هذه الأصول، ووضع بدلاً منها أصولاً جديدة، ويزعمون أنهم متمسكون بالكتاب والسنة لأنهم لو قالوا بغير ذلك لظهر للناس زيف ما يدعون إليه وانفض من حولهم أقرب الناس إليهم.

وقد أجاد وأفاد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في وصف حال أهل البدع والأهواء وكأنهما يعيشان عصرنا، ولا غرابة في ذلك فأسلوب أهل البدع واحد رغم ما بينهم من خلافات في النتائج والأهداف.

وبعد أن بينا ما يجب توضيحه عن أهل البدع والأهواء، ننتقل إلى الحديث عن الأصول الجديدة التي وضعتها جماعة شكري، وإلى طريقة فهمهم للكتاب والسنة.

(١) إعلام الموقعين لابن القيم: (٧٦/١).

أصـلان جـديـدان

قسّم جماعة شكري أصول الإسلام إلى الأقسام التالية:

- ١- مصادر الهدى: أي الأوعية التي يلتمسون منها الهدى والعلم.
- ٢- الهدى نفسه: أي ما هو الإسلام وما هو الكفر.
- ٣- كيف يؤمنون الهدى من أن يغتاله الكافرون أو السبيل الذي يجب اتباعه لتدمير الكفر وإقامة دولة الإسلام.

وسوف نتحدث في هذا الفصل عن الأصل الأول، ونرجى الحديث عن الأصل الثاني والثالث إلى فصول أخرى من هذا البحث إن شاء الله.

تنقسم مصادر الهدى عندهم إلى الأقسام الأربعة التالية:

- ١- السموات والأرض.
- ٢- الإنسان والفطرة.
- ٣- القرآن.
- ٤- السنة أو الحكمة.

ومن الأدلة التي يستشهدون بها على أهمية المصدر الأول -أي السموات والأرض- قوله تعالى:

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣١﴾ ﴿آل عمران﴾

وقوله تعالى:

﴿ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٣١﴾ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ قُرْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الذاريات]

ومن أدلتهم على أن الفطرة أصل من أصول الإسلام قوله تعالى:

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]

وقوله تعالى:

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة]

ولنا على أقوالهم في هذه المسألة الملحوظتان التاليتان:

الملحوظة الأولى:

زعمت الجماعة أن السموات والأرض والإنسان أو الفطرة من أصول الإسلام، بل قدمت هذين الأصلين على الكتاب والسنة لأهميتهما، ومثل هذا الزعم يخالف إجماع أهل السنة في القديم والحديث، ويتعارض مع أصولهم التي كان عليها الصحابة والتابعون ورجال خير القرون ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

وأول ما يترتب على جماعة شكري - وقد فعلوا ما فعلوه - شرح الأصول التي ابتدعوها، وبيان الأدلة الشرعية التي دعتهم إلى اتخاذ مثل هذا الموقف، والرد على ما سوف يثار ضدهم من استنكار واستغراب. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وإنما جاء عرضهم لهذين الأصلين عاماً ومقتضياً وغامضاً، وفي المقابل هناك مئات من الكتب في شرح أصول أهل السنة والجماعة، فهل تكفي بضعة أسطر غامضة لوضع أصول إسلامية جديدة؟!.

الملحوظة الثانية:

إذا كان جماعة شكري لم يضعوا إجابات للأسئلة الأنفة الذكر، فلنعد إلى الكتاب والسنة لنرى ما جاء فيهما عن السموات والأرض والإنسان أو الفطرة:

١ - السموات والأرض:

لم يرد عن الرسول ﷺ حديث صحيح مسند في سبب نزول الآيات من سورتي آل عمران والذاريات والتي استدلوا بها على أن السموات والأرض أصل من أصول الإسلام، وكل الذي ورد ما رواه البخاري في صحيحه أن الرسول ﷺ كان يقرأ الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، وقال المفسرون في هذه الآيات: (إن الأرض وما فيها من زروع وبحار وجبال وقفار وثمار وحيوان ومعادن، والسموات وما فيها من كواكب مختلفة الأشكال والأحجام، ونفس الإنسان وما فيها من تركيب دقيق تحار فيه عقول فحول العلماء.... في

هذا كله آيات على صنع الله تعالى:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

وجملة القول: فالاستدلال بالآيات العشر من سورة آل عمران يكون في موضع الحديث عن عظمة الله ومعرفته، والزهد في الدنيا، والخشية من عذاب الله، والإقبال على الطاعات.

٢- الإنسان والفطرة:

قال الرازي: الفطرة: الخَلْقَةُ، وفَطَرْتُهَا: أي ابْتَدَأْتُهَا^(٢).

وقال ابن الأثير: كل مولود يولد على الفطرة: والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهييء لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه ما يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد.

وقيل: معناه كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به. فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً، وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره^(٣).

وعن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج

(١) تفسير ابن كثير: (١/٤٢٧). مطبعة البابي الحلبي.

(٢) مختار الصحاح، فعل فطر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، باب الفاء مع الطاء: (٣/٤٥٧).

البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»^(١). ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إذا

شتتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]^(٢)

وقال النووي رحمه الله في تفسير حديث أبو هريرة:

(والأصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام فمن كان أبواه أو أحدهما مسلماً استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى يهودانه وينصرانه و يمجسانه أي يحكم له بحكمهما في الدنيا فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما فإن كانت سبقت له سعادة أسلم وإلا مات على كفره)^(٣).

وليس ما قاله النووي رحمه الله أصح الأقوال لأن المراد من الحديث ليس إجراء الأحكام وإنما الإخبار عن حقيقة الإنسان المجبول عليها، وإنما أصح الأقوال أن الفطرة هي الإسلام بدليل:

١ - أن روايات صحيحة فيها «يولد على الفطرة» أو يولد على الفطرة.

(١) جمعاء: أي مجتمعة الأعضاء سليمة من النقص، وجدعاء: مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ومعناه أن النقص يحدث بعد الولادة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب القدر: (٢٠٨/١٦) من شرح مسلم للنووي، ورواه أحمد في مسنده: (٢٧٥/٢).

(٣) انظر شرح النووي لصحيح مسلم: (٢٠٨/١٦).

٢- الحديث نفسه حيث لم يقل (ويسلمانه) فدل على أن الفطرة هي الإسلام^(١).

وليس في كل ما ذكرناه دليل على (أن السموات والأرض والإنسان والفطرة) هي أصول الإسلام^(٢).

وخلاصة القول : إذا كان مقصدهم من السموات والأرض والفطرة تدبر خلق الله تعالى وبيان عظمته ، فهذا صحيح والآيات على ذلك كثيرة وكثيرة جداً ، أمّا إذا كان مقصدهم وضع أصول جديدة في الإسلام ، فهذا ليس صحيحاً . ومن ينظر إلى رسائلهم بعين فاحصة يعلم بأنهم يهتمون أشدّ الاهتمام بالمنطق والأدلة العقلية أكثر من اهتمامهم بالنصوص الشرعية .

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، جزء (٨).

(٢) علم الأصول هو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية أو هو من نفس تلك القواعد.

عرض أقوالهم في فهم الكتاب والسنة

من أسهل الأمور وأيسرها عند جماعة شكري رمي الناس بالكفر والردة عن الإسلام لمجرد الاختلاف معهم في وجهات النظر. وفي حديثهم عن القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج كثيرة على ذلك نختار منها ما يلي:

(من اعتقد أن كلام الله ورسوله يحتاج إلى شرح فقد كفر لأنه اعتقد بأن كلام البشر أبين وأفصح من كلام الله).

ومن أدلتهم على ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى:

﴿ الرَّكَانِبُ أَحْكَمَتْ أَبْنَهُنَّ ثُمَّ فَضِلَّتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ [هود]

وفي دفاعهم عن وجهه نظرهم قالوا:

(ونقول: هل كلام الله ورسوله ﷺ أبين أم كلام غيرهما؟!)

فإن قالوا كلام الله أبين، وجب عليهم اتباعه وكفونا مؤونة الرد عليهم، وإن قالوا العكس فقد كفروا وصادموا النصوص).

وقالوا في موضع آخر:

(وهل يحتاج الله تبارك وتعالى إلى شارح بغير إذنه أم لا يحتاج؟!).

فإن قالوا: لا يحتاج كفونا مؤونة الرد عليهم، وإن قالوا يحتاج فقد أشركوا بالله العظيم ما لم ينزل به سلطاناً).

ومما تعتقده هذه الجماعة أنه يجب على المجتهد أن يصيب الحق في كل مسألة، ومن اجتهد وأخطأ فقد ضل و أضل الناس.... وتشمل هذه القاعدة عندهم كل قول في كتاب الله جل وعلا، لا فرق في ذلك بين قطعي الدلالة وظنيها، فلا يجوز أن يكون فيها إلا قول واحد. جاء في رسالتهم الحجيات:

(وما دام الخطأ جائزاً في حق المجتهد فيمكنه إذاً أن يضل من يقلده، ويكون له في النهاية مشرعاً من دون الله. تصبح القضية كقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾^(١).

ويستكرون أشد الاستنكار قول العلماء عند شرح حديث من أحاديث الرسول ﷺ: هناك أكثر من قول أو اختلف العلماء في فهم هذا الحديث.

جاء في رسالتهم [إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها] عند ذكرهم للحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً...»:

(كيف اختلفوا في فهم الحديث وغيره، وكيف تكون أمته أمة واحدة على

(١) رسالة الحجيات.

قول واحد إذا؟!.

وهل يكون بذلك هذا الرسول مبيناً بلسان عربي مبين أم مُعمِّياً بلسان أعجمي لعين؟!.

وكلامهم السابق جزء من حملة عنيفة شنَّوها على الإمام النووي رحمه الله لأنه قال: إن العلماء اختلفوا في فهم هذا الحديث وعدُّوه مشكِّلاً^(١).

وقالوا أيضاً:

(فإذا كان العلماء قد اختلفوا هذا الاختلاف، وأشكل عليهم هذا الإشكال حديث رسول الله ﷺ، فكيف بمن دونهم من الناس؟!.

-ومن الذي سيفهم إذا مقصود النبي ﷺ فيما يقوله؟!.

-وكيف تكون أمة أمة واحدة على قول واحد إذن؟!.

ومن أدلتهم على عدم جواز تفسير القرآن نوايا العلماء التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، لذا وجب ترك هذا المصدر الذي يحتمل فيه سوء النية^(٢).

(١) رسالتهم [الحجيات].

(٢) نفس المصدر.

نقد أقوالهم في الكتاب والسنة

وردنا عليهم من الوجوه التالية:

الوجه الأول - ما هو التفسير؟

لم يقل عالم من علماء أهل السنة والجماعة في القديم والحديث أن كتب التفسير أبين وأوضح من كلام الله تعالت أسماؤه وصفاته.

ووضع هذا الافتراض مقابل زعم الجماعة بأن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، أسلوب ممجوج، وهرطقة ممقوتة عرفناها في طريقة عرض هذه الجماعة لأفكارهم وتصوراتهم.

انظر إلى قولهم:

(من اعتقد أن كلام الله ورسوله يحتاج إلى شرح فقد كفر...).

والعمل بهذا القول يعني أن الآتية أسماؤهم قد كفروا:

أ- من الصحابة: الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله ابن الزبير، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعائشة، رضي الله عنهم أجمعين.

ب- من التابعين: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبير، وعكرمة، وطاوس بن

كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي،
ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم، وعلقمة بن قيس، ومسروق بن
الأجدع الهمداني، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي،
والحسن البصري، وقتادة السدوسي.

ج- من أعلام أهل السنة: ابن جرير الطبري، وابن ماجه، وأبو بكر بن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن حيان، وابن مردويه، وابن عطية، والنحاس، وشيخ الإسلام
ابن تيمية، ومحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، وابن الجوزي، وابن كثير.

وإذا كان هؤلاء الأئمة الأعلام قد كفروا فمن باب أولى أن جمهور المسلمين
أشد كفرةً لأنهم يعتمدون عليهم في فهم كتاب الله تعالى. ولو قال قائل: إن
جماعة شكري لا يكفرون الصحابة. قلنا هذا منهم تناقض لأنهم أطلقوا القول،
وعمموا اللفظ، وإذا كان هناك استثناء من القاعدة التي وضعوها فلماذا لا يبينوا
لنا الأدلة العلمية التي اعتمدوا عليها في ذلك؟!.

ومن جهة أخرى فإن مناط الحكم الذي بنوا عليه فتواهم غير صحيح لأن
تفسير القرآن لا يعني أن كلام الله غامض ويحتاج على شرح ليكون مفهوماً عند
الناس، ليس الأمر كذلك، وإنما التفسير:

(علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب
مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها،
ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، وعددها ووعيدها

وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها)^(١).

ولا ينهض بهذه المهمة إلا من ألم بالعلوم التالية:

* علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها.

قال مجاهد:

(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب).

* علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره.

* علم الصرف: وبوساطته تعرف الأبنية والصيغ.

* علوم البلاغة: فعلم المعاني، يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام.

* علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

* الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكم من غيره. ومن فقد هذه الناحية، ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع بالضلال والإضلال.

* علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

(١) الإتيان في علوم القرآن: (٢/١٧٤).

* علم أصول الدين والتوحيد: وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وفي حق أنبيائه، ويتمكن من فهم الآيات المتعلقة بذلك.

* الحديث النبوي: وهو الأصل في تفسير القرآن الكريم، ويقدم على جميع العلوم السابقة.

* علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم، والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم^(١).

ويبدو أن الجماعة يعترفون بعلوم القرآن أو ببعضها على الأقل. انظر إلى قولهم في ردهم على الإمام النووي رحمه الله:

(ولكن النووي ونظائره يقدمون العام على الخاص والمطلق على المقيد، وكل شيء على كل شيء نصراً لمذاهبهم الباطلة واتباعاً لسلفهم من اليهود والنصارى الذين قالوا:

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَاذِبُ إِلَّا نَسِيًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

ولكن التناقض الذي يقع فيه قولهم: إن كل واحد من المسلمين يجب أن يعرف هذه العلوم لأن الاجتهاد عندهم أصل، وقد سبق أن فندنا الرد على مثل هذا الزعم عند حديثنا عن [الاجتهاد والتقليد].

(١) التفسير والمفسرون: (١/ ٢٦٥).

ومن إعجاز القرآن الذي لا يشك به منصف يحترم عقله أن هناك عشرات من الكتب المهمة في التفسير في القديم والحديث، وفي كل كتاب معان جديدة وسليمة في فهم كتاب الله، وهناك مجالات واسعة لاكتشاف معانٍ جديدة أخرى، ولم يقل أحد من هؤلاء العلماء أنه أحاط علماً بمعاني ومدلولات كتاب الله، أو أن تفسيره أكثر وضوحاً وبلاغة من القرآن الكريم.

الوجه الثاني - أوجه تفسير القرآن

لقد فسر الله عز وجل القرآن بالقرآن، وفسر الرسول ﷺ القرآن، كما نبغ عدد من أصحابه رضوان الله عليهم في فهم القرآن وتفسيره. وهذه أدلتنا على ذلك:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدري بمعاني كلامه وأعرف به من غيره^(١).

(١) التفسير و المفسرون للذهبي: (١/٣٧).

أمثلة من تفسير القرآن بالقرآن:

قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ
وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون] (١).

وقوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق]

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾
[المعارج]

وقوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ۖ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمَلُهُ ۖ وَفِصَالُهُ ۖ
ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ﴾ [الأحقاف: ١٥]

(١) كل الآيات جاءت مفسرة للآية الأولى.

وقد استدل علي عليه السلام بهذه الآية، وبقوله تبارك وتعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي صحيح وافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم. وجاء ذلك في امرأة ولدت لسته أشهر وأراد عثمان إقامة حد الرجم عليها، فقال له علي: أما تقرأ القرآن؟ قال بلى، قال

أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمَلُهُ، وَفِصْلُهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]

ويقول: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فلم نجده بقي إلا ستة أشهر.

وقد اكتفينا بهذه الأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن، وهي غيض من فيض،

وقطرات ماء من بحر متلاطم الأمواج.

٢- تفسير القرآن بالسنة:

كان الصحابي إذا أشكلت عليه آية رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه في كتابه حيث قال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾

[النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال ﷺ:

«ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شعبان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»^(١).

• أمثلة من تفسير القرآن بالسنة:

عن عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألا وإن القوة الرمي^(٢).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب» قلت أليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٤).

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة - باب لزوم السنة: (٤/٢٠٠)، طبعة دار إحياء السنة، و الترمذي كتاب العلم - باب ما نهى أن يقال عند حديث النبي: (٥/٣٧)، وقال حديث حسن صحيح، وانظر الرسالة للشافعي: (١٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة - باب فضل الرمي و الحث عليه: (٣/١٥٢٢).

(٣) رواه البخاري [الفتح كتاب الجزية - باب كيف نبذ العهد: (٦/٢٧٩)].

قال: «ليس ذلك الحساب ولكن ذلك العرض»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

(لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا:

يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك»^(٢).

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن شاء مزيداً من الأدلة فليعد إلى كتب السنة فإنه واجد فيها باب خاص بتفسير القرآن الكريم بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وليس كل ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم صحيحاً. لقد نسب القصاص والوعاظ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله، لذلك وجب معرفة الصحيح من الضعيف والموضوع، وقد هيا الله لهذه الأمة من يقوم بهذه المهمة خير قيام، ويدافع عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه الشيخان [مسلم كتاب الجنة- باب إثبات الحساب: (٤/٢٢٠٤)، فتح الباري كتاب العلم- باب من سمع شيئاً فراجع.. (١/١٩٦)].

(٢) رواه الشيخان [مسلم كتاب الإيمان- باب صدق الإيمان وإخلاصه: (١/١١٤)، وفتح الباري كتاب استتابة المرتدين - باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة: (١٢/٢٦٤)].

٣- تفسير الصحابة للقرآن:

كان للصحابة رضوان الله عليهم نصيب وافر في تفسير القرآن الكريم، لأنهم شهدوا التنزيل، وعاشوا مع رسول الله ﷺ، وعرفوا عنه ما لم يعرفه المتأخرون. قال ابن كثير رحمه الله:

(إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علمائهم وكبرائهم)^(١).

وصدق ابن كثير فإن الصحابة رضوان الله عليهم أدرى بالقرآن ومعانيه منا لأنهم أعرف منا بعبادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن، ولأنهم فرسان في ميادين اللغة، ولأنهم يعرفون أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

هذا كله فضلاً عن صحبتهم لرسول الله ﷺ، ومعاينتهم له، وإطلاعهم ومعرفتهم لأقواله وأفعاله وأحواله.

ومن أشهر الذين برزوا في علم التفسير من الصحابة رضوان الله عليهم:

عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، علي بن أبي طالب، أبي بن كعب، أبو بكر

(١) تفسير ابن كثير: (٣/١).

الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، زيد بن ثابت، أبو موسى الأشعري، عبد الله بن الزبير.

حجية تفسير الصحابي:

تفسير الصحابي إذا كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ، أو كان متعلقاً بأسباب النزول، أو لا مجال للاجتهاد فيه، ولا هو منقول عن لسان العرب... إذا كان كذلك فهو حجة إن صح سنده، ولا يجوز رده. وإن كان موقوفاً على الصحابي - أي من قبيل الاجتهاد - ففيه خلاف، وحكمه حكم قول الصحابي^(١).

قال ابن الصلاح في مقدمته:

(ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ ولا مدخل للرأي فيه... فأما تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ﷺ فمعدودة في الموقوفات)^(٢).

وجملة القول: لقد فسر الله جل وعلا القرآن بالقرآن، وفسر ﷺ القرآن بالسنة، فإن قالت جماعة شكري: لقد كان هذا بإذن من الله، قلنا: وكذلك كان تفسير الصحابة للقرآن.

(١) انظر الفصل السابق [أقوال الصحابة و أفعالهم].

(٢) مقدمة ابن الصلاح.

روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة رضي الله عنه أنه قال:

(قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر)^(١).

والشاهد هنا قول علي: (فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن). وليس التفسير أكثر من هذا الفهم المأثور!!

الوجه الثالث - المحكم والمتشابه

مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وبعد أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن الله في كل نازلة حكماً موجوداً بنصٍ أو دلالة، غير أن هذا لا يعني أنه لا يجوز الاختلاف وتعدد الآراء والأقوال في بعض فروع الدين، كما زعمت جماعة شكري، وكما زعم الخوارج والمعتزلة من قبل.

ومن جهة أخرى هناك بعض الأمور في القرآن الكريم استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها، أو تعددت فيها أقوال الصحابة والتابعين، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

(١) صحيح البخاري، باب الجهاد.

مُتَشَبِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ
 وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ
 إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران]

فالمحكم: ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، أو هو ما عرف المراد منه
 إما بالظهور وإما بالتأويل... ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله
 وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده.

والمتشابه: هو ما احتمل تأويله أوجهاً، أو ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة،
 والحروف المقطعة في أوائل السور، وكيفية أسماء الله وصفاته. قال ابن جرير
 الطبري رحمه الله:

(فقد تبين بيان الله جل ذكره:

أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان
 الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره واجبه ونديه وإرشاده
 وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعض
 خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول
 الله ﷺ له تأويله، بنص منه عليه، أو بدلالة قد نصبها، دالة أمته على تأويله.

وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار. وذلك ما فيه من الخبر عن آجال
 حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى ابن

مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه. وبذلك أنزل ربنا محكم كتابه، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف]

وكان نبينا محمد ﷺ إذا ذكر شيئاً من ذلك، لم يدل عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذي روي عنه ﷺ أنه قال لأصحابه إذ ذكر الدجال: «إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدي، فالله خليفتي عليكم»^(١). وما أشبه ذلك من الأخبار-التي يطول باستيعابها الكتاب- الدالة على أنه ﷺ لم يكن عنده علم أوقات شيء منه بمقادير السنين والأيام، وأن الله جل ثناؤه إنما كان عرفه مجيئه بأشراطه، ووقته بأدلته.

وأن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفات الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجمله أحد منهم وذلك كسامع منهم

(١) رواه البخاري في صحيحه، ومسلم - كتاب الفتن وأشرط الساعة: (٤/ ٢٢٥٠) من طريق النواس بن سمعان.

لو سمع تالياً يتلو:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة] لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضر، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعه، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفساداً، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً، فالذي يعلمه ذو اللسان -الذي بلسانه نزل القرآن- من تأويل القرآن، هو ما وصفت: من معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفات الخاصة، دون الواجب من أحكامها و صفاتها وهيأتها التي خصَّ الله بعلمها نبيه ﷺ، فلا يدرك علمه إلا ببيان، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه.

وبمثل ما قلنا - ما يزال الكلام للطبري - من ذلك روي الخبر عن ابن عباس:

(التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره) انتهى كلام الطبري^(١).

وإذن: ليس صحيحاً أن كل آية من كتاب الله لها معنى محدد لا يجوز أن تتعدد فيه الأقوال.

وليس صحيحاً بأن العرب كلهم كانوا قادرين على فهم كتاب الله في مفرداته

(١) تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف: (١/٧٤-٧٦).

وتراكيبه لأنه نزل بلغتهم.

ليس صحيحاً هذا ولا ذاك لأنه قد دلت الأحاديث الصحاح بأن عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما من كبار الصحابة كانوا لا يعلمون معاني كلمات من القرآن [أباً وفطراً]، ودلت الأحاديث الصحاح كذلك على أن بعضهم أخطأ في فهم و تفسير آيات من كتاب الله تعالى، وهم مأجورون باجتهداهم، وجماعة شكري لا يخالفوننا في ذلك كما مر معنا في الفصلين السابقين.

بل وماذا يفعل العلماء المجتهدون إذا عرضت لهم آية ولم يجدوا لها أثراً صحيحاً في تفسيرها أو في سبب نزولها، وكان معناها يحتمل أكثر من وجه من وجوه اللغة العربية؟!.

لا بد من تعدد الأقوال في هذه الآية، ولكنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد.

أمثلة: فسروا ﴿الضَرْطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالقرآن، وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعاني وإن تباينت غير متنافية ولا متناقضة.

وفي تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قيل فيه السابق هو الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد هو الذي يصلي في أثناءه، والظالم هو الذي يصلي بعد فواته، وقيل: السابق من يؤدي الزكاة

المفروضة وحدها، والظالم نفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق. وغير خافٍ أنه لا تنافي بين هذين التفسيرين وإن تغايرا، لأن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات والمنتهاك للحرمان، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق^(١) يتناول من يفعل الواجبات ويتقرب بعد ذلك بزيادة الحسنات.

وفي تفسيره قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر]

روى البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

(كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول)^(٢).

وجملة القول: لم يختلف أصحاب رسول الله ﷺ على المسائل المجمع

(١) التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي: (١/ ٢٨٥)، دار الكتب الحديثة.

(٢) رواه البخاري، باب التفسير: (٨/ ٥١٩)، فتح الباري - الحلبي الباني.

عليها والتي تعد من المعلوم في الدين من بالضرورة، ومما تواترت الأخبار بوجوبها أو تحريمها أو تحليلها، فليس فيهم رضوان الله عليهم من قال بردة أصحاب الذنوب والمعاصي، كما أنه ليس فيهم من ينكر سنة الوتر أو غسل الجمعة ونحو ذلك، وإن كانوا رضوان الله عليهم قد اختلفوا في بعض الفرعيات مما يجوز فيه الاختلاف.

والذين يريدون الحق لا يحمّلون الآيات المتشابهات ما لا تحتمل، ولا يجعلون منها مطية لخدمة بدعهم وأهوائهم، فذلك فعل الذين في قلوبهم زيغ، وأما المؤمنون العلماء فإنهم يلتزمون بالمحكم من الآيات ويؤمنون بالمتشابه أنه من عند الله، ورحم الله عبد الله بن مسعود حيث قال:

(إن الله أنزل القرآن على خمسة أحرف: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال. فأجلّ الحلال، وحرّم الحرام، واعملّ بالمحكوم، وآمن بالمتشابه، واعتبر بالأمثال)^(١).

الوجه الرابع - عبث في كتاب الله

رفضت جماعة شكري ابتداء أقوال الصحابة وأفعالهم وإجماعهم في تفسير كتاب الله سبحانه وتعالى، كما رفضوا أمهات كتب التفسير - على مختلف

(١) هذا الخبر موقوف على ابن مسعود، من كلامه، كما صرح بذلك الطبري هما بقوله: (وروي عن ابن مسعود من قبله). وذكره ابن كثير في الفضائل، انظر حاشية محمود شاكر على تفسير الطبري: (١/٦٩).

أشكالها وألوانها- لأنها عندهم نوع من أنواع اللغو الذي لا فائدة فيه، ثم أخذوا يفسرون القرآن الكريم، وقد سمعنا من عدد من الدعاة إلى الله الذين اختلطوا بهذه الجماعة داخل السجن وخارجه أن شكري قد بدأ بتفسير القرآن الكريم، وقد أملى على تلامذته شيئاً منه، وقتل قبل أن يتم هذا التفسير، وسوف نعرض فيما يلي نماذج منه، ثم نوضح وجهة نظرنا فيه:

١- قالوا في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلُوكَ عَلَيْهِمْ أَيْدِيَنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص ٥٩] (أم القرى في الشرق الأوسط الآن والتي تتطلع إليها أنظار باقي الأمة العربية، ويتوزع منها الكفر إلى أقطار الأمة العربية هي مصر) اه^(١).

وأصح ما قاله المفسرون في تفسير الآية:

أمها: أي مكة المكرمة، وفي قوله ﴿ الْقُرَىٰ ﴾ دليل على أن رسالة محمد ﷺ شاملة لجميع أهل الأرض.

فكيف أصبحت مصر أم القرى بدلاً من مكة المكرمة، وكيف زعموا أن جماعتهم هي المرشحة لإقامة الحجّة على البشرية، وأن شكري هو المكلف بالدور نفسه الذي كان مكلفاً به رسولنا عليه أفضل الصلاة والتسليم كيف حدث

(١) رسالتهم التوسمات، باب كيف نقيم دولة الإسلام.

هذا الفهم كله؟!.

ولا بد أن نعتزف أن شكري لم يقل بأنه نبي آخر الزمان - كما زعمت الصحف المصرية -، ولو قال ذلك لكان لنا منه موقف غير هذا الموقف.

٢- جماعة آخر الزمان:

قالوا في رسالتهم [التوسمات]:

(ونحن جماعة الحق في آخر الزمان تشملنا الآيتان:

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ...﴾ [الجمعة: ٣] و﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

ويستدلون بقولة تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]

على أن جماعتهم هي جماعة آخر الزمان، وأن شكري قائدها ومهديها المنتظر، وكانوا يرون بأن السلطة لن تستطيع قتله، ولن يموت قبل أن ينصر الله به دينه، بل وكان أفراد الجماعة يقولون للآخرين: لو تمكنت السلطة من إعدام شكري لوجب على الجماعة أن تعيد النظر بأصولها وطريقة بنائها.

ومن الجدير بالذكر أن الراضية يستدلون بالآية نفسها ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولُهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴿١٧٨﴾ عَلَىٰ مَهْدِيهِمُ الْمُنْتَظَرِ الْحَسَنِ
العسكري، وجلّ من قائل:

﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة]

وليس في الآيات التي استدلووا بها أي دليل على أنهم جماعة آخر
الزمان، فأما الآية الأولى ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ فقد روى
الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم،
فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا: من
هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفيما سلمان الفارسي،
فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان
عند الثريا لنالته رجال - أو رجل - من هؤلاء».

وقال مجاهد: هم الأعاجم وكل من صدق النبي صلى الله عليه وسلم من غير العرب ^(١).

وأما الآية الثانية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فيقول ابن كثير في

تفسيرها:

(يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: إنه من تولى عن نصره دينه وإقامة

(١) تفسير ابن كثير، وحديث أبي هريرة رواه البخاري، انظر فتح الباري - تفسير سورة الجمعة:

(٨/٦٤٤) ومسلم والترمذي والنسائي.

شريعته، فإن الله سيبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً^(١).

والآية الثالثة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ نزلت بعد صلح الحديبية، وفيها بشارة من الله لنيبه بفتح مكة، وأنه سبحانه وتعالى سينصر رسوله، ويعز دينه، ويظهره على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم.

ولم يرد أثر صحيح عن المعصوم عليه أفضل الصلاة والتسليم في تخصيص هذه الآيات بقوم دون قوم من غير الصحابة رضوان الله عليهم.

٣- القرآن لا يحتاج إلى تفسير:

ومن أدلتهم على كفر من يقول: إن القرآن يحتاج إلى تفسير قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى:

﴿الرَّكَابُ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود]

وكما بينا فيما مضى ليس بين هاتين الآيتين وتفسير القرآن الكريم أي تعارض.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: (١/٥٢٧).

٤- فاسألوا أهل الذكر:

قالوا في تفسير قوله تعالى:

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) ﴿النحل﴾ (١).

(نسأل إن لم نعلم ولا نتقيد بجوابهم، والذكر وارد في النبوات وليس في أحكام الفقه).

والجماعة هنا تجيز للجاهل أن يسأل، ثم لا ترى أن يتقيد بما يقال له!!

ترى أو لو كان الجواب مصحوباً بدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وكيف يرفض الجاهل ما قاله له أهل العلم والفضل ولماذا يسأل؟!.

ولو أنهم قالوا: لا يتقيد بالجواب إذا علم دليلاً مخالفاً، وكان متأكداً من صحته... لو قال ذلك لكان كلامهم صحيحاً، ولكن كيف يكون جاهلاً وكيف يكون متأكداً من معرفة دليل مخالف؟!.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

(١) ونصها كما يلي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)؛ وفي سورة الأنبياء الآية: ٧ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧)

[النساء: ٨٣]^(١) قالوا: (نزلت هذه الآية في الأحداث التي تجري للمسلمين من الأمن والخوف، وليس في أحكام الشريعة) اهـ^(٢).

لا أدري لماذا تجيز هذه الجماعة للجاهل أن يسأل العلماء في النبوات - أي في العقيدة -، ولا تجيز له أن يسأل في الفقه، مع أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟!.

٥ - بدعة إقامة البيّنة:

وفي تفسير قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات]

قالوا:

(في هذه الآية دليل على أن من أسلم عليه أن يقيم البيّنة على إسلامه، ولا يكفي نطقه بالشهادتين بل لا بد من البيعة).

لا ، بل الدليل يخالف ما ذهبوا إليه لأن الآية نزلت في الوليد بن عقبة إذ

(١) ونصها كما يلي: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

(٢) رسالة الحجيات.

أرسله الرسول ﷺ إلى الحارث بن ضرار الخزاعي ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرّق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، ثم تبين لرسول الله ﷺ أن الحارث ما رأى الوليد ولا منع الزكاة^(١) ورغم الخطأ الذي أخطأه الوليد فهو صحابي، كما أن الحارث مسلم صحابي، لم يطلب الرسول ﷺ من أحدهما دليلاً أو بينة على إسلامه.

ومن جهة أخرى فهذه أركان الإيمان كما وردت في حديث جبريل، وليس فيها بيعة أو إقامة بينة، مع أن أهل العلم أجمعوا على صحة الحديث، وقد رواه الشيخان في صحيحيهما، ولو كانت البيعة أو إقامة البينة ركناً في الإيمان لوجب أن يبينه الرسول ﷺ بياناً عاماً قاطعاً للعذر كما بيّن الشهادتين والإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر فكيف ونحن نعلم بالاضطرار من دينه أن الذين دخلوا في دينه أفواجا لم يشترط على أحد منهم في الإيمان البيعة أو إقامة البينة لا مطلقاً ولا مُعَيَّنًا^(٢).

بل وقد تأخر عن مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ بعض أكابر الصحابة، ولم يقل

(١) حديث الوليد بن عقبة أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه. قال السيوطي بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي، وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات. انظر الفتح الرباني: (١٨ / ٢٨٤)، وفتح القدير للشوكاني: (٥ / ٦٢)، وابن كثير: (٤ / ٢١٠).

(٢) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية مع بعض التصرف: (١ / ٢٦) بولاق.

أحد بكفرهم أو ردتهم. وهذا مما يجدر ذكره أن كل من صنف في أصول الدين يذكر الخلافة في آخر بحثه، ولو كانت من أركان الإسلام لجاء ذكرها في أوائل التصنيفات.

ومن جهة ثالثة، فالتفسير اللغوي لهذه الآية لا يتفق مع ما ذهبوا إليه: فتبينوا من التبيين أي التعرف والتفحص، وقرأ حمزة والكسائي [فتثبتوا] من التثبيت أي الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر^(١).

ونحن مأمورون بالتثبت وعدم العجلة في كل أمر من أمور ديننا... فأين من هذا كله زعمهم أن في الآية دليلاً على أن من أسلم عليه أن يقيم البيعة على إسلامه، ولا يكفي نطقه بالشهادتين بل لابد من البيعة؟!.

• خلاصة نقدنا لمنهجهم في التفسير:

من خلال الأمثلة التي سقناها يتبين لنا ما يلي:

١- لا يعتمدون على تفسير القرآن بالقرآن ولا القرآن بالسنة البتة، مع أنهم يقيمون النكير على غيرهم لأنهم يقدمون أقوال شيوخهم على الكتاب والسنة، ويعدون مثل هذا الأمر كفراً وردة عن الإسلام.

(١) فتح القدير للشوكاني: (٦٠/٥).

٢- لا يهتمون بعلوم القرآن مع أنهم يهاجمون أئمة أهل السنة لأنهم - على حد زعمهم - يقدمون العام على الخاص والمطلق على المقيد.

٣- كيف تكون أقوال الصحابة بل وإجماعهم في تفسير القرآن الكريم حراماً، وتكون أقوال شكري في المسألة نفسها حلالاً، مع أنه لم يعتمد فيما فسر به القرآن على أدلة صحيحة من الكتاب والسنة، وإنما اعتمد على رأيه وهوواه. قال رسول الله ﷺ:

«من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم)^(٢).

٤- قلد أصحاب شكري في تفسير القرآن غيرهم من أصحاب البدع والأهواء، كالمعتزلة والرافضة.

قلدوا أهل الاعتزال في الأمور التالية:

- في الاعتماد على العقل والمنطق ولسان العرب.

- في قولهم: نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكل من ينطق العربية يستطيع فهم القرآن وتدبره، ومن قال غير ذلك فقد ضل وأضل.

(١) رواه الترمذي وقال: (هذا حديث حسن صحيح): (١٤٦/٨) - طبعة حمص.

(٢) تفسير القرطبي: (٧٨/١) - الأثر رقم (٧٩).

- في قولهم: لا يجوز تعدد الأقوال في تفسير جميع آيات القرآن وحكموا على جميع محاولاتهم بأنها مرادة الله تعالى.

- وقلدوا أهل الرفض في حديثهم عن المهدي المنتظر، وفي تفسير قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح]

- وقلد أتباع شكري شيخهم في كل هذيانه الذي زعمه تفسيراً لكتاب الله تعالى، ونكرر قولنا:

لا ندري كيف يكون تقليد شكري للمعتزلة والرافضة^(١) مشروعاً، ويكون أتباع أهل السنة لأصول عقيدتهم تقليداً وكفراً؟!

ولا ندري أيضاً كيف يكون تقليد أعضاء الجماعة لزعيمها مشروعاً وصحيحاً، ويكون أتباعنا لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ورجال خير القرون غير مشروع وردة عن الإسلام؟!

(١) وإن لم يعترف بتقليده لهم.

السنة النبوية

إن كل ما قلناه عن أسلوب جماعة شكري في فهم القرآن الكريم [من تطاولٍ بالباطل على رجال خير القرون، وتأويلٍ فاسد، وكيٍّ لأعناق النصوص لتوافق بدعهم وأهواءهم] ينسحب على السنة النبوية، وسوف نضيف إلى ذلك ما يلي:

الوجه الخامس - سند الحديث

تؤكد هذه الجماعة أن الحديث النبوي من أهم مصادرها في التلقي، وهو عندهم حجة قطعية لا يجوز أن يقدم عليه أقوال الرجال وأفعالهم، والذي يظهر من رسائلهم أنهم يعتمدون على الأحاديث التي رواها أهل السنة والجماعة وثبتت عندهم، وهذا منهم تناقض بين واضطراب واضح لأن أعلام أهل الحديث كفار مرتدون عند جماعة شكري لأنهم يعتقدون بأن الكفر والظلم والنفاق والفسق نوعان: أصغر ويعد من قبيل المعاصي، وأكبر يخرج من الملة.

ومن شتائمهم الكثيرة لرجال خير القرون نختار ما يلي:

- في رسالتهم [إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها] ذكروا كلاماً للإمام الزهري رحمه الله حول عدم التكفير بالذنوب والمعاصي ثم قالوا في تعقيب لهم عليه:

(كل هذه الأقوال باطلة سخيفة).

- ثم نقلوا كلاماً شبيهاً بكلام الزهري قاله: النووي والترمذي وابن القيم وسعيد

ابن جبير وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والقاضي عياض، وقالوا في تعقيب لهم على أقوال هؤلاء الأئمة رحمهم الله: (ونحن لسنا بصدد الرد على أكاذيبهم)، (وهل يكون بذلك هذا الرسول مبيناً بلسان عربي مبين أم مُعمياً بلسان أعجمي لعين).

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف]

(واتبعوا في ذلك سلفهم من كذبة اليهود والنصارى وحذوا حذوهم حين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِ مَا مَعْدُودَةٌ﴾ [البقرة: ٨٠].

(وكذلك استنوا بسنتهم - أي سنة اليهود والنصارى - حين قالوا: ﴿نَحْنُ

أَبْنَوْا لِلَّهِ وَأَحْبَبْنَاهُ﴾ [المائدة: ١٨])

ومثل هذه الاتهامات ليست قاصرة على من ذكرنا من العلماء، وإنما تشمل أعلام خير القرون من غير الصحابة^(١) ومن سار على هديهم وتمسك بمنهجهم الذي كان عليه سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم وأصحابه الأبرار الطاهرين.

ونذكر فيما يلي بعض من تشملهم اتهامات جماعة شكري: الإمام مالك، أبو حنيفة، الشافعي، أحمد بن حنبل، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، البخاري، مسلم،

(١) لا ندرى لماذا استنوا الصحابة من القاعدة التي وضعوها في تكفير من لم يكفر أصحاب الذنوب والمعاصي من المسلمين .

أبو داود، الطبري، الزهري، سعيد بن جبير... وغيرهم كثير جداً.

والسؤال الذي يفرض نفسه:

كيف يكون هؤلاء الأعلام خَلْفاً لليهود والنصارى في كفرهم وكذبهم، وكيف يقبلون رواياتهم في تصحيح أحاديث رسول الله ﷺ؟!.

فإن قال قائل: مثلهم في هذه المسألة كمثل أهل السنة والجماعة فقد قبلوا روايات أهل البدع.

قلنا: الذين أجازوا قبول رواية أهل البدع اشترطوا ما يلي:

- ١- أن لا تكون البدعة مكفرة، فإن كان ممن يكفر ببدعته، فلا إشكال في رد روايته.
- ٢- أن لا يكون كاذباً، ولا خلاف بين علماء الأصول في رد رواية الكذاب.
- ٣- أن لا يكون داعياً إلى بدعته^(١).
- ٤- أن لا يكون الحديث الذي يرويه فيه تأييد لبدعته^(٢).

وكبار المحدثين من أهل السنة والجماعة في نظر جماعة شكري كذابون مرتدون عن الإسلام، وليس هناك من يقبل رواية هذا الصنف من الناس على الإطلاق، فكيف اعتمد جماعة شكري على رواياتهم؟!.

لم نجد لهذه القضية الشائكة جواباً في رسائل جماعة شكري، ولم ينقل عن

(١) انظر الباعث الحثيث (٩٩)، مكتبة محمد علي صبيح، وغيره من كتب علوم الحديث .

(٢) انظر علوم الحديث لابن الصلاح، النوع الثالث والعشرون .

أحد من قادتهم حلاً لهذه الورطة التي أوقعوا أنفسهم بها!!.

ومما يزيد الطين بلة أنهم لم ينكروا علوم الحديث التي أجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولم يضعوا أصولاً في هذا الفن كتلك الأصول التي وضعوها في العقيدة وأسموها [الحجيات].

بل وفي رسائلهم تراهم يستدلون بالأحاديث، ويقولون هذا الحديث صحيح رواه مسلم، وذلك صحيح رواه البخاري... وهؤلاء الذين يأخذون عنهم دينهم مرتدون عن الإسلام، ولا يختلفون في عقيدتهم وأخلاقهم عن اليهود والنصارى، ولا يصدقون في أقوالهم وأعمالهم على حد زعمهم.

غريب أمر هذه الجماعة... حقاً إنهم لا يحترمون عقولهم، ولا يخجلون من وقوعهم في تناقضات لا أول لها ولا آخر، ويزعمون بعد ذلك كله أنهم أهل الحق. ألا ما أبعدهم عن الحق، وما أبعد الحق عنهم.

الوجه السادس - متن الحديث

قالوا في مناقشة لهم لرواية ابن عباس - كفر دون كفر - ما خلاصته:

(إن ابن عباس ليس معصوماً، ولسنا بهذا الكلام العام نقصد إلى تكذيب الروايات التي رويت عن ابن عباس جملة من حيث الخبر... وقصارى ما قلناه في ذلك هو وضع احتمال الكذب عليه وهذا الاحتمال لا يقدر في صحة الأخبار التي تصح سنداً... ولكننا نقصد يقيناً أن بيان بطلان معناه بالمعنى الذي قصدوه.

والمعلوم في علم الحديث - حتى لو كان حديثاً - أن اضطراب صيغة الرواية يقدح في صحتها أو صحة بعضها إذا تعارض بعضها مع الشرع^(١).

ولنا على كلامهم الملحوظات التالية:

١- إن قولهم [وقصارى ما قلناه في ذلك هو وضع احتمال الكذب عليه...] لا يساوي في علم الحديث شيئاً، وكان عليهم أن يبينوا بطريقة علمية صحة الرواية من ضعفها بدلاً من هذا اللغو الذي ذهبوا إليه.

ومن الجدير بالذكر أن قول ابن عباس رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح^(٢).

وبعد ثبوت سند الرواية لا يصح وضع احتمالات الكذب على ابن عباس ولا يصح قولهم: [ولسنا بهذا الكلام نقصد تكذيب الروايات التي رويت عن ابن عباس جملة من حديث الخبر].

وهذه أول مرة نسمع من أناس يدعون أنهم ينتمون لأهل السنة يتحدثون عن قبول الروايات أو ردها جملة، وكأن القوم يتحدثون عن بيع أو شراء صفقات من الخضار أو المواد الغذائية.

(١) جاء هذا القول في رسالة لهم أسموها [إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها].

(٢) المستدرک: (٢/٣١٣)، وحاشية شاكر على الطبري: (١٠/٣٥٦).

٢- قالوا: [إن ابن عباس ليس معصوماً]، وليس هناك عالم يعتد به من أهل السنة يقول: إن ابن عباس معصوم، والأمر لا يناقش بهذه الصيغة وإنما على الشكل التالي:

- هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة؟!.

- هل هذا القول موقوف على ابن عباس أم مرفوع إلى الرسول ﷺ؟!.

- إذا كان موقوفاً على ابن عباس - وهو كذلك - فما حكم قول الصحابي إذا كان يعارضه قول صحابي آخر؟!.

٣- قالوا: [والمعلوم في علوم الحديث - حتى لو كان حديثاً- أن اضطراب

صيغة الرواية يقدح في صحتها أو صحة بعضها إذا تعارض بعضها مع الشرع].

والاضطراب الذي تعنيه هذه الجماعة في هذه الرواية يتضح من قول ابن عباس: كفر دون كفر، في حين ترى جماعة شكري أن الكفر واحد وليس كفرين: أصغر وأكبر، أو كفر يخرج من الملة وكفر لا يخرج.

وهذا القول يخالف عقيدتهم في تكفير أصحاب الذنوب والمعاصي، ولقد لجؤوا إلى طريقة ملتوية في ردها، ومما زعموه أن صيغة الرواية مضطربة، والاضطراب في عقولهم وليس في الرواية، بل وليس في الرواية والحمد لله ما يعارض عقيدة أهل السنة والجماعة.

أوامر عسكرية أم أدلة شرعية!؟

سنذكر فيما يلي جملة من الأحاديث النبوية، مع تعليقات جماعة شكري عليها، ونكتفي بالعرض لأنه يغني عن كل تعليق:

* «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه».

تعليقهم: فإذا لم يحب فهو كافر!!.

* «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

تعليقهم: من لا يكرم ضيفه كافر وليس مؤمناً!!.

* «الدين النصيحة....».

تعليقهم: من يقعد عن النصح في موقف من المواقف فهو كافر.

* «ثلاث من كنَّ فيه ذاق حلاوة الإيمان».

تعليقهم: من فقد هذه الصفات أو بعضها فهو كافر.

الفصل الخامس

بدعة تكفير مرتكبي الكبائر

التحذير من المعاصي

حب الله سبحانه وتعالى إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وأمرنا بطاعته وتقواه في السر والعلن، وحذرنا جلّ وعلا من الذنوب والمعاصي لأنهما تميّت القلوب، وتورث الذل والندامة. قال تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال:

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات]

كفى المذنبين العصاة ما توعدهم به ربهم على لسان خاتم أنبيائه ﷺ.

ومن ذلك قوله: «لا يدخل الجنة قتات» أي نمام^(١).

وقوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم».

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة: (٤٧٢/١٠) - الطبعة السلفية،

وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النميمة: (١/١٠١-١٠٥)، دار

إحياء التراث.

قال أبو ذر: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل إزره، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١).

وقوله:

«قال الله عز وجل: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

وويل لمن كان الله - تعالت أسماؤه وصفاته - خصمه يوم القيامة.

ويل له: إذا لم يسارع إلى التوبة والاستغفار. وقد خاب وخسر من لا يكلمه الله تعالى ولا ينظر إليه ولا يزيه في يوم كآلف سنة مما تعدون.

وكيف لا يقلع المسلم عن الذنوب والمعاصي، وهو يقرأ تهديد الله ووعيده... بل كيف يتستر الإنسان بمعصيته، ويغلق الباب على نفسه، ويتوارى عن أعين الناس، ويخجل أشد الخجل إذا كشف أمره أو رآه أحد الناس... كيف يفعل هذا من يعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه ويسمعه ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟!.

كيف يفعل هذا من يعلم أن ملائكة الرحمن ترافقه في جلّه وترحاله، وتكتب كل عمل يعمله حسناً كان أو سيئاً.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: عن أبي ذر في كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار: (١/١٠٢-١٠٦).

قال تعالى:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [١٨] [ق]

ورحم الله من قال:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يحب مطيع
حقاً إن الإنسان ليطغى أو لا يعلم أن الذنب إذا صغر في عينه كبر عند الله
تعالى. قال أحد الصالحين:
(لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت).

وقال ابن المعتز:

خل الذنوب صغیرها وكبیرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغیرة إن الجبال من الحصا
نعم: إن الجبال من الحصا، ومعظم النار من مستصغر الشرر، والإصرار على
المعصية - مهما كانت صغيرة - ظلم للنفس، واستسلام للهوى، وانقياد لأوامر
الشیطان.

قال عليه السلام: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير^(١) عوداً عوداً فأی قلبٍ

(١) أي تلتصق بالقلوب كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه.

أشربها^(١) نكت فيه نكتة سوداء^(٢) وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى
تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات
والأرض، والآخر أسود مُرباداً^(٣) كالكوز مجحياً^(٤) لا يعرف معروفاً ولا ينكر
منكراً إلا ما أُشرب من هواه^(٥).

وعنه عَلَيْهِ السَّلَام قال:

«إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع صقل قلبه، وإن
عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وفي رواية حتى تغلف قلبه فذلك الرّان الذي قال الله
تعالى فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٦).

(١) أشربها: أي تمكنت منه وحلت محل الشراب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ
أَلْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حب العجل، ومنه قولهم بياض مشرب بحمرة أي
خالطته مخالطة لا انفكاك لها.

(٢) وقوله: [نكت فيه نكتة سوداء] أي نقط فيه نقطة سوداء.

(٣) وقوله: [أسود مرباداً] يعني شدة البياض في سواد، وقيل أي لونه بين السواد والغبرة. وقوله:
[ردها] أي لم يقبلها، [معاني الكلمات عن حاشية صحيح مسلم لفرّاد عبد الباقي وعن تنبيه
الغافلين لابن النحاس، (٩٢)].

(٤) وقوله: [مجحياً] يعني مايلأ، وقال بعض رواة يعني منكوساً.

(٥) رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان: (١/١٢٨ ح ١٤٤).

(٦) أخرجه الترمذي: (٥/٤٣٤)، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه: (٢/١٤١٨)، وحسنه
الألباني: [الجامع الصحيح: ١٦٦٦].

ومن هذه الآيات و الأحاديث التي ذكرناها - وما لم نذكره كثير جداً - يتبين لنا فساد قول المرجئة، ومن نحا نحوهم، الذين يعتقدون بأنه لا يضر مع الإيمان معصية. وكيف يكون الأمر كذلك والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم كانوا يرجون رحمة الله تعالى ويخشونه أشد الخشية، ويخافون من ناره ويطمعون بجنته. قال تعالى:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾
[الأعراف]

[خوفاً وطمعاً]: أي خوفاً من ناره وطمعاً بجنته.

وقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]

وأي نحن بل أين فلول المرجئة من السابقين الأولين الذين كانوا يخافون من نار الله ويطمعون بجنته. غير أنني ما كتبت هذا البحث للرد على المرجئة، وإنما للرد على أصحاب شكري - ومن سبقهم من الخوارج - الذين يقولون: إن مرتكبي الكبائر كفار، وإن صاموا وصلوا وزعموا بأنهم مسلمون. وسوف نبسط أقوالهم، ثم نرد عليها، ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق.

اعتمادهم على عمومات النصوص

يعتمد جماعة شكري في عرض أدلتهم وتسفيه أقوال غيرهم على عمومات النصوص، كما يعتمدون على المنطق والمغالطات وتحريف الكلم عن مواضعه وسنعرض فيما يلي بعضاً من أقوالهم:

جاء في رسالتهم [إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها]:

(إن لفظة الكفر ما جاءت في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وهي تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواع منه لكل نوع منها اسم علم خاص به كالفسق والظلم والخبث... فحينما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ﴾ [الحجرات].

فإن جميع الثلاثة كفر من حيث الحكم العام مختلفين [كذا] من حيث أسماء الأعلام ومداخل الكفر تماماً كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ...﴾ [الأحزاب: ٣٥].

هي كلها أسماء أعلام مختلفة تدل على حكم واحد ومعنى واحد وهم المؤمنون [كذا] ولكن اختلف اسم العلم باختلاف مدخل الإيمان والغالب على الإنسان).

- ومن أدلتهم على أن المعاصي كلها كفر وشرك قوله تعالى:

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ .. ﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠].

﴿ إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠].

﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣].

﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ، يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤].

﴿ بَكَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

وقال ﷺ:

«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، فقالوا ومن أبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»

- ومن أدلتهم على التكفير بالمعصية أيضاً قوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) [الحجرات].

وقوله تعالى:

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤) [البقرة].

ثم يقولون لك:

احذف المكرر من الآيتين ينتج المطلوب ويصبح من لم يتب كافراً.

- ومن الأمثلة العقلية التي يستدلون بها على ردة العصاة من المسلمين ما

يلي:

مسافر غادر الإسكندرية متوجهاً إلى القاهرة، وقطع جميع مراحل الطريق إلا مرحلة توقف عندها، وليس مهماً ذكر سبب التوقف، وإنما المهم أنه توقف عند هذه المرحلة التي قد لا تبعد عن القاهرة إلا بضعة أميال.

والجماعة تعني بالقاهرة الحد الأدنى من الإسلام . عدم وصوله إليها يعني أنه لم يحصل على الحد الأدنى من الإسلام.

• ونقول في ردنا على هذه المعلومات ما يلي:

١- ليس صحيحاً أن لفظة الكفر لم تجئ في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وسوف نرد على هذه المسألة في موضعها المناسب من هذا

البحث. كما أنه ليس صحيحاً أن لفظة كفر تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواع، ولكل نوع اسم علم خاص به كالفسق والظلم والخبث.

وليس صحيحاً استدلالهم على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فالكفر لغة غير الفسوق وكذلك العصيان. والعطف هنا يقتضي التغاير وليس المرادفة، وليس كل مكروه كفراً، وهم يتفقون معنا في هذه المسألة والحمد لله. انظر إلى قولهم في إجمال تأويلاتهم:

(أما سائر الذنوب فقد تواتر فعل المسلمين لها في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده مع عدم انتفاء اسم المسلمين عنهم بعد استسلامهم لحكم الله فيهم من عقوبة أو حدّ إلا رجلاً أصر على ذنبه وأبى أن ينتهي عنه، كمانعي الزكاة الذين قاتلوا عليها - على منعها - في أمر جزم فيه بالوجوب وأنه فرض في دين الله، أو حرام منعه أو فعله في دين الله).

والذنوب التي أشاروا إليها مكروهة عندنا وعندهم ومع ذلك اعترفوا أنها ليست كفراً ولا تخرج عن الملة، أما التفريق بين الإصرار وغيره من المعاصي فسوف نتحدث عنه في موضع غير هذا الموضع من كتابنا هذا إن شاء الله.

٢- أما مثال المسافر من الإسكندرية إلى القاهرة، فلنفترض - إن كان لا بد من الرد عليهم - أن القاهرة تعني الإيمان، وبدء المسافر بالرحلة يعني الإسلام،

والمرء يصبح مسلماً بقوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقطع عدة مراحل يعني أن المسافر تزود بعدة شعب من الإيمان، ووقوفه عند المرحلة الأخيرة يعني أن إيمانه نقص قليلاً، ومن الأمور التي يؤكد بها أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، ونقصان الإيمان لا يعني الردة... وبهذا القول - الذي لا يتعارض مع الشرع والعقل - يكون المثل حجة عليهم وليس لهم.

وهناك جواب عقلي آخر نرد به عليهم:

نعكس المثل الذي ضربوه ونفترض أن القاهرة هي الكفر، وأن المسافر قطع ١٩٩ كيلو متراً وبقي عليه كيلو متر واحد، وحسب منطقهم فالمسافر لم يصل القاهرة وهذا يعني أنه ليس كافراً.

٣- أما النصوص التي استدلوا بها على كفر أصحاب المعاصي فتقابلها نصوص أخرى لا بد من أخذها بعين الاعتبار.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣].

وقوله:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقوله:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]

وقوله:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]

وقوله:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

فإن قالوا هذه النصوص تفيد الترغيب، قلنا: والنصوص الأولى تفيد التهيب.

وإن قالوا: إن أية معصية تعني الردة عن الإسلام والخلود في نار جهنم، قلنا: وبنفس المنطق يمكن لقائل أن يقول: إن أية طاعة تعني الإيمان والخلود في جنات الخلد^(١).

وإذا كانت نصوص الطاعة تعني الترغيب فبماذا يفسرون قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

بل بماذا يفسرون قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

(١) القول الأول قاله الخوارج، والآخر المرجئة، وكلا القولين مرفوض عند أهل السنة والجماعة.

«... يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»^(١).

مما لا شك فيه أن الآية السابقة وهذا الحديث ينسفان كل ما استدلوا به من عمومات النصوص. حولوا آيات الله إلى لوحة شطرنج يتلاعبون بها كما يحلو لهم. ففي قوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات].

وقوله:

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة].

قالوا: احذفوا المكرر ينتج المطلوب ويصبح من لم يتب كافراً!!.

احذفوا المكرر!! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم. هل أصبحت آيات الله مسائل حسابية ومعادلات رياضية؟!.

ومثل هذا المنهج يقود إلى نتائج في غاية الخطورة. ففي قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٥] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ [المؤمنون]،

(١) رواه الترمذي عن أنس في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة (٥/٥٤٨) (ح ٣٥٤٠) وحسنه

الألباني. انظر السلسلة الصحيحة رقم [١٢٧].

وإذا فسرنا هذه الآية وفق منهج جماعة شكري وصلنا إلى المعنى الآتي:

لا يكون متعدياً لحدود الله تعالى إلا الزناة لقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٧) [المؤمنون].

وهذا القول مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة، ويتعارض مع فقه اللغة العربية ومعانيها، وليس له ضابط يضبطه أو قواعد تحدده.

و نتساءل أمام هذا العبث في كتاب الله الكريم: أين سبب نزول كل آية من الآيات التي استدلووا بها؟!.

وأين الأحاديث الصحيحة التي وردت في هذا الشأن، لاسيما وهم يقولون إنهم يلتزمون بالسنة؟!.

وأين الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والخاص والعام؟!.

لقد شتموا الإمام النووي رحمه الله شتماً مقدعاً لأنهم زعموا بأنه لا يفرق بين المطلق والمقيد، والخاص والعام فكيف يرون القشة في عين غيرهم ولا يرون الجذع في عيونهم، وحاشا لله أن يكون الإمام النووي كما زعموا وافتروا.

وجملة القول: فإن الاعتماد على عمومات النصوص منهج خاطئ وخطير، وتلاعب في دين الله، وقد رفضه أئمة الإسلام في القديم والحديث.

الكفر والظلم والنفاق

قالت جماعة شكري:

(لم يحدث أن فرقت الشريعة بين الكفر العملي والكفر القلبي، ولا أن جاء نص واحد يدل أو يشير أدنى إشارة إلى أن الذين كفروا بسلوكهم غير الذين كفروا بقلوبهم واعتقادهم، بل كل النصوص تدل على أن عصيان الله عملاً والكفر به سلوكاً وواقعاً هو بمفرده سبب العذاب والخلود في النار والحرمان من الجنة - نعوذ بالله من ذلك - بل أكثر من ذلك).

أما شرط الاستحلال والجحود القلبي أو اللساني فشرط زائد متكلف ما اشترطه عقل ولا كتاب ولا سنة ولا يجيزه التعامل الواقعي الملموس بين الناس. فإن العقل والواقع والشرع كل هؤلاء لا يفرق من حيث النتيجة الحقيقية بين من جحد حقاً لأحد من الناس بلسانه، وبين من أمر به ثم اشتركا جميعاً في منعه وجحده بالسلوك والجارحة بل لعل المقر بلسانه الجاحد بسلوكه أكبر جرماً عند الناس وأغيب لهم من الآخر).

وعن كفر النعمة قالوا:

(ونجزم ببطلان ما ادعوه^(١) زعماء و تخرصاً وقولاً على الله بغير علم من أنها - أي كفر النعمة - كفر لا ينقل عن الملة ونتحداهم أن يأتوا بنص من كتاب الله يذكر

(١) أي أهل السنة والجماعة.

فيه أن كفر الإحسان أو كفر النعمة لا ينقل عن الملة لا تصريحاً ولا ترجيحاً ولا إشارة).

وفي موضع آخر في رسالتهم قالوا:

(وقد جاءت النصوص متواترة يصدق بعضها بعضاً قرآناً وسنة على أن سبب كفر الكافرين ودخولهم النار وخلودهم فيها وحرمانهم من الجنة هو ما كانوا يعملون وما كانوا يكسبون وما كانوا يقتربون وما كانوا يجتريحون عامة ومفصلة في مثل قوله تعالى:

• ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾
[النساء: ٩٣].

وقوله ﷺ:

- «لا يدخل الجنة نمام. لا يدخل الجنة قتات».
- «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام».
- «أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم».
- «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن بالنسب، والنياحة على الميت».
- «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».
- «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن».
- «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

- «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه».
- «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».
- «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» انتهى كلامهم.

ومما يجدر ذكره أن كل ما قالوه عن الكفر يشمل الظلم والفسوق والعصيان والنفاق لأنها - كما زعموا - أسماء أعلام مختلفة تدل على حكم واحد ومعنى واحد.

ولبيان زيف ما ادعوا، وبطلان ما زعموه نسوق الأدلة التالية:

١ - ظلم دون ظلم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «إنه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١).

ومهم جداً أن نعود إلى السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآية:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر الفتح الرباني: (١/ ٩٤) [الباب الحلبى]، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه - ج (١/ ١١٤) ح (١٢٤).

إِشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ
 أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
 سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
 إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام]

وإذا: فإبراهيم عليه السلام كان يحاور قومه، وقد كانوا كفاراً، ورحم الله
 البخاري فقد ذكر هذا الحديث تحت عنوان:

[ظلم دون ظلم].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتحه:

(ووجه الدلالة منه أن الصحابة فهموا من قوله ﴿يُظْلَمُ﴾ عموم أنواع
 المعاصي، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك، وإنما بين لهم أن المراد أعظم
 أنواع الظلم وهو الشرك، فدل على أن الظلم مراتب متفاوتة، ومناسبة
 إيراد هذا عقب ما تقدم من أن المعاصي غير الشرك لا ينسب صاحبها
 إلى الكفر المخرج عن الملة) (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعليق له على حديث ابن مسعود:

(والذي شق ذلك عليهم ظنوا: أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه،

(١) فتح الباري: (١/٩٥).

وأنة لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ؛ فشق ذلك عليهم،
فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى
وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ؛
ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء... وهذا لا ينفي أن
يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب^(١) .

ومن الآيات التي ورد فيها الظلم بمعنى المعصية قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۗ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ
بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ
وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء].

وقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

(١) كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية - الإيمان - (ص ٦٦)، المكتب الإسلامي.

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران].

هذا ولو اكتفينا بحديث ابن مسعود الذي رواه الشيخان في صحيحيهما لكفانا ذلك رداً على تحديهم، ولكننا نمضي في سرد مزيد من الأدلة ليتعظ بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٢- كفر دون كفر: عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ:

«أرئت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»^(١).

و العشير: الزوج.

وأهل السنة والجماعة مجمعون على أن كفر العشير وكفر الإحسان لا يخرجان من الملة، وجواب رسول الله ﷺ واضح بأن هذا الكفر ليس كفراً بالله.

وفي تفسير قوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة].

(١) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، كتاب الإيمان، باب كفران العشير وكفر دون كفر: (٩٠/١).

قال ابن عباس:

(ليس بكفر ينقل عن الملة)، وقال عطاء بن أبي رباح: (كفر دون كفر)^(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: [ليس بكفر ينقل عن الملة]، يردّ على الخوارج - سلف جماعة شكري - الذين يكفّرون أصحاب الذنوب والمعاصي.

ومما يجدر ذكره أن كلمة [كفار] وردت في القرآن الكريم بمعنى الزراع، انظر إلى قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] وقد سُموا بذلك لأنهم يكفرون الحب بالتراب أي يغطونه ويسترونه، ولا أدري ماذا يقول أصحاب شكري في تفسير هذه الآية؟!.

٣- نفاق دون نفاق: نفاق المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان اعتقاداً، والآيات القرآنية في سورة البقرة، وبراءة وغيرهما من السور القرآنية تشهد على ذلك، وتؤكد بأنهم خالدون مخلّدون في نار جهنم، بل هم في الدرك الأسفل منها لأن كفرهم أشد أنواع الكفر.

ومع ذلك فلقد كان النفاق العملي كيسير الرياء وغيره موجوداً على عهد

(١) رواه الحاكم في مستدرکه: (٣٥٩/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

رسول الله ﷺ، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

أ- كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كاتماً لأسرار رسول الله ﷺ وكان الصحابي الوحيد الذي يعلم أمور المنافقين، وأسماء الذين يعرفهم رسول الله ﷺ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا حضرت جنازة لا يتقدمون للصلاة عليها إلا إذا تقدم حذيفة، وكانوا يخشون على أنفسهم من النفاق. قال ابن أبي مليكة:

(أدرت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل)^(١).

ب- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن ناساً قالوا له:

إننا ندخل على سلطاننا فنقول خلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال ابن عمر - رضي الله عنهما - : (كنا نعدّها نفاقاً)^(٢).

(١) فتح الباري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله: (١١٨/١) - البايي الحلبي -.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام - باب ما يكره من ثناء السلطان - : (١٤٥/١٣) [ط. البهية المصرية]، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن - باب كف اللسان في الفتنة: (١٣١٥/٢)، وقال في الزوائد (للבוصري): إسناده صحيح. رجاله ثقات. ولفظه:

(...إننا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره. قال: كنا نعد ذلك على عهد رسول الله ﷺ النفاق)، وأخرجه أحمد: (١٠٥/٢) بلفظ مختلف عن لفظ ابن ماجه وعن إسناده، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٥٣٧٣). وانظر المسند: (٢٢٧/٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

لم يكن المتهمون بالنفاق في عهد رسول الله ﷺ نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق.

والأمثلة على ذلك ما حصل لسعد^(١) بن عباد لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك. فقال لسعد بن معاذ^(٢): كذبت والله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة^(٣): وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته

(١) سعد بن عباد بن دليم بن الحارثة الأنصاري سيد الخزرج يكنى أبا ثابت وأبا قيس شهد العقبة، وكان أحد النقباء فيها، واختلف في شهوده بدرأ، كان يقال له الكامل، مات بالشام بحوران سنة ١٥ هـ [عن الإصابة: (٣٠ / ٢)].

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس وكنيته أبو عمر، شهد بدرأ. قال فيه النبي ﷺ: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ. أسلم على يد مصعب بن عمير، مات سنة خمسين [عن الإصابة: (٣٧ / ٢)].

(٣) ما حدث بين سعد بن معاذ وسعد بن عباد وأسيد بن الحضير حسب رواية البخاري: قالت عائشة: فقام سعد بن معاذ فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بنت عمه من فخذة وهو سعد بن عباد وهو سيد الخزرج - قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد [يعني ابن معاذ]: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير [وهو ابن عم سعد بن معاذ] فقال لسعد بن عباد: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل في المنافقين... إلخ).

أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب حديث الإفك: (٤٣٣ / ٧) [فتح الباري - السلفية]، =

الحمية. وقول أسيد^(١) بن حضير لسعد بن عباد؛ كذبت لعمر الله! لنقتلنه؛ إنما أنت منافق، تجادل عن المنافقين؛ هو من هذا الباب.

وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم^(٢): منافق، وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين) انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣).

وإنه مما لا شك فيه أن السابقين الأولين من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يخشون من النفاق العملي كالرياء وغيره... وهكذا شأن أصحاب النفوس اللوامة الذين برّاهم الله من الكبر والغرور وتقديس الذات، وشرفهم جلّ وعلا بصحبة سيد ولد آدم ﷺ.

ولا يجوز لمسلم جادّ منصف أن يظن بمثل هؤلاء الرجال أنهم كانوا يخشون

=وأخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك (ح/٤/٢١٣٤ ح [٢٧٧٠]).

(١) أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس يكنى أبا يحيى، كان أبوه رئيس الأوس يوم بعث، وكان أسيد من السابقين إلى الإسلام وأحد النقباء ليلة العقبة أسلم على يد مصعب بن عمير، ولم يشهد بدرًا توفي سنة ٢٠ هـ [عن الإصابة: (١/٤٩)].

(٢) مالك بن الدخشم: مختلف في نسبه، شهد بدرًا روى ابن منده بإسناده: أنه هو الذي أسر سهيل بن عمرو يومئذ، وأرسله النبي ﷺ مع معن بن عدي فأحرقا مسجد الضرار [عن الإصابة: (٣/٣٤٣)]. وفي الاستيعاب: كان يتهم بالنفاق. قال أبو عمر: ولا يصح عنه النفاق، وقد ظهر من

حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه والله أعلم [٣/٣٧٣ حاشية الاستيعاب على الإصابة].

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الرياض: (٧/٥٢٣) بتصرف قليل.

من النفاق الاعتقادي.

والخلاصة: رأيت أخي القارئ كيف سقطت تحديات قوم شكري أمام النصوص الواضحة الصريحة من الكتاب والسنة التي تؤكد أن هناك كفراً يخرج من الملة وآخر لا يخرج ولا يخلد صاحبه في نار جهنم، وقل مثل ذلك في الظلم والنفاق والفسوق.

فإن قالوا: (نريد نصاً من كتاب الله يذكر فيه أن كفر الإحسان أو كفر النعمة لا ينقل عن الملة لا تصريحاً ولا ترجيحاً ولا إشارة)، قلنا: لقد خالفتكم بهذا الطلب أصولكم التي أكدت فيها أن الحديث إذا صح فهو حجة قطعية.

ومن جهة أخرى نسألكم: هل تناسيتم قولكم الأول في الحديث، ثم عدتم تدعون أنكم لا تؤمنون بغير القرآن؟!.

ومن جهة ثالثة: فردودنا عليكم تضمنت نصوصاً من كتاب الله، وما صح في سبب نزولها من حديث المصطفى ﷺ.

فإن رفضتم هذا كله فأنتم في وضع لا تحسدون عليه!!.

الأدلة على أن المعاصي لا تخرج من الملة

أولاً - الأدلة من القرآن الكريم

في القرآن الكريم أدلة كثيرة تؤكد على أن مرتكبي الكبائر لا يرتدون عن الإسلام بسبب اقترافهم بعض الذنوب والمعاصي. ومن هذه الأدلة ما يلي:

١- إذا كان قتل النفس التي حرم الله من الكبائر، فاقتتال طائفتين من المسلمين من أكبر الكبائر، ورغم ذلك فهم مسلمون لقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ طَافَتَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَا إْحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقْتَلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجرات].

وقد اجتمعت كلمة أهل السنة والجماعة في القديم والحديث على أن أهل البغي ليسوا كفاراً.

٢- سمى الله جلّت قدرته القاتل أخاً بالدين لأهل المقتول. قال تعالى:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبْ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْمُرُّ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة].

لو كان القاتل مرتدّاً لما وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفِيَ

لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴿١﴾، وَلَا أُخُوَّةَ الْبَتَّةَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ.

٣- ارتكب حاطب بن أبي بلتعة معصية كبيرة عندما أرسل كتاباً إلى أهل مكة المشركين يخبرهم فيه أن رسول الله ﷺ يريدهم، وقد جهّز جيشاً لفتح مكة، ونزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب، وأرسل ﷺ نفرًا من أصحابه فأحضروا له الكتاب، وأنزل الله تعالى قوله:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة].

وعندما استأذن عمر بن الخطاب رسول الله في ضرب عنق حاطب قال له الرسول ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

مع أن عمر بن الخطاب وصف حاطباً بالنفاق لأنه حاول إفشاء سر رسول الله ﷺ (١).

(١) قصة حاطب أخرجها البخاري في كتاب المغازي: (٣٠٥ / ٧) [فتح، سلفية] وأخرجها مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر: (٤ / ١٩٤١ - ١٩٤٢، ح [٢٤٩٤]) إحياء التراث.

٤- لم ينف الله جلَّ وعلا الإيمان عن الذين قذفوا عائشة رضي الله عنها من غير المنافقين. قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور] (١).

وقد نزلت هذه الآية عندما امتنع أبو بكر الصديق عن الإنفاق على مسطح بن أثاثة لأنه خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وعندما سمع أبو بكر قوله تعالى:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال:
والله لا أنزعها عنه أبداً.

والشاهد في هذه الآية مع أن مسطح خاض في أمر عائشة - زوج رسول الله ﷺ و بنت الصديق - فقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه من المهاجرين في سبيل الله.

(١) وسبب نزول هذه الآية رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها، انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب [لو إذ سمعتموه]: (٤٥٥ / ٨) سلفية وأخرجه مسلم، كتاب التوبة باب في حديث الإفك: (٢١٣٦ / ٤) - إحياء التراث ح [٢٧٧٠] وهو جزء من حديث الإفك الطويل.

٥- وقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِإِلْبَاطٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾
[النساء].

وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ
﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة].

٦- وقع بعض أنبياء الله بشيء من المعاصي والذنوب. قال تعالى:

﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

وعن إخوة يوسف عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

ومما يجدر ذكره أن إخوة^(١) يوسف عليه السلام من الأسباب، والأسباب

(١) هل إخوة يوسف أنبياء؟. اختلف العلماء: فمنهم من قال: إنهم أنبياء، ومنهم من قال ليسوا بأنبياء،

ومنهم من ذكر القولين دون ترجيح، وأصح الأقوال قول ابن كثير:

(واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك، ومن =

جميعاً من أنبياء الله تعالى.

وخاطب المولى جلّ وعلا خاتم أنبيائه ورسله بقوله:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)
[التحرير].

وقوله:

﴿عَسَّ وَتَوَلَّى﴾ (١) **أَنَّ جَاءَهُ الْأَعْمَى** (٢) **وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي** (٣) **أَوْ يَذَكِّرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**
(٤) **أَمَا مِنْ أَسْتَعْنَى** (٥) **فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى** (٦) **وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي** (٧) **وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى** (٨)
وَهُوَ يَخْشَى (٩) **فَأَنْتَ عَنْهُ تُلَهَّى** (١٠) ﴿[عبس].

=الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكر واسوى قوله تعالى ﴿فُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِتْرَاهِمَ وَإِسْتَعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ...﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقد ذكر ابن كثير أيضاً كلاماً نحو هذا في البداية والنهاية [٢٠٤/١]. وقال بمثل هذا شيخ ابن كثير وشيخ الإسلام ابن تيمية في جامع المسائل. وقال السيوطي: والذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أنهم ليسوا بأنبياء، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنهم قالوا بنبوتهم -كذا قال ابن تيمية- ولا أحفظه عن أحد من التابعين [رسالة للسيوطي في كتابه الحاوي: ٢٣/٢ بعنوان دفع التعسف عن إخوة يوسف]. وقال القاضي عياض في [الشفاه بتعريف حقوق المصطفى] وهو يتحدث عن عصمة الأنبياء: وأما قصة يوسف وإخوته، فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم فيلزم الكلام على أفعالهم، وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء) ١. هـ

وهذه المعاصي لا يصح أن يعتقد مسلم أنها شرك يخرج عن الملة، لأن الله سبحانه وتعالى عصم أنبياءه من الشرك، ولا خلاف بين المسلمين حول هذه المسألة، وحتى أصحاب شكري لم يثبت عندنا أن لهم رأياً مخالفاً^(١).

وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨) ﴿

[يوسف].

وقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلشِّرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩) ﴿ [آل عمران]

وبالجمع بين الأمرين: عدم جواز الشرك على الأنبياء، ووقوع بعض المعاصي منهم، ينتج لنا قطعاً أن هذه المعاصي هي مما دون الشرك حتماً، كما

(١) قيل: إن ناساً من أصحاب شكري زعموا بأن آدم عليه السلام كفر بمخالفته أمر الله له، ثم غفر الله له بعد أن تاب وأناب، وقالوا مثل هذا القول في إبراهيم وأخوة يوسف وغيرهم من أنبياء الله. غير أنه لم يرد في رسائلهم مثل هذا القول، ولم يسمعه من نعرف من الدعاة الثقات الذين عرفوا هذه الجماعة عن كتب... ولا نحاسبهم إلا بما صح نقله عنهم ولعل الذين قالوا هذا القول فرقة منشقة عنهم، أو أفراداً كانوا قد تأثروا بهم.

يسلم لنا القول: ليس كل معصية شركاً.

ثانياً - الأدلة من السنة النبوية

١ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق. قال: «وإن زنى وإن سرق» ثلاثاً ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر» قال: فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، وفي رواية أخرى لأبي ذر عن المعرور بن سويد: «أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق قال: «وإن زنى وإن سرق»^(١).

٢ - عن أسامة بن يزيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقه في نفسي من ذلك فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أقال لا إله إلا الله وقتلته». قال: قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت على قلبه حتى تعلم أقالها أم لا» فما زال

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، انظر صحيح مسلم بشرح النووي: (٢/٢٤).

يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذٍ». قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين^(١) يعني أسامة. قال: قال رجل:

ألم يقل الله ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُفُّهُ ﴾
لِلَّهِ ﴿ فقال سعد^(٢):

قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة^(٣).

وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «أقتلته». قال - أي أسامة - نعم. قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة» قال فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة».

٣- عن أنس، عن النبي ﷺ قال:

«يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة^(٤) من خير، ويخرج من النار من قال لا

(١) قيل لأسامة ذو البطين لأنه كان له بطن عظيم [قاله القاضي عياض].

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص.

(٣) حديث أسامة رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله، (٩٨/٢) من صحيح مسلم بشرح النووي.

(٤) قوله: [بُرَّة]: وهي القمحة، ومقتضاه أن وزن البرة دون وزن الشعيرة.

إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»^(١).

٤- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه:

«بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك^(٢).

المفردات:

- العصابة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين.
- البهتان: الكذب الذي ييهت سامعه، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال تقع بهما.

(١) حديث أنس رواه الشيخان، و اللفظ للبخاري، باب زيادة الإيمان ونقصانه: (١/١١١) من فتح الباري - الحلبي - . وأخرجه مسلم: (١/١٨٢) إحياء التراث.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب... إلخ: (١/٦٤) [السلفية، فتح الباري]، وقد أخرجه في مواضع كثيرة من صحيحه.

وأخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها: (٣/١٣٣٣) إحياء التراث بنحوه، وليس فيه [فبايعناه على ذلك].

- قوله: [فمن وفى منكم]: أي ثبت على العهد.
- قوله: [ثم ستره الله]: فيه رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ورد على المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة لأن النبي ﷺ أخبر بأنه تحت المشيئة ولم يقل لا بد أن يعذبه، وفيه إشارة إلى الكف عن الشهادة لأحد بالجنة أو بالنار إلا من ورد النص فيه بعينه.

٥- عن معاذ بن جبل قال: كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال: «هل تدري ما حق الله على العباد» قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال:

«فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم».

وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه من طريق عمرو بن ميمون عن معاذ بن جبل وفيها الزيادة التالية:

قال ﷺ: «وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً». قال:

قلت: يا رسول الله: أفلا أبشر الناس قال: «لا تُبشِّرهم فيتكلموا»^(١).

مفردات الحديث وشيء من فقهه:

ردف: الرديف هو الراكب خلف الراكب يقال منه ردفته و أردفه بكسر الدال في الماضي وفتحها في المضارع.

قوله: [ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل]: أراد المبالغة في شدة قربه ليكون أوقع في نفس سامعه لكونه أضبط.

قوله: [أتدري ما حق الله على العباد]: الدراية هي المعرفة، وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم.

قوله: [الله ورسوله أعلم]: فيه حسن أدب المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلمين.

قوله: [وحق العباد على الله]: وهو استحقاق إنعام وفضل، وليس استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق.... وهو متحقق لا محالة لأن الله تعالى قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيده، ووعدده حق.

قوله: [أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً]: قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك، لأنه يستدعي التوحيد بالافتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب

(١) حديث معاذ رواه الشيخان و اللفظ لمسلم، باب من شهد بالشهادتين حرم الله عليه النار، (١/٢٣٠) من صحيح مسلم بشرح النووي.

رسول الله فقد كذَّب الله، ومن كذَّب الله فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط، فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به.

قوله: [لا تبشرهم فيتكلموا]: أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة، ودل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم، وإلا لما أخبر به معاذ رضي الله عنه عند موته^(١).

ثالثاً - الحدود

شرع الله إقامة الحدود على المجرمين، والأدلة على ذلك من القرآن والسنة وإجماع الأمة كثيرة. ومن أهمها ما يلي:

- الزنا: فالمحصن يرحم، والبكر يجلد مائة جلدة ويُغَرَّبَ عاماً أو الجلد فقط.
- شارب الخمر: يجلد من أربعين إلى ثمانين جلدة.
- السارق: تقطع يده.
- القتل: يقتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، ويقتل الرجل بالمرأة، ولا يقتل المسلم بالكافر.

(١) شرح المفردات عن كتاب [تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص (٤٥)].

- السن بالسن والعين بالعين والإصبع بالإصبع وكذلك سائر الجروح.
 - المحاربون: تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.
 - المرتدون: يقتلون.
 - التعزير: عقوبة من الإمام أو وليه في كل معصية ليس فيها حداً.
- وإذا كان حكم الزاني لا يختلف عن شارب الخمر أو القاتل أو المحارب، أو المرتد فلماذا هذا التفاوت في إقامة الحدود؟!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(... وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق، لم يكن النبي ﷺ يجعلهم مرتدين يجب قتلهم، بل القرآن والنقل المتواتر عنه، يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني، وقطع يد السارق، وهذا متواتر عن النبي ﷺ ولو كانوا مرتدين لقتلهم. فكلا القولين مما يعلم فساد بالاضطرار من دين الرسول ﷺ)^(١).

وقال أبو عبيد في رده على الخوارج:

(... ثم قد وجدنا الله تبارك وتعالى يكذب مقالتهم، وذلك أنه حكم في السارق بقطع اليد، وفي الزاني والقاذف بالجلد، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (٧/٢٨٨).

الحكم على هؤلاء إلا بالقتل لأن الرسول ﷺ قال:

«من بدل دينه فاقتلوه»^(١) أفلا ترى أنهم لو كانوا كفاراً لما كانت عقوباتهم القطع والجلد؟.

وكذلك قول الله فيمن قتل مظلوماً: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فلو كان القتل كفراً ما كان للولي عفو ولا أخذ دية، ولزمه القتل^(٢).

(١) أخرجه البخاري وأصحاب السنن من حديث ابن عباس مرفوعاً. وأحمد: (٢٣١ / ٥) من

حديث معاذ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) كتاب الإيمان: (٨٩-٩٠)، منشورات دار الأرقم.

الكبائر والتوبة

يعتقد جماعة شكري بأن الكبائر كلها كفر، ولا بد من المبادرة بالتوبة منها للعودة إلى الإسلام... ومن ارتكب كبيرة ولم يتب منها فقد ارتد عن الإسلام، واستحق لعنة الله في الدنيا والآخرة.

وجوابنا على ذلك:

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتوبة في قوله عز وجل من قائل:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨].

وقوله:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [٧٠] [الفرقان].

وباب التوبة مفتوح على مصراعيه: للمرتدين، والمشركين، والفاسقين، والمنافقين، والعصاة، والظالمين، والتوبة النصوح تجب ما قبلها إذا توافرت فيها الشروط التالية:

الإقلاع عن الذنب، والندم على ارتكابه، والعزم أن لا يعود إليه أبداً، وإن كان فيها مظلمة لمسلم تحلله منها.

١ - المغفرة:

والسؤال الذي يفرض نفسه:

هل يغفر الله ذنوب عباده الموحدين دون توبة نصوح أم لا بد من هذه التوبة بشروطها الأنفة اذكر؟!.

الجواب: إن الذي يعتقده أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يغفر هذه الذنوب لكل من مات لا يشرك به شيئاً، أو يعذبه بحسب ذنوبه ثم يكرمه بجنة الخلد وملك لا يفنى. والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي:

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء].

ولو فسرنا هذه الآية كما يريد أهل التكفير لوصلنا إلى النتائج الثلاث التالية:

أ) إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر أن يشرك لأن مطلق المعصية عندهم شرك. ولما كان ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ هو من قبيل المعصية، وإن كان أصغر من المعاصي الأولى، فيصير هو الآخر شركاً بناءً على مفهومهم، وهذا الاحتمال بين البطلان.

ب) إن الله لا يغفر أن يعصى ويغفر أن يطاع. وذلك لأن كلمة ﴿يُشْرَكَ﴾ الواردة في النص قد استوعبت جميع المعاصي بناءً على تصورهم، إذن

لم يبق من الأعمال إلا ما هو طاعة، وهذا الاحتمال في بطلانه أبين من الأول.

(ج) الاحتمال الثالث أن تكون كلمة ﴿يُشْرِكُ﴾ الواردة في الآية على إطلاقها كما قرروا بمعنى المعصية، ويكون ما دون ذلك شيئاً مجهولاً لا يدخل في نطاق المعصية ولا في نطاق الطاعة.

ومن جهة أخرى فالله تعالت أسماؤه وصفاته يغفر بالتوبة النصوح الشرك وغيره، وقوم شكري لا يخالفوننا في هذه المسألة، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَوَّكُمُ فِي الَّذِينَ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

وإذا كانت جميع أقوالهم في تفسير هذه الآية مرفوضة: شرعاً ولغة، فلم يبق

إلا تفسير واحد لا يجوز أن يتعدد وهو الآتي:

إن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لعبد مات وهو مشرك بالله تعالى، لأن اجتناب الشرك هو الحد الأدنى من الإسلام. قال تعالى:

﴿لَيْنُ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] ويغفر سبحانه وتعالى ذنوب عباده إذا ماتوا لا يشركون به شيئاً ولو كانت كزبد البحر لقوله تعالى:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله:

﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٢- الاستغفار: تارة يُذكر وحده، وتارة يُقرن بالتوبة. قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٣- الحسنات: فإن الحسنات عشرة أمثالها، والسيئات بمثلها، والويل لمن غلبت آحاده عشراته. قال تعالى:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷺ:

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١).

٤- المصائب الدنيوية: قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة التي يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لهم:

«قاربوا وسددوا، فكل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها»^(٣).

٥- القصاص: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص

(١) أخرجه الترمذي عن أبي ذر في كتاب البر و الصلاة، باب ما جاء في معاشره الناس: (٢٥٥/٤) [الحلبي] وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد: (١٥٣/٥)، وحسنه الألباني، صحيح الجامع [٩٦].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضي، باب ما جاء في كفارة المرضي: (١٣/١٠) [السلفية، فتح الباري] وأخرجه مسلم في كتاب البر و الصلاة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه: (١٩٩٢/٤) بألفاظ متقاربة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٨٢/٢).

لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذَّبوا ونُقُوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة. فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»^(١).

٦ - شفاعة الشافعين:

* ومنها الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

* وشفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وشفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

* وشفاعته ﷺ في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب، وقد سأل ابن محصن رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب^(٢).

* وشفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث.

* ومن الشفاعة أيضاً: شفاعة النبيين، والملائكة، والمؤمنين، وشفاعة الأبناء: قال ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب القصاص: (١٤ / ١٩٠)، [الحلي - فتح الباري].

(٢) رواه الشيخان: البخاري مع الفتح - كتاب الطب - باب: ... وفضل من لم يكتو:

(١٠ / ١٥٥)، ومسلم كتاب الإيمان: (١ / ١٩٧).

النار إلا تحلَّه القسم»^(١).

وقال: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وأبويهم الجنة بفضل رحمته، قال: ويكونون على باب من أبواب الجنة، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يجيء أبوانا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم بفضل رحمه الله»^(٢).

٧- عفو أرحم الراحمين من غير شفاعاة:

قال تعالى: ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأخيراً لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان بفضل الله ورحمته.

والخلاصة: إن الحسنات يذهبن السيئات، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ويؤجر المسلم على كل معصية تصيبه في الدنيا حتى الشوكة يشاكها يكفر الله بها من خطاياها، وكل شيء عند الله بمقدار. قال تعالى:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: (١١ / ٥٤١). [السلفية- فتح الباري]، إلا أنه قال:

«تمسه» بدون فاء، وأخرجه البخاري في كتاب الجنائز، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة. باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه: (٤ / ٢٠٢٨) - إحياء التراث.

(٢) أخرجه النسائي: (١ / ٢٦٥) و البيهقي: (٤ / ٦٨) وغيرهما عنه، وسنده صحيح على شرط

الشيخين [عن أحكام الجنائز للألباني، ص: (٢٣)].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة]

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بي لأنتك بقرابها مغفرة»^(١).

(١) انظر صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والإستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله: (٤/٢٠٦٨).

الإصرار على المعصية

قال قوم شكري:

(أما سائر الذنوب فقد تواتر فعل المسلمين لها في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده مع عدم انتفاء اسم المسلمين عنهم بعد استسلامهم لحكم الله فيهم من عقوبة أو حدّ إلا رجلاً أصر على ذنبه وأبى أن ينتهي عنه، كمانعي الزكاة الذين قاتلوا عليها في أمر جُزم فيه بالوجوب و أنه فرض في دين الله، أو حرام منعه أو فعله في دين الله) اهـ.

ونحدد ردنا عليهم في النقاط التالية:

١- إن تناقضات هذه الجماعة كثيرة وكثيرة جداً. وكذلك شأن أهل البدع والأهواء لأنهم ضعاف أمام الحق الذي يلجم أفواههم، فلا يجدون بداً من المغالطات و التناقضات. لقد قالوا من قبل في هذه المسألة إن كل معصية كفر يخرج عن الملة، ولا يغفر الله إلا بالتوبة النصوح، ثم عادوا يقولون: لقد تواتر فعل المسلمين لبعض الذنوب مع عدم انتفاء اسم المسلمين عنهم!!.

كيف نجتمع بين هذا وذاك، وكيف فرقوا بين الذنب والمعصية أو بين معصية ومعصية وما هي الأدلة التي اعتمدوا عليها؟!.

إن أعمال البشر عند الله سبحانه وتعالى إما معصية وإما طاعة، أو عمل مباح فعله، وليس هناك حل وسط، ومن جهة أخرى فالذنوب قسمان: صغائر وكبائر،

وإن الكبائر في الذنوب بعضها أكبر من بعض. قال ابن عبد السلام الشافعي:
 (لم أقف للكبيرة على ضابط سالم من الاعتراض، والضابط الذي قاله شيخ
 الإسلام وغيره من أنها: ما فيها حد أو وعيد أو لعن أو تبرؤ أو ليس منا أو نفي
 إيمان من أسلم الضوابط، وعن سعيد بن جبير قال رجل لابن عباس الكبائر
 سبع؟ فقال ابن عباس هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع غير أنه لا كبيرة مع
 استغفار ولا صغيرة مع إصرار)^(١).

وأهل التكفير لم يبينوا لها عدد، وأنواع الذنوب التي لا يكفر فاعلها، ولعل
 انهزامهم أمام الأدلة الشرعية الصريحة الواضحة هو الذي دفعهم إلى الاعتراف
 بوجود معاصٍ لا تخرج عن الملة، لكنهم تركوا الأمور سائبة دون ضابط
 يضبطها.

لا شك أن الله سبحانه وتعالى أمرنا باجتناّب كبائر الإثم والفواحش في قوله:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾
 [النجم: ٣٢]

(١) الكبائر للذهبي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، ص: (٧) مكتبة الرياض الحديثة.

واللَّمَم: صغائر الذنوب، كالنظر والقبلة، وما كان دون الزنا، فإن تقدم بفرجه كان الزنا وإلا فهو اللَّمَم. قاله ابن مسعود، وابن عباس، والشعبي، ومسروق ويؤيد هذا الحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تشتهي وتتمنى، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج»^(١).

٢- ما الإصرار؟

المصر من صرّ الدنانير، أي الربط عليها، وقال قتادة: الإصرار: الثبوت على المعاصي.

قال الشاعر:

يُصِرُّ بِاللَّيْلِ مَا تُخْفِي شَوَاكِلُهُ يَا وَيْحَ كُلِّ مُصِرِّ الْقَلْبِ خِتَارُ

الشواكل: الطرق المتشعبة عن الطريق الأعظم. والختر: شبيه بالغدرد والخديعة.

وقال سهيل بن عبد الله: والإصرار هو التسوييف، والتسوييف أن يقول: أتوب غداً^(٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج: (٢٦/١١) [السلفية، فتح الباري]، وأخرجه مسلم كتاب القدر: (٢٦٥٧) [إحياء التراث وسياقه: عن ابن عباس قال: ما رأيت أشبه باللمم ثم ذكر حديث أبي هريرة].

(٢) تفسير القرطبي: (٤/٢٠٩)، دار الكتاب العربي.

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران]

وقال أبو جعفر الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندما قول من قال:

الإصرار: الإقامة على الذنب عامداً، وترك التوبة منه. ولا معنى لقول من قال: الإصرار على الذنب هو موافقته، لأن الله عز وجل مدح بترك الإصرار على الذنب مواقع الذنب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) اهـ^(١).

وإذن، فالإصرار على المعصية من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش عند الله سبحانه وتعالى، وليس مُصِرّاً من يستغفر ربه، ويندم على فعلته... ليس مُصِرّاً وإن تكرر فعله للمعصية.

مثال: مدمن على شرب الخمر، لا يمتنع عن احتسائها ولو جلد عليها مرات ومرات، وهو بعد ذلك يعلم ضررها على: جسمه وماله وعقله، كما يعلم ويعتقد

(١) زاد المسير: (١/٤٦٤) لابن الجوزي.

حرمتها [ولو جحد حرمتها لكان مرتداً عن الإسلام ولكانت عقوبته القتل وليس الجلد].

وربما حاول هذا المدمن التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ، لكنه انهزم أمام شهواته العنيفة ونفسه الضعيفة، وإرادته المنهارة، واستسلامه المطلق لرفقاء السوء.

فإذا مات هذا المدمن وهو مصر على شرب الخمرة لا يكون خالداً في نار جهنم لأن معه أصل التوحيد والإيمان وهو عند أهل السنة والجماعة: مؤمن بإيمانه فاسق بفسقه.

٣- تحقيق لابن حجر العسقلاني: عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك^(١) رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب^(٢) ، فأتى به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما

(١) قوله [كان يضحك رسول الله]: أي يقول بحضرته أو يفعل ما يضحك منه. وقد أخرج أبو يعلى من طريق زيد من أسلم أن رجلاً كان يلقب حماراً وكان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن و العسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى النبي ﷺ فقال: أعط هذا متاعه، فما يزيد النبي ﷺ بيتسم ويأمر به فيعطى.

(٢) قوله [قد جلده في الشراب]: أي بسبب شربه الشراب المسكر.

ووقع في رواية معمر عن يزيد بن أسلم بسنده هذا عن د. عبد الرزاق (أتى برجل قد شرب الخمر فجلد، ثم أتى به فحد، ثم أتى به فحد، ثم أتى به فحد) أربع مرات.

علمت إنه^(١) يحب الله ورسوله^(٢).

وقد فصل القول في هذه المسألة الحافظ ابن حجر العسقلاني، وأجاد في رده على أهل البدع والأهواء الذين يكفرون مرتكب الكبيرة والمصر عليها، ونقل فيما يلي بعضاً من أقواله لأهميتها:

(وفيه - أي في هذا الحديث الذي أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب - الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن لعنه والأمر بالدعاء له.

وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله.

و يؤخذ من تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يراد زواله بالكلية، بل كماله كما تقدم.

ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً

(١) قوله [فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله]: يحتمل أن تكون ما مصدرية وكسرت إن لأنها جواب القسم، وقال صاحب المطالع: ما موصولة، وإنه بكسر الهمزة مبتدأ، وقيل بفتحها وهو مفعول علمت.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، فتح الباري: (١٥/٨٠)، الحلبي.

بما إذا ندم على وقوع المعصية وأقيم عليه الحد فكفر عنه الذنب المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى عليه بتكرار الذنب أن يطبع على قلبه شيء حتى يسلب منه ذلك، نسأل الله العفو والعافية.

وفيه ما يدل على نسخ الأمر الوارد بقتل شارب الخمر إذا تكرر منه إلى الرابعة والخامسة، فقد ذكر ابن عبد البر أنه أُتِيَ به أكثر من خمسين مرة، والأمر المنسوخ أخرجه الشافعي في رواية حرملة عنه، وأبو داود وأحمد والنسائي والدارمي وابن المنذر وصححه ابن حبان (وفي بعض نسخ الفتح: وصححه الحاكم)، كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رفعه [إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاقتلوه] ولبعضهم [فاضربوا عنقه]. وله من طريق أخرى عن أبي هريرة أخرجهما عبد الرزاق وأحمد والترمذي تعليقا والنسائي كلهم من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عنه بلفظ [إذا شربوا فاجلدوهم ثلاثاً، فإذا شربوا الرابعة فاقتلوهم] وروى عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح فقال أبو بكر بن عياش عنه عن أبي صالح عن أبي سعيد، كذا أخرجه ابن حبان من رواية عثمان بن أبي شيبة عن أبي بكر. وأخرجه الترمذي عن أبي كريب عنه فقال: عن معاوية بدل أبي سعيد وهو المحفوظ. وكذا أخرجه أبو داود من رواية أبان العطار عنه، وتابعه الثوري وشيبان بن عبد الرحمن وغيرهما عن عاصم، ولفظ الثوري عن عاصم [ثم إن شرب الرابعة فاضربوا عنقه] ووقع في رواية أبان عند أبي داود [ثم إن شربوا فاجلدوهم ثلاث

مرات بعد الأولى، ثم قال: إن شربوا فاقتلوهم] ثم ساقه أبو داود من طريق حميد بن يزيد عن نافع عن ابن عمر، قال: وأحسبه قال في الخامسة [ثم إذا شربها فاقتلوه] قال:

وكذا في حديث عطف في الخامسة. قال أبو داود: وفي رواية عمر بن أبي سلمة عن أبيه، وسهيل بن أبي صالح عن أبيه كلاهما عن أبي هريرة في الرابعة، وكذا في رواية ابن أبي نعيم عن ابن عمر وكذا في رواية عبد الله ابن عمرو بن العاص والشريد، وفي رواية معاوية [فإن عاد في الثالثة أو الرابعة فاقتلوه].

وقال الترمذي بعد تخريجه:

وفي الباب عن أبي هريرة والشريد وشرحبيل بن أوس وأبي الرمضاء وجريز وعبد الله بن عمرو.

قلت - ابن حجر -: وقد ذكرت حديث أبي هريرة، وأما حديث الشريد وهو ابن أوس الثقفي فأخرجه أحمد والدرامي والطبراني وصححه الحاكم بلفظ [إذا شرب فاضربوه] وقال في آخره [ثم إن عاد الرابعة فاقتلوه] وأما حديث شرحبيل وهو الكندي فأخرجه أحمد والحاكم والطبراني وابن منده في المعرفة ورواته ثقات نحو رواية الذي قبله، وصححه الحاكم من وجه آخر. وأما حديث أبي الرمضاء وهو بفتح الراء وسكون الميم بعدها دال مهملة وبالمد، وقيل بموحدة ثم ذال معجمة وهو بدوي نزل مصر، فأخرجه الطبراني وابن منده وفي سننه ابن لهيعة، وفي سياق حديثه [أن النبي ﷺ أمر بالذي شرب الخمر في الرابعة أن

يضرب عنقه فضربت] فأفاد أن ذلك عمل به قبل النسخ، فإن ثبت كان فيه رد على من زعم أنه لم يعمل به.

وأما حديث جرير فأخرجه الطبراني والحاكم لفظه [من شرب الخمر فاجلدوه] وقال فيه [فإن عاد في الرابعة فاقتلوه] وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فأخرجه أحمد والحاكم من وجهين عنه وفي كل منهما مقال.

ففي رواية شهر بن حوشب عنه [فإن شربها الرابعة فاقتلوه] قلت - ابن حجر-: ورويناه عن أبي سعيد أيضاً كما تقدم، وعن ابن عمر. وأخرجه النسائي والحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي نعيم عن ابن عمر ونفر من الصحابة بنحوه. وأخرجه الطبراني موصولاً من طريق عياض بن عبد اللطيف عن أبيه وفيه في الخامسة كما أشار إليه أبو داود. وأخرجه الترمذي تعليقاً والبزار والشافعي والنسائي والحاكم موصولاً من رواية محمد بن المنكدر عن جابر.

وأخرجه البيهقي والخطيب في المبهمات من وجهين آخرين عن ابن المنكدر، وفي رواية الخطيب جلد. وللحاكم من طريق يزيد بن أبي كبشة: سمعت رجلاً من الصحابة يحدث عبد بن مروان رفعه بنحوه [ثم إن عاد في الرابعة فاقتلوه] وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن ابن المنكدر مرسلًا فيه [أتى بابن النعمان بعد الرابعة فجلده] وأخرجه الطحاوي من رواية عمرو بن الحارث عن ابن المنكدر أنه بلغه، وأخرجه الشافعي وعبد الرزاق وأبو داود من رواية الزهري عن قبيصة بن ذؤيب قال: (قال رسول الله ﷺ: من شرب الخمر

فاجلدوه] إلى أن قال [ثم إذا شرب في الرابعة فاقتلوه] قال: [فأتى برجل قد شرب فجلده] ثم أتى به قد شرب فجلده، ثم أتى به في الرابعة قد شرب فجلده. فرفع القتل عن الناس وكانت رخصة).

وعلقه الترمذي فقال: روى الزهري، وأخرجه الخطيب في المبهمات من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري وقال فيه:

[فأتى برجل من الأنصار يقال له نعيان فضربه أربع مرات، فرأى المسلمون أن القتل قد أخرج، وأن الضرب قد وجب] وقيصة بن ذؤيب من أولاد الصحابة، وولد في عهد النبي ﷺ ولم يسمع منه. ورجال هذا الحديث ثقات مع إرساله، لكنه أعل بما أخرجه الطحاوي من طريق الأوزاعي عن الزهري قال [بلغني عن قبيصة] ويعارض ذلك رواية ابن وهب عن يونس عن الزهري أن قبيصة حدثه أنه بلغه عن النبي ﷺ وهذا أصح لأن يونس أحفظ لرواية الزهري من الأوزاعي.

والظاهر أن الذي بلغ قبيصة ذلك صحابي فيكون الحديث على شرط الصحيح لأن إبهام الصحابي لا يضر. وله شاهد أخرجه عبد الرزاق عن معمر قال:

حديث ابن المنكدر فقال: ترك ذلك، قد أتى رسول الله ﷺ بابن نعيان فجلده ثلاثاً، ثم أتى به في الرابعة فجلده ولم يزد. ووقع عند النسائي من طريق محمد بن إسحاق عن ابن المنكدر عن جابر [فأتى رسول الله ﷺ برجل منا قد شرب في الرابعة فلم يقتله] وأخرجه من وجه آخر عن محمد بن إسحاق بلفظ [فإن عاد

الرابعة فاضربوا عنقه، فضربه رسول الله ﷺ أربع مرات فرأى المسلمون أن الحد قد وقع، وأن القتل قد رفع]. قال الشافعي بعد تخريجه: هذا ما لا اختلاف فيه بين أهل العلم علمته. وذكره أيضاً عن الزبير مرسلاً، وقال:

أحاديث القتل منسوخة. وأخرجه أيضاً من رواية ابن أبي ذئب [حدثني ابن شهاب: أتى النبي ﷺ بشارب فجلده ولم يضرب عنقه]، وقال الترمذي لا نعلم بين أهل العلم في هذا اختلافاً في القديم والحديث. قال: وسمعت محمداً يقول: حديث معاوية في هذا أصح وإنما كان هذا في أول الأمر ثم نسخ بعد.

وقال في العلل آخر الكتاب:

جميع ما في هذا الكتاب قد عمل به أهل العلم إلا هذا الحديث، وحديث الجمع بين الصلاتين في الحضر. وتعبه النووي فسلم قوله في حديث الباب دون الآخر، ومال الخطابي إلى تأويل الحديث في الأمر بالقتل فقال:

قد يرد الأمر بالوعيد ولا يراد به وقوع الفعل، وإنما قصد به الردع والتحذير ثم قال:

(ويحتمل أن يكون القتل في الخامسة كان واجباً ثم نسخ بحصول الإجماع من الأمة على أن لا يقتل). وأما ابن المنذر فقال:

(العمل فيمن شرب الخمر أن يضرب وينكل به ثم نسخ بالأمر بجلده فإن تكرر ذلك أربعاً قتل، ثم نسخ ذلك بالأخبار الثابتة، وإجماع أهل العلم إلا من شذ ممن

لا يعد خلافاً^(١).

٤- قصة أبي محجن الثقفي: أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن سيرين كان أبو محجن الثقفي لا يزال يجلد في الخمر فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه فلما كان يوم القادسية رأهم يقتتلون، وكان بسعد جراحة فاستعمل على الخيل خالد بن عرفة وصعد سعد فوق البيت لينظر ما صنع الناس فجعل أبو محجن يتمثل:

كفى حزناً أن ترتدي بالقنا وأترك مشدوداً علي وثاقيا

ثم قال لامرأة سعد - وهي بنت خصفة -: ويلك خليني فلك علي إن سلمت أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد، وإن قتلت استرحتم مني، فخلته ووثب علي فرس لسعد يقال لها البلقاء ثم أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزمهم الله، وسعد ينظر ويقول: لولا أنني تركت أبا محجن في القيد لظننتها بعض شمائله، فلما هزم العدو رجع أبو محجن حتى وضع رجله في القيد، فأخبرت بنت خصفة سعداً بالذي كان من أمره، فقال سعد لا أجلك في الخمر أبداً. فقال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبداً^(٢).

وأخرجه حماد بن أبي سلمة في مصنفه من طريق رجالها ثقات: أن عمر جلد

(١) فتح الباري: (١٥/٨٣)، حلي، والذين شذوا عن الإجماع أهل الظاهر.

(٢) انظر المصنف لعبد الرزاق - باب حد الخمر - (٧/٣٨١)، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: (٤/١٧٣)، وأبو محجن الثقفي الشاعر المشهور مختلف في اسمه فقيل هو عمر بن حبيب، وقيل اسمه مالك، وقيل اسمه عبد الله وأمه كنور.

أبا محجن في الخمر أربع مرات، ثم قال له:

أنت خليع، فقال: أما إذا خلعتني فلا أشربها أبداً^(١).

ومن خلال حديث عمر بن الخطاب الذي رواه البخاري في صحيحه، وقصة أبي محجن التي أخرجها عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن سيرين نعلم أن المصر على المعصية لا يكفر بإصراره إذا كان لا يستحل معلوماً من الدين بالضرورة، كما نعلم أن قتل المصر نسخ بأدلة صحيحة أثبتها ابن حجر العسقلاني بأسلوب علمي لا يرقى إليه شك، ومما يجب التأكيد عليه أن قتل المصر كان حداً وليس ردة، لأن الردة من أهم أمور العقيدة والتي لا يصح أن تنسخ.

٥- طبقات العصاة: إن الذي أثبتته الآيات القرآنية والسنة النبوية ودرج عليه السلف الصالح والصدر الأول من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان من أئمة التفسير والحديث والسنة أن العصاة من أهل التوحيد على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: قوم رجحت حسناتهم بسيئاتهم فأولئك يدخلون الجنة من أول وهلة ولا تمسهم النار أبداً.

الطبقة الثانية: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم وتكافأت، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وهؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين ذكرهم الله تعالى أنهم يوقفون بين الجنة والنار ما شاء الله أن يوقفوا، ثم

(١) فتح الباري: (١٥/٨٦) - الحلبي.

يؤذن لهم في دخول الجنة، كما قال تبارك وتعالى بعد أن دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف]

الطبقة الثالثة: قوم لقوا الله تعالى مصرين على كبائر الإثم والفواحش، ومعهم أصل التوحيد، فرجحت سيئاتهم بحسناتهم، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بقدر ذنوبهم [إن لم يغفر الله لهم]، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه، ومنه من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم فوق ذلك حتى إن منهم من لم يحرم منه على النار إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، وهؤلاء هم الذين يأذن الله تعالى بالشفاعة فيهم لنبينا محمد ﷺ، ولغيره من الأنبياء من بعده والأولياء والملائكة ومن شاء الله أن يكرمه، فيحد لهم حداً فيخرجونهم، ثم هكذا فيخرجون من كان في قلبه وزن دينار من خير، ثم من كان

في قلبه نصف دينار من بر، ثم برة، ثم خردلة، ثم ذرة، ثم أدنى من ذلك إلى أن يقول الشفعاء:

ربنا لم نذر فيها خيراً. ويخرج الله تعالى من النار أقواماً لا يعلم عدتهم إلا هو بدون شفاعة الشافعين، ولم يخلد في النار أحد من الموحدين ولو عمل أي عمل، ولكن كل من كان منهم أعظم إيماناً وأخف ديناً كان أخف عذاباً في النار وأقل مكثاً فيها وأسرع خروجاً منها، وكل من كان أضعف إيماناً وأعظم ذنباً كان بصد ذلك والعياذ بالله.

والأحاديث في هذا الباب لا تحصى كثرة، وقد قدمنا منها ما فيه الكفاية.

وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله: «من قال لا إله إلا الله نفعته يوماً من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه»^(١).

وهذا مقام ضلت فيه الأفهام، وزلت فيه الأقدام، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم^(٢).

وعجيب قول أهل التكفير:

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان: (٥٦/١) هندية، وأبو نعيم في الحلية: (٤٦/٥)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم: (١٩٣٢).

(٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول، للشيخ حافظ بن أحمد حكيمي: (٤٢٢/٢)، المطبعة السلفية ومكتبتها.

(إلا رجلاً أصر على ذنبه وأبى أن ينتهي عنه كمانعي الزكاة الذين قاتلوا عليها في أمر جزم فيه بالوجوب، وأنه فرض في دين الله).

إن المصّر على المعصية يختلف أمره كلية عن أمر مانعي الزكاة ن وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عن المصّر، أما مانعو الزكاة:

- فهم جماعة وليسوا فرداً.
- امتنعوا عن دفع الزكاة لخليفة رسول الله ﷺ، ثم منعوا من شاء من قومهم من دفعها.
- زعموا أن الزكاة صدقة تختص برسول الله ﷺ، وتأولوا قوله تعالى: ﴿حُدِّثْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].
- قاتلوا عليها خليفة المسلمين ﷺ. فأين هؤلاء من ذاك؟!.

حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»^(١).

المفردات:

النهبة: بضم النون وهي ما ينهبه.

[يرفع الناس إليه فيها أبصارهم]: أي ينظرون إلى من ينهبهم ولا يقدرّون على دفعه ولو تضرعوا إليه.

من معاني الحديث: قال القاضي عياض رحمه الله:

(أشار بعض العلماء إلى أن ما في هذا الحديث تنبيه على جميع أنواع المعاصي والتحذير منها فنبه بالزنا على جميع الشهوات، وبالسرقة على الرغبة في الدنيا والحرص على الحرام، وبالخمر على جميع ما يصد عن الله تعالى ويوجب الغفلة عن حقوقه، وبالانتهاج الموصوف عن الاستخفاف بعباد الله تعالى،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الزنا وشرب الخمر، فتح الباري: (٦٢/١٥) [الحلبي]، ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، المجلد الأول، الجزء الثاني، (ص: ٤١) من صحيح مسلم بشرح النووي.

وترك توقيهم والحياء منهم وجمع الدنيا من غير وجهها والله أعلم.

قال أهل التكفير: إن المنفي في هذا الحديث أصل الإيمان وعينه، وليس تمامه وكماله.

والذي نراه و نعتقده أن قولهم هذا مرفوض للأسباب التالية:

١- أوجب الله الحد في الزنا على أنحاء مختلفة: في حق الحر المحصن، والحر البكر، وفي حق العبد، فلو كان المراد بنفي الإيمان ثبوت الكفر لاستووا في العقوبة، لأن المكلفين فيما يتعلق بالإيمان والكفر سواء، فلما كان الواجب فيه من العقوبة مختلفاً دل على أن مرتكب ذلك ليس بكافر خارج عن الملة، والمنفي كمال الإيمان وليس أصله [قاله الطبري بتصريف يسير].

٢- في قوله ﷺ [... حين يزني، حين يسرق، حين يشرب] دليل على أن الإيمان يسلب عنه حال تلبسه بالمعصية ويعود إليه بعد الإقلاع عنها، ولا بن حجر العسقلاني كلام طيب في هذه المسألة. قال ما ملخصه:

(إنه يسلب الإيمان حال تلبسه بالكبيرة، فإذا فارقها عاد إليه وهو ظاهر ما أسنده البخاري عن ابن عباس كما سيأتي في باب إثم الزنا من كتاب المحاربين عن عكرمة عنه بنحو حديث الباب. قال عكرمة: قلت لابن عباس:

كيف ينزع منه الإيمان؟ قال: هكذا وشبك بين أصابعه ثم أخرجها، فإذا تاب عاد إليه هكذا وشبك بين أصابعه.

وجاء مثل هذا مرفوعاً أخرجهُ أبو داود والحاكم بسند صحيح من طريق سعيد المقبري أنه سمع أبا هريرة رفعه [إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان]، وأخرج الطبراني بسند جيد من رواية رجل من الصحابة لم يُسمَّ رفعه [من زنى خرج منه الإيمان، فإن تاب تاب الله عليه].

قال ابن بطال: وبيان ذلك أن الإيمان هو التصديق غير أن للتصديق معنيين، أحدهما: قول، والآخر عمل. فإذا ارتكب المصدِّق كبيرة فارقه اسم الإيمان، فإذا كف عنها عاد له الاسم لأنه في حال كفه عن الكبيرة مجتنب بلسانه، ولسانه مصدق عقد قلبه، وذلك معنى الإيمان.

قلت - ابن حجر-: وهذا القول قد يلاقي ما أشار إليه النووي فيما نقله عن ابن عباس [ينزع منه^(١) نور الإيمان] لأنه يحمل منه على أن المراد في هذه الأحاديث نور الإيمان وهو عبارة عن فائدة التصديق وثمرته وهو العمل بمقتضاه. ويمكن رد هذا القول إلى القول الذي رجَّحه النووي، فقد قال ابن

(١) عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه [من أراد منكم الباءة زوجته، لا يزني منكم زانٍ إلا نزع الله منه نور الإيمان فإن شاء رده، وإن شاء أن يمنعه منه].

إسناده حسن موقوف، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير إبراهيم بن مهاجر وهو البجلي الكوفي فمن رجال مسلم وحده، وهو صدوق لين الحفظ، كما في التقريب [عن كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، (ص: ٣٢) - تحقيق الألباني] دار الأرقم، الكويت.

بطل في آخر كلامه تبعاً للطبري:

الصواب عندنا قول من قال يزول عنه اسم الإيمان الذي هو بمعنى المدح إلى الاسم الذي بمعنى الذم، فيقال له فاسق مثلاً. ولا خلاف أنه يسمى بذلك ما لم تظهر منه التوبة، فالزائل عنه حينئذ اسم الإيمان بالإطلاق، والثابت له اسم الإيمان بالتقييد، فيقال: هو مصدق بالله ورسوله لفظاً واعتقاداً لا عملاً، ومن ذلك الكف عن المحرمات. وأظن ابن بطل تلقى ذلك من ابن حزم^(١) فإنه قال:

المعتمد عليه عند أهل السنة أن الإيمان اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح. وهو يشمل عمل الطاعة والكف عن المعصية. فالمرتكب لبعض ما ذكر لم يختل اعتقاده ولا نطقه بل اختلت طاعته فقط فليس مؤمن بمعنى أنه ليس بمطيع، فمعنى نفي الإيمان محمول على الإنذار بزواله ممن اعتاد ذلك لأنه يخشى عليه أن يفضي به إلى الكفر وهو كقوله [ومن يرتع حول الحمى]^(٢). انتهى كلام ابن حجر.

٣- رد لطيف لابن تيمية: اجتهد بعض علماء أهل السنة في ذكر تأويلات كثيرة لهذا الحديث وغيره أرادوا من خلالها دفع قول الخوارج ومن وافقهم من الرافضة الذين زعموا بأن المنفي في هذا الحديث أصل الإيمان وليس كماله،

(١) بل الظاهر أنه تلقاه من الطبري، انظر تهذيب الآثار (١٧٧/٢)، وقبله أبو عبيد في كتاب

الإيمان وهو قول قوي وهو الذي اختاره شيخ الإسلام في الإيمان ورجحه.

(٢) فتح الباري، كتاب الحدود، باب الزنا وشرب الخمر: (١٥/٦٢ - ٦٥)، الحلبي.

وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية رد لطيف عليهم نختار منه ما يلي: (فإن عامة السلف يقرون هذه الأحاديث - أي حديث لا يزني الزاني وما شابهه - ويمرونها كما جاءت، ويكرهون أن تتأول وتأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله ﷺ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد عن سفيان وأحمد بن حنبل وجماعة كثيرة من العلماء رضي الله عنهم، ونص أحمد على أن مثل هذا الحديث لا يتأول تأويلاً يخرج عن ظاهره المقصود به، وقد تأوله الخطابي وغيره تأويلات مستكرهة، مثل قولهم لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي: أي ينبغي للمؤمن أن لا يفعل ذلك، وقولهم: المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي، وإنما ساغ ذلك لما بين حاله وحال من عدم الإيمان من المشابهة والمقاربة، وقولهم:

إنما عدم كمال الإيمان وتمامه، أو شرائعه وثمراته ونحو ذلك، وكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظر)^(١).

(والإيمان المنفي في حديث [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] هو الإيمان الواجب الذي به يستحق الثواب بلا عقاب والموالة المطلقة، فإذا زنى فيكون معه من الإيمان ما يستحق به مشاركة المؤمنين في بعض الثواب، ومعه من الكبيرة ما يستحق به العقاب)^(٢).

٤ - يسهل بهذا الفهم الجمع بين حديث أبي هريرة [لا يزني الزاني حين يزني

(١) فتاوى الشيخ الإسلام ابن تيمية: (٧/ ٦٧٤).

(٢) فتاوى الشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ٢٩٣).

وهو مؤمن] وحديث أبي ذر وغيره [من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق]، كما يسهل بهذا الفهم الجمع بين حديث أبي هريرة وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه (على أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا) إلى آخره ثم قال لهم ﷺ فمن وفى منكم فأجره على الله ومن فعل شيئاً من ذلك فهو كفارته ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه... فهذان الحديثان^(١) مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، وكل هذه الأدلة تؤكد بأن المنفي في قوله ﷺ [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] كمال الإيمان لا أصله^(٢).

٥- وكذلك القول في الأحاديث المشابهة لحديث أبي هريرة، ومن الأمثلة على ذلك الحديث التالي:

عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ:

(١) حديث أبي ذر وحديث عبادة بن الصامت سبق الكلام عنهما في هذا البحث، كما سبق الحديث عن التوبة النصوح.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١/٤١) الجزء الثاني.

«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(١).

فقد كان يسب الصحابي أخاه في عهد رسول الله ﷺ ، ولا يقام الحد على الساب أو يجلد ثمانون جلدة إذا كان السب قذفاً. وروى البخاري في صحيحه من طريق واصل الأحدب عن المعرور قال:

لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلّة وعلى غلامه حُلّة فسألته عن ذلك؟ فقال: إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ:

«يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(٢).

المفردات:

[ساببت]: أي وقع بيني وبينه سباب، وهو الفاحش من القول.

قول أبي ذر [فعيرته بأمه]: أي نسبته إلى العار، وفي رواية قلت له: يا ابن السوداء.

قوله ﷺ: [إنك امرؤ فيك جاهلية] أي خصلة من خصال الجاهلية.

(١) حديث ابن مسعود رواه مسلم في صحيحه ، انظر المجلد الأول ، الجزء الثاني ، (ص: ٥٤)

من شرح النووي على صحيح مسلم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، باب المعاصي من أمر يالجاهلية: (٩١ / ١) من فتح الباري -

الحلبي - .

وكان أبو ذر بعد ذلك يساوي غلامه في الملبوس وغيره أخذاً بالأحوط، وإن كان لفظ الحديث يقتضي اشتراط المواساة لا المساواة.

والشاهد في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ لم يجلد أبا ذر، ولا يصح لقائل أن يقول:

لقد تاب أبو ذر فسقط عنه الحد. إن مثل هذا القول جهالة جهلاء وضلالة عمياء لأن التوبة لا تُسقط الحد بحال من الأحوال، وقد يقام الحد ويبقى المذنب فاسقاً، وقد يتوب وتقبل توبته.

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قطع يد امرأة. قالت عائشة: وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى النبي ﷺ فتأبى وحسنت توبتها^(١).

وقال أبو عبد الله - أي الإمام البخاري - : إذا تاب السارق بعدما قطع يده قبلت شهادته. وكل محدود كذلك إذا تاب قبلت شهادته.

وإذن: فالتوبة لا تمنع من إقامة الحد، وإنما هي شيء والحد شيء آخر، وعقوبة القاذف ليست كعقوبة القاتل، وكما قلنا مراراً لو كان الساب والقاتل مرتدين لكانت عقوبتهما واحدة أي القتل ردة لا حداً.

نعود إلى القسم الأخير من حديث رسول الله ﷺ :

[سباب المسلم فسوق وقتاله كفر].

(١) فتح الباري: (١١٧/١٥) [الحلبي].

وفي هذا الموضوع لا نريد إحالة أهل التكفير على عمل الصحابة وإجماع الأمة الذي انعقد على عدم اعتبار القاتل مرتداً، وإنما نحيلهم على كتاب الله تعالى الذي عد القاتل أخاً للمؤمنين في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَنْبِأْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة]

والشاهد هنا قوله تعالى:

﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَنْبِأْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة] إلى آخر الآية. أي إذا عفا وليُّ الدم عن الجاني فله أن يطالبه بالدية على أن تكون المطالبة بالمعروف لا يخالطها عنف ولا غلظة، وعلى القاتل أداء الدية إلى العافي بلا مماطلة ولا بخس.

وهذا الحكم الذي شرعه الله من جواز القصاص والعفو عنه إلى الدية تيسير من الله ورحمة حيث وسع الأمر في ذلك، فلم يُحْتَمَّ واحداً منهما.

فمن اعتدى على الجاني فقتله بعد العفو عنه، فله عذاب أليم، إما

بقتله في الدنيا أو عذابه بالنار في الآخرة^(١).

ونحيل أهل التكفير - ثانياً - إلى ما صح من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: «قتل رجل في عهد رسول الله ﷺ، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فدفعه إلى ولي المقتول، فقال القاتل: يا رسول الله، والله ما أردت قتله، فقال النبي ﷺ للولي:

[أما إنه إن كان صادقاً ثم قتلته دخلت النار] فخلاه الرجل، وكان مكتوفاً بنسعة فخرج يجبر نسعته. قال: فكان يسمى ذا النسعة^(٢).

و النسعة: سير من الجلد.

وقد ذكرنا فيما مضى كثيراً من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد على أن اقتتال المسلمين ليس كفراً يخرج عن الملة، والحدود التي شرعها الله سبحانه وتعالى أكبر دليل على ذلك.

ونحيل أهل التكفير - ثالثاً - إلى موقفهم من اقتتال أصحاب رسول الله ﷺ في صفين والجمل، لقد خالفوا أقوال ومعتقدات سلفهم من

(١) ذكرنا فيما مضى كثيراً من الأدلة على أن القاتل لا يرتد عن الإسلام بجريمته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ ۖ ﴾ [الحجرات: ٩].

(٢) رواه أبو داود: كتاب الديات: (٤/١٦٩)، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي - باب الديات: (٤/٢٢) وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

الخوارج، ولم يكفروا علياً ومعاوية ومن كان معهما من الصحابة رضي الله عنهم، كما أنهم لم يذكروا الأدلة التي اعتمدوا عليها في استثنائهم للصحابة مع أنهم اقتتلوا؟!.

وإذا كان سباب المسلم كفراً وقاتله كفراً لماذا جاء سياق الحديث على هذه الصورة، في حين كان من الأفضل أن يكون على الشكل التالي:

«سباب المسلم وقاتله كفر».

أو:

«سباب المسلم وقاتله فسق».

وإذا كان أصحاب شكري قد دأبوا على التناقض والمراوغة، فنحن لن نعرض عن الأدلة القطعية: من كتاب الله سبحانه وتعالى، وما تواتر من سنة المصطفى ﷺ، وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، ومن سار على هديهم من رجال خير القرون.

لن نعرض عن هذه الأدلة كلها ونقلد شاباً استخف بمجموعة من الشباب الذين لا علم عندهم فأطاعوه واتبعوا أمره.

براءة النووي مما نسبوه إليه

قال قوم شكري عن النووي رحمه الله ما يلي:

(لقد كذب على رسول الله ﷺ، وعلى أبي ذر، وعلى الإسلام حيث أن الحديث الذي يشير إليه عن أبي ذر جاء كالاتي في صحيح مسلم:

[عن أبي ذر أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال: ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة.

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:

وإن زنى وإن سرق. قلت:

وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر. قال: فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر.]

فاشترط الحديث الموت على ذلك وهو شرط له دلالته... ولم يذكره النووي... ولكن هذا الحديث رُوي برواية أخرى عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال:

«أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق».

الحديثان رواهما مسلم في صحيحه وفي سياق واحد وهذه الرواية الأخرى تصح شرحاً وضابطاً للرواية التي أشار إليها النووي.

ولكن النووي ضرب صفحاً عن الرواية الأخرى من حديث أبي ذر، وأهمل اشتراط أن يكون ذلك ختام حياة الإنسان، وشطب اشتراط ألا يشركوا بالله شيئاً حتى يسلم له مذهبه الفاسد الممتلئ رغباً وكذباً وحقارة [انظر إلى مثل هذه الأخلاق !!].

إن الجمع الذي جمعه النووي جمع بغير الحق، وجمع من يحطب بليل، ولا يتقي الله فيما يجمع) انتهى كلامهم.

ولا أدري كيف تجرؤوا على اتهام النووي رحمه الله بالكذب وسوء الأمانة في النقل!.

لقد عدت إلى شرح النووي لصحيح مسلم - نشر دار الفكر، - بيروت - كما عدت إلى صحيح مسلم وقارنت بين هذا وذاك، فما وجدته رحمه الله قد حذف عبارة واحدة لا في متون الأحاديث التي أشاروا إليها ولا في شرحه لها.

وحاشا لله أن يكون الإمام النووي كما زعموا، ويكفيه وصف الحافظ ابن كثير له:

(وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري و الانجماح عن الناس على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره، وكان يصوم الدهر ولا يجمع بين

إدامين، وكان غالب قُوْتِهِ مما يحمله إليه أبوه من نوى^(١).

لقد شرح النووي حديثي أبي ذر بأسلوبه الذي يمتاز بالدقة والأمانة والورع، ولم يشطب اشتراط ألا يشركوا بالله شيئاً - كما زعم شكري -، وسننقل فيما يلي بعضاً من شرحه لهذين الحديثين ليعلم القراء حقيقة أخلاق هذه الجماعة، ومدى بعدها عن الحق، قال النووي رحمه الله:

(وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد أجمع عليه المسلمون.

فأما دخول المشرك النار فهو على عمومته فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي واليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملّة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة فإن عفي عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة والله أعلم.

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (٢٧٨/١٣). أحداث: (٦٧٦ هـ).

ومن ورع النووي أنه ما كان يأكل من فاكهة دمشق لأنها كثيرة الوقف وأملاك من تحت

الحجر.

وأن قوله ﷺ: «وإن زنى وإن سرق» فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار، وإنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود في الجنة^(١).

وإذن: لقد فرق النووي بين من مات مشركاً، وبين من مات وهو لا يشرك بالله شيئاً، وكان رحمه الله [رغم سعة علمه، وعلو كعبه في هذه العلوم] قد لخص لنا من خلال هذين الحديثين وغيرهما عقيدة الصحابة رضي الله عنهم ومن سار على دربهم من أئمة خير القرون.

ومن الذين كان النووي ينقل عنهم:

[ابن عباس، وسعيد بن جبير، والزهري، والحسن البصري، وأبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي وغيرهم وغيرهم].

وكان قوم شكري يعلمون أن النووي متبع وليس مبتدعاً، ولهذا عمموا هجومهم على النووي وغيره من علماء أهل السنة، ومن ذلك قولهم: (... ولكن درج هو - أي النووي - وكثير من الكذابين على مثل هذا الادعاء ليزينوا به باطلهم ويجملوا به قبيح قولهم).

وفي مواضع أخرى ذكروا - بالشم المقذع - عدداً من علماء خير

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: (٢/٩٧)، دار الفكر، بيروت.

القرون.

رحم الله الإمام النووي رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، لقد وفقه الله
في كشف أباطيل الغلاة المتنطعين.

الفصل السادس:

أصول وتصورات أخرى

المبحث الأول : المهدي المنتظر .

المبحث الثاني : دعوة إلى الأمية .

المبحث الثالث : موقفهم من التاريخ الإسلامي .

المبحث الرابع : متى يبدأ دور هذه الجماعة .

المبحث الأول

المهدي المنتظر

❖ عرض أقوال الجماعة.

❖ مناقشة أقوالهم:

الوجه الأول: صحة الأخبار التي وردت عن ظهور

المهدي.

الوجه الثاني: ظهور المهدي من علامات الساعة التي

استأثر الله بعلمها.

الوجه الثالث: تناقضات مؤسفة.

الوجه الرابع: دروس وعبر من التاريخ.

عرض أقوال الجماعة

من الأدلة التي يحتجون بها على أنهم جماعة آخر الزمان - أي جماعة المهدي - ما يلي:

١- (كان موعد نزول رسول الله ﷺ بعدما فسد أهل الأرض عربهم وعجمهم كما في النص الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك لأن الفساد ملأ الأرض. وهذه سنة ثابتة أن الله تعالى ينزل القطر من بعدما قنطوا وينشر رحمته، وأنه ينزل نصره على رُسُلِهِ إذا استياسوا).

وسنة الله كذلك أن لا يأذن لجماعة الحق أن تقوى إلا عندما يظهر الفساد ويزداد. وكل من في الأرض ممقوتون بعصيانهم لله ورسوله. وهذا ميقات ظهور الجماعة المسلمة لإقامة دولة الإسلام).

٢- (النصوص تؤكد أن جماعة الحق اليوم أصبحت وشيكة من الدجال ونزول عيسى بن مريم، ونرجو الله أن نكون خلفاً من حواربيه، فسيطرة اليهود على الأرض وتمكنهم من رقاب النصارى والمشركين يؤكد قرب الدجال وقرب نزول عيسى بن مريم).

٣- ويتقلون من الرجاء إلى التأكيد في قولهم:

(وإشارات كبيرة تؤكد أننا سندرك عيسى بن مريم، وأنا جماعة الحق التي تستحق الخلافة في الأرض على هدي النبوة، ونرجو الله أن يجد فينا خلفاً من

حواريه) (١).

٤- ونحن جماعة الحق في آخر الزمان تشملنا الآياتان:

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ...﴾ [الجمعة: ٣]

و﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ [المائدة: ٥٤]

٥- وترى هذه الجماعة أن قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [٢٨] [الفتح]

ينطبق على جماعة آخر الزمان - أي عليهم - ويزعمون أن محمداً ﷺ توفاه الله دون أن يظهر الإسلام على جميع الأديان، وهذا يعني أن جماعتهم هي وحدها التي سوف يحقق الله على يدها معاني هذه الآية الكريمة. انظر إلى قولهم:

(فقد كلفهم الله - أي جماعة آخر الزمان - سبحانه وتعالى من الناحية القدريّة التي يعلمها والتي يريد بها يكلف به صحابة النبي ﷺ. حيث سوف يتم على يد جماعة آخر الزمان ظهور الإسلام على كافة الأديان والملل ويعبد الله لا يشرك به شيئاً، ولا يبقى بيت من وبر أو مذر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل

(١) رسالة التوسمات. كيف تعمل الجماعة الإسلامية اليوم.

ذليل، ويتم الله قدره ونعمته على عباده وينتصر هو ورسله وحزبه على العالمين ويمكن لهم في الأرض كما وعد بذلك^(١).

لهذا ولغيره كان أعضاء هذه الجماعة يجزمون بأن قائدهم شكري هو مهدي هذه الأمة المنتظر، ولن تستطيع السلطة قتله، وسوف يذهب كل جهد تبذله في هذا السبيل أدراج الرياح لأن الله سبحانه وتعالى سوف يحفظه ليجاهد اليهود والنصارى، ويرفع رايات النصر في كل صقع من أصقاع العالم الفسيح، ويظهر الله به دينه على كافة الأديان والملل، ويمكن له في الأرض ما شاء أن يمكن.

وقد علمنا من دعاة صادقين أن أعضاء جماعة شكري كانوا يناقشونهم بمثل هذه الأفكار، بل كانوا يؤكدون بأنه لو تم إعدام قائدهم لوجب عليهم إعادة النظر بتصورات ومفاهيم الجماعة.

وساعدت السلطة المصرية من جهتها على ترسيخ هذه المعاني في عقول وأفئدة هذه الجماعة عندما تركت شكري و من معه يعتدون على من أسموهم منشقين دون أن توجه لهم - كعادتها - ضربة عنيفة أو تعاقبهم على الأقل عقاباً رادعاً^(٢).

وجملة القول: فلقد كانت قضية المهدي من أهم الموضوعات عند هذه

(١) رسالتهم الحجيات.

(٢) سوف نتحدث عن موقف السلطة من هذه الجماعة في فصل قادم من هذا الكتاب إن شاء الله.

الجماعة، واحتلت حيزاً واسعاً من رسائلهم، وأسهبوا في حديثهم عن الفترة التي تسبق ظهور المسيح عليه السلام كانحسار الفرات عن جبل من ذهب، وظهور المهدي والمعركة الفاصلة بين عدو الله الدجال ونبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، وانجلاء المعركة عن مقتل الدجال، ثم تحدثوا عن خروج يأجوج ومأجوج ودورهما الإجرامي بعد موت المسيح عليه السلام.

ويشعر كل من يعايش هذه الجماعة أو يطلع على رسائلها أنه لا أمل للمسلمين بالنصر البتة إلا بظهور المهدي، وكل جهد يبذله المسلمون اليوم من أجل أن يكون الدين كله لله ليس من ورائه أي فائدة، بل يزعمون أن دور الجماعة الإسلامية لا يبدأ إلا بعد أن يدمر الكافرون بعضهم بعضاً، ومن سنن الله - على حد زعمهم - أن جهاد المسلمين لا يكون إلا بالأسلحة القديمة كالسيوف والخنجر وما إلى ذلك.

مناقشة أقوالهم

الوجه الأول - صحة الأخبار التي وردت عن ظهور المهدي

ليس شكري مصطفى أول رجل في تاريخنا الإسلامي يزعم بأنه مهدي هذه الأمة المنتظر، لقد سبقه كثيرون كان من أشهرهم:

* محمد بن تومرت الباطني الظالم، وهو رجل كذاب أباح حريم المسلمين وسي ذراريهم وأخذ أموالهم، وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء ويأمرهم أن يقولوا للناس أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ثم يردم عليها لئلا يكذبه بعد ذلك وتسمى بالمهدي المعصوم.

* الملحد عبید الله بن ميمون القداح وكان جده يهودياً فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ واستفحل أمره إلى أن استولت ذريته على بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام، وكانوا من أشد الناس عداوة لله ولرسوله. ولم يزل أمرهم ظاهراً إلى أن أنقذ الله الأمة ونصر الإسلام بصلاح الدين الأيوبي، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم وأبادهم وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمانهم.

* خرج رجل بالهند ادعى أنه المهدي المنتظر واتبعه خلق كثير، وظهر أمره وطار صيته ثم إنه مات بعد مدة وأن أتباعه لم يرجعوا عن اعتقادهم وكانوا يعرفون

بالمهدوية، وربما سُمّوا بالقتالية لأن كل من قال لهم أن اعتقادكم باطل قتلوه^(١) حتى أن الرجل الواحد منهم يكون بين الجمع الكثير من المسلمين فإن قيل له إن اعتقادك باطل قتل القائل ولا يبالي أيقتل أو يسلم^(٢).

* محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واشتهر بالعلم والزهد فلقب بالنفس الزكية، وكان من سادات بني هاشم علماً وشجاعة وكرماً، سماه أهل بيته بالمهدي، وظن أنه كذلك، وقيل: إن اسمه واسم أبيه [محمد بن عبد الله] من أهم الأسباب التي أقنعت به بأنه مهدي هذه الأمة المنتظر، وقد بايعه كثير من الناس، وتوارى عن الأنظار بعد أن شدد الخليفة المنصور في طلبه، ونجح الخليفة العباسي في قتل النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد معارك طاحنة كادت أن تغير مسار التاريخ.

وأدت هذه الدعوات - وغيرها مما لم نذكره كثير جداً - إلى سفك الدماء، وهتك الأعراض، ونهب الأموال بالباطل، وتفشي الظلم.

(١) لاحظ أوجه الشابه بين دعاة هذه الحركة، وجماعة شكري مصطفى رغم أن بينهم ما يقارب خمسة قرون.

(٢) الإشاعة لأشراط الساعة، للشريف محمد البرزنجي المدني، طباعة دار الكتب العلمية في بيروت، (ص: ١٢٠ و ١٢١). وهذا الذي زعم بأنه المهدي في الهند هو: محمد الجونفوري، وكان ظهوره سنة خمس وتسعمائة من هجرة المصطفى عليه الصلاة والتسليم [عن كتاب الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، لمؤلفه محمد صديق حسن القنوجي البخاري، (ص: ٩٠)].

ولعل فشل هذه الحركات من أهم الأسباب التي دعت بعض العلماء إلى القول بتضعيف الأحاديث النبوية التي تشير إلى ظهور المهدي المنتظر في آخر الزمان، غير أن معرفة الحديث الصحيح من الضعيف شيء، وإساءة فهم الحديث شيء آخر، وينبغي أن لا يكون للآخر أي أثر على الأول.

ونحن فيما يلي سوف لا نرد على جماعة شكري - فهم يؤمنون بصحة أحاديث المهدي، وإن كانوا يسيئون تأويلها -، وإنما سنرد على كل من يضعف أحاديث المهدي، في القديم والحديث، ويرى أنها خرافة لا تصح سنداً ولا متناً.

أقول وبالله التوفيق:

إن من كان عنده أدنى معرفة بعلوم الحديث يعلم بأن رسول الله ﷺ قد أخبر بخروج رجل صالح من أمته في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وهو - أي المهدي - من قريش، ومن أهل بيت رسول الله ﷺ، واسمه محمد بن عبد الله، وتكون مدة خلافته سبع سنين، وفي رواية تسع ولا تدخر الأرض في عهده من نباتها شيئاً، ويجيء الرجل إليه فيقول يا مهدي أعطني فيحشي له في ثوبه ما استطاع أن يحمل. ومن أهم ما يحققه الله على يديه فتح القسطنطينية بالتكبير والانتصار على النصارى، ثم ينزل المسيح عيسى بن مريم، فيصلي مأموماً بالمهدي، ويقاوم المسيح الدجال فيقتله ويطهر الأرض من دنسه وأوضاره.

ومما ينبغي التأكيد عليه أن معظم كتب الحديث لا تخلو من أخبار المهدي والصحيح منها كثير غير أنها لا تخلو من روايات ضعيفة وموضوعة، وقد وردت أخبار المهدي في الصحيحين دون التصريح باسمه.

وإذا كان المجال^(١) لا يسمح بذكر هذه الأحاديث، وبيان درجتها من الصحة، فسوف أكتفي بذكر أقوال بعض العلماء المحققين، وفي الصفحات القادمة سأشير إلى بعض هذه الأحاديث عند الحاجة إلى ذلك.

من العلماء الذين صححوا أحاديث المهدي:

(العقيلي، وأبو حسن الأبري، والقرطبي، وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والذهبي، والمنذري، والهيثمي، والزرقاني، والسيوطي، والسخاوي، وأحمد بن حجر الهيثمي، وابن حجر العسقلاني، والمبار كفوري، وشمس الحق آبادي، وعلي بن سلطان محمد القاري، والشعراني، والكشميري، والخطابي، والشوكاني، ومحمد بن إسماعيل الصنعاني، والبوصيري، ومحمد بن أحمد السفاريني، ومحمد بن جعفر الكتاني، وأبو العلاء السيد إدريس العراقي، وأبو الطيب صديق أحمد حسن خان، والسيد محمد الشهروزي، وأبو عبد الله محمد جسوس، ومحمد العربي الفاسي، وأبو

(١) لا يتسع المجال لأن قضية المهدي ليست من أهم أصول الجماعة، وأخشى من الإطالة المملة إذا توسعت في الرد على غير أصولهم.

زيد عبد الرحمن الفاسي، والشيخ مرعي^(١).

وسوف ذكر أقوال ثلاثة من هؤلاء العلماء الأفاضل في هذه المسألة:

١- السفاريني: قال الشيخ العلامة محمد بن أحمد السفاريني في كتابه [لوامع الأنوار البهية و سواطع الأسرار الأثرية لشرح الدررة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية]:

(وقدر روى عن ذكر من الصحابة وغير ما ذكر منهم بروايات متعددة، وعن التابعين ومن بعدهم ما يفيد مجموعته العلم القطعي. فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة، ونقل العلامة الشيخ المرعي في كتابه [فوائد الفكر] عن محمد بن الحسين أنه قال:

قد تواترت الأحاديث واستفاضت بكثرة روايتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته ﷺ^(٢).

٢- الشوكاني: ذكر الشوكاني تسعة وعشرون حديثاً ما بين صحيح وضعيف منجبر في نزول المهدي، ثم قال: منها ما هو مذكور في

(١) انظر لوامع الأنوار البهية: (٢/ ٨٤)، وكتاب المهدي حقيقة لا خرافة لمؤلفه: محمد بن أحمد ابن إسماعيل.

(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، لمؤلفه محمد صديق حسن القنوجي البخاري، (ص: ١٤٦ و ١٤٧ و ١٦٠)، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

أحاديث الدجال، ومنها ما هو مذكور في أحاديث المهدي المنتظر، وتنضمُّ إلى ذلك أيضاً الآثار الواردة عن الصحابة فلها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك، ثم ساقها ثم قال:

(وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع فتقرر أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، والأحاديث الواردة في الدجال متواترة، والأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم متواترة)^(١).

٣- شيخ الإسلام ابن تيمية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سفره النفيس [منهاج السنة النبوية]:

(الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وأم سلمة وأبي سعيد وعلي رضي الله عنهم جميعاً)، ثم قال شيخ الإسلام:

(وهذه الأحاديث غلطٌ فيها طوائف:

طائفة: أنكروها واحتجوا بحديث ابن ماجة أن النبي ﷺ قال:

«لا مهدي إلا عيسى بن مريم» وهذا الحديث ضعيف^(٢)، وقد اعتمد أبو محمد

(١) المصدر السابق - الإذاعة.

(٢) قال الألباني: منكر، وكذا قال الذهبي في (الميزان) وقال الصنعاني: موضوع، ونقل =

ابن الوليد البغدادي وغيره عليه، وليس مما يعتمد عليه، ورواه ابن ماجة عن يونس عن الشافعي، والشافعي رواه عن رجل من أهل اليمن يقال له محمد بن خالد الجندي وهو ممن لا يحتج به، وليس هذا في مسند الشافعي، وقد قيل: إن الشافعي لم يسمعه من الجندي، وإن يونس لم يسمعه من الشافعي.

الثاني: أن الإثني عشرية الذين ادعوا أن هذا هو مهديهم اسمه محمد بن الحسن، والمهدي المنعوت الذي وصفه النبي ﷺ اسمه محمد بن عبد الله، ولهذا حذفت طائفة لفظ الأب حتى لا يناقض ما كذبت، وطائفة حرفته فقالت جده الحسين، وكنيته أبو عبد الله. إلى أن قال شيخ الإسلام ما معناه:

(الثالث: أن طوائف ادعى كل منهم أن المهدي المبشر به مثل مهدي القرامطة وابن التومرت ومثل عدة آخرين ادعوا ذلك: منهم من قبل ومنهم من ادعى ذلك فيه أصحابه، وهؤلاء كثيرون لا يحصى عددهم إلا الله، وربما حصل بأحدهم نفع لقوم وإن حصل به ضرر لآخرين كما حصل بمهدي المغرب انتفع به طوائف وانضرت به طوائف، وكان فيه ما يحمد وكان فيه ما يذم، وبكل حال فهو وأمثاله خير

=السيوطي في [العرف الوردى في أخبار المهدي] الحاوي: (٢/ ٢٧٤) عن القرطبي أنه قال في [التذكرة]: إسناده ضعيف. والأحاديث عن النبي ﷺ في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة أصح من هذا الحديث فالحكم بها دونه، قال الألباني: وقد أشار في الفتح إلى رد هذا الحديث لمخالفته لأحاديث المهدي. اهـ، السلسلة الضعيفة، (ص: ١٠٣) [عن كتاب المهدي حقيقة لا خرافة].

من مهدي الرافضة الذي ليس له عين ولا أثر، ولا يعرف له حس ولا خبر، ولم ينتفع به أحد لا في الدنيا ولا في الدين بل حصل باعتقاد وجوده من الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، وأعرف في زمننا غير واحد من المشايخ الذين فيهم زهد وعبادة يظن كل منهم أنه هو المهدي، وربما يخاطب أحدهم بذلك مرات متعددة ويكون المخاطب له بذلك الشيطان وهو يظن أنه خطاب من قبل الله، ويكون أحدهم اسمه: أحمد بن إبراهيم فيقال له: محمد وأحمد سواء، وإبراهيم الخليل هو جد الرسول ﷺ وأبوك إبراهيم، فقد واطى اسمك واسم أبيك اسم أبيه، ورغم ما وقع لهؤلاء من الجهل والغلط كانوا خيراً من منتظر الرافضة^(١).

وبعد:

هؤلاء هم علماء أهل السنة والجماعة الذين صححوا أحاديث المهدي، وهم من هم علماء وفضلاً ومعرفة بحديث رسول الله ﷺ.

أما الذين ضعفوا هذه الأحاديث فهم إما أن يكونوا ليسوا من علماء الحديث كابن خلدون أو من أصحاب البدع كالمعتزلة ومن نحنا من نحوهم كأصحاب المدرسة الإصلاحية.

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الوجه الثاني - ظهور المهدي من علامات الساعة التي استأثر الله بعلمها

من أهم الأدلة التي اعتمد عليها شكري في إثبات أن جماعته هي جماعة آخر الزمان: انتشار الفساد في الأرض، والله سبحانه وتعالى أرسل خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم أجمعين بعد أن فسد أهل الأرض عربهم وعجمهم!!
أبهذه البساطة تتقرر قضية من أخطر قضايا العقيدة؟!.

صحيح أن الله تعالى ينزل الغيث بعد أن يقنط الناس.

وصحيح أن دعاة التجديد يظهرون بعد انتشار الفساد في الأرض، ولكن لماذا يكون هذا المجدد بالتأكيد هو مهدي هذه الأمة، ولا يكون مصلحاً كعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما من أعلام المسلمين الذين أعز الله بهم دينه؟!.

ولماذا يكون عصرنا بالتحديد هو العصر الذي يظهر فيه المهدي فالمسيح عيسى بن مريم والمسيح الدجال ثم تقوم القيامة؟!.

إن الله تعالت أسماؤه وصفاته استأثر بعلم الساعة، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه سواء كان رجلاً صالحاً أو نبياً مرسلًا.

قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلِهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]

وقال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف]

وقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

وقال:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب]

وإذا كان الذي دفعهم إلى هذا الاعتقاد ظهور كثير من علامات الساعة التي أشار إليها المصطفى ﷺ في أحاديث صحاح، فليعلموا أن بعثة محمد ﷺ من علامات الساعة. قال عليه أفضل الصلاة والتسليم:

«بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بإصبعيه فيمدهما»^(١).

(١) رواه البخاري: (١٣٣/١٤) الفتح، ومسلم: (٢٠٨/٨)، وابن ماجه: (١٣٤١/٢)، الحديث (٤٠٤)، والدرامي: (٣١٣/٢).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«بعثت أنا والساعة كهاتين، يعني إصبعين».

وفي رواية سفيان:

(وقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى) وفي رواية فضيل بن سليمان ويعقوب (والوسطى والتي تلي الإبهام).

وحاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها. قال الضحاك: أول أشراتها بعثة محمد ﷺ، والحكمة في تقديم الأشراف إيقاظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد^(١).

وعن النواس بن سمعان^(٢) قال ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فحَفَضَ فيه ورفَعَ حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فحَفَضَتْ فيه ورفَعَتْ حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه

(١) فتح الباري: (١٤/١٣٥) الحلبي وحديث أبي هريرة رواه البخاري في صحيحه.

(٢) حديث النواس رواه مسلم في صحيحه: (١٨/٦٣) [صحيح مسلم بشرح النووي]، كما رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

طائفة كآني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»... ثم مضى رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن خروجه ومدة لبثه في الأرض، ونزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهكذا.

قطط: أي شديد جعودة الشعر.

أخوفني عليكم: أي أخوف مخوفاتي عليكم.

أنا حجيجه: أي مُحاجُّه ومدافعه، ومُبطل أمره من غير افتقار إلى مُعين.

وإذا فرسول الله ﷺ أخبر أصحابه رضوان الله عليهم بقرب الساعة، وظنوا من شدة ما حذرهم من الدجال بأنه أصبح قريباً من المدينة، وقال لهم: إذا مات ابن آدم قامت قيامته.

لكنه ﷺ لم يقل لأصحابه: سيخرج المهدي أو الدجال أو المسيح بعد قرن أو سنة أو شهر أو يوم لأن ذلك من الأمور التي استأثر الله بعلمها ليشعر المسلم بقربه من ربه أينما حل أو ارتحل، وأن الموت أقرب إليه من شرك نعله، فلا يتواكل ولا يقصّر في عبادته ثم يزعم أنه سيتوب بعد حين، وهذا جهل منه لأنه لا يعرف متى تأتي منيته.

فكيف يدعي شكري وجماعته بمعرفة بعض الأمور التي كان لا يعرفها سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، ولا من سبقه من أنبياء الله

ورسله؟!.

كيف زعم أن هذه جماعته جماعة آخر الزمان، وأنه مهدي هذه الأمة المنتظر آطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟!.

الوجه الثالث - تناقضات مؤسفة

خالف جماعة شكري هذه المرة سلفهم أهل الاعتزال الذين أنكروا حجية أحاديث المهدي، ووقعوا في تناقضات لا يسندها دليل ولا يقرها عقل ومن أهمها ما يلي:

١- المهدي من أهل بيت رسول الله ﷺ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(١).

قال الخطابي: العترة ولد الرجل لصلبه، وقد يكون العترة أيضاً الأقرباء وبنو العمومة، ومنه قول أبي بكر الصديق ﷺ يوم السقيفة: نحن عترة رسول الله ﷺ. اهـ، وقال في النهاية (عترة الرجل أخص أقاربه، وعترة النبي ﷺ بنو عبد المطلب، وقيل: قريش، والمشهور المعروف أنهم الذين حرمت عليهم الزكاة) اهـ.

فهل كان شكري مصطفى من عترة رسول الله ﷺ ومن ولد فاطمة؟!.

(١) رواه ابن ماجه كتاب الفتن: (١٣٦٨/٢) والحاكم وأبو داود كتاب المهدي: (١٠٧/٤) واللفظ له. قال الشيخ ناصر الدين الألباني: [هذا سند جيد رجاله كلهم ثقات، وله شواهد كثيرة].

لم نجد في رسائلهم جواباً لهذا السؤال، بل ولا نعلم أنهم طرقتوا هذه المسألة في مناقشاتهم الكثيرة مع الآخرين، وليس من السهل إثبات نسب شكري وأنه من ولد فاطمة أو من بني عبد المطلب أو حتى من قريش.

٢- عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، زاد في حديث فطر: يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(١).

والحديث يعني أن اسم المهدي: محمد بن عبد الله، ومن المعلوم أن اسم زعيم هذه الجماعة شكري أحمد مصطفى!!.

فكيف يستقيم هذا مع ذلك اللهم إلا أن يقول أصحابه: إن اسمه محمد شكري، واسم أبيه أحمد وهو يعني عبد الله؟!.

وحتى مسألة الاسم لم نجد جواباً عليها فيما وصلنا من أخبار هذه الجماعة.

٣- عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه أبو داود كتاب المهدي: (٤ / ١٠٦). قال المنذري: [وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح] وسكت عنه أبو داود والمنذري وابن القيم. وصححه الألباني في المشكاة [عن رسالة المهدي حقيقة لا خرافة].

«المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة»^(١).

قال ابن كثير: ومعنى قوله [يصلحه الله في ليلة] أي يتوب عليه ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك.

وهذا الشرط يخالف ما عليه شكري لأنه قائد هذه الجماعة منذ عدة سنين، بل ويزعم أن كل من بلغته دعوته ولم يبایعه فليس مسلماً.

٤- عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبایعونه بين الركن والمقام فيبعث إليهم جيش من الشام فيخسف بهم بالبيداء فإذا رأى الناس ذلك أتته أبدال الشام وعصائب العراق فيبایعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليه المكي بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس سنة نبهم ﷺ ويلقى الإسلام بجرانه إلى الأرض يمكث تسع سنين وفي رواية سبع»^(٢).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: (١/ ٨٤) وابن ماجه في كتاب الفتن باب خروج المهدي: [الحديث رقم: (٤٠٨٥)] (٢/ ١٣٦٧)، وذكره البخاري في التاريخ الكبير وقال: في إسناده نظر: (١/ ٣١٧١)، وذكره ابن حبان في الثقات ووثقه العجلي، وقال ابن معين وأبو زرعة لا بأس به.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب المهدي، الحديث رقم (٤٢٦٦)، (١١ / ٣٧٥ - ٣٧٨)، وأخرجه أحمد وذكره ابن الأثير في (جامع الأصول). وقال: [وقد أخرج مسلم والترمذي معنى الخسف =

يبعث إليه بعث من الشام: أي يرسل إلى حربه جيش من الشام.
 بالبيداء: اسم موضع كما جاء في رواية أخرى، وهي قدام ذي الحليفة فإذا رأى
 الناس ذلك: أي ما ذكر من خرق العادة وما جعل للمهدي من العلامة.
 (أتاه أبدال الشام): أي الأولياء والعباد.

(وعصائب العراق): أي خيارهم يأتون لبيعته.

(ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب... الخ الحديث): أي يظهر رجل من
 قريش أخواله كلب فينازع المهدي في أمره، ويستعين عليه بأخواله من بني كلب،
 فيبعث جيشاً إلى المبايعين للمهدي، فيغلب المبايعين للمهدي على ذلك الجيش
 ويعمل المهدي في الناس بسنة النبي ﷺ.

(ويلقي الإسلام بجرانه): أي يستقر قراره ويستقيم^(١).

ومن أهم الشواهد في حديث أم سلمة ما يلي:

أ- يخرج الناس المهدي ويباعونه وهو كاره، وواقع شكري يناقض ذلك تماماً:

=بالجيش الذي يؤم البيت مفرداً من هذه القصة]. وقال الشوكاني: [وفي الصحيح أيضاً طرف
 منه، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح].
 انظر الفتح الرباني: (٥٢ / ٢٤)، والإذاعة، (ص: ١١٨)، وعلامات يوم القيامة لابن كثير،
 (ص: ٢٠).

(١) علامات يوم القيامة لابن كثير تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن.

لقد أسس جماعة ووضع لها أصولاً وتصورات تخالف أصول وتصورات أهل السنة والجماعة، ونصب نفسه إماماً للمسلمين وأخذ البيعة لنفسه وعدها من أركان الإسلام، ومن نقضها كان مرتداً حلال دمه وماله، وكان كثير من أتباعه يبايعه اتقاءً لشره، وسنذكر أمثلة على ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

ب- يخرج المهدي من المدينة إلى مكة، وقال بعض العلماء أن المهدي من أهل المدينة وقال آخرون: إنه من أهل بلاد الشام، كما جاء في أحاديث أخرى، أما أن المهدي من مصر، فلا أعلم رواية تفيد هذا المعنى، كما أن هذه المسألة لم تطرق فيما وصلنا من رسائل الجماعة.

ج- يسارع الناس في مبايعة المهدي بعد أن يخسف الله بخصومه الأرض في البداء -أي بين مكة والمدينة-، ولا بد من ظهور هذه المعجزة في ذلك المكان قبل إعطاء البيعة له.

د- يعمل المهدي بسنة الرسول ﷺ، وليس بالأهواء والضلالات، ولا يشذ عن عقيدة أهل السنة والجماعة قيد أنملة، فلا يتدع أصولاً وتصورات ما أنزل الله بها من سلطان.

وجملة القول: ليس في أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الواردة في المهدي ما ينطبق على شكري مصطفى، فكيف يزعم بعد ذلك أنه اعتمد على الأحاديث نفسها في ادعائه أنه المهدي المنتظر في هذه الأمة؟!.

وكيف وقع في مثل هذه التناقضات المؤسفة دون أن يضع لها حلولاً؟!.

الوجه الرابع - دروس وعبر من التاريخ

١- ثبت بالدليل القاطع أن شكري مصطفى ليس بمهدي هذه الأمة المنتظر، لأن الله جلّ وعلا لم يخسف بخصومه أرضاً ولا جبلاً، ولأن السلطة حكمت عليه بالإعدام شتقاً، وتم تنفيذ الحكم به وبأربعة من كبار قيادة جماعته في [١١/٤/١٣٩٨هـ] وشاهد الناس داخل مصر وخارجها عبر وسائل الإعلام عملية الإعدام، وما علمنا أن أحداً من جماعته قد قال: لم يقتل زعيمنا وإنما شبه للناس به، وأنه دخل السرداب كمهدي الراضة المزعوم وسيعود بعد غيبة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وعلى العكس من ذلك علمنا أن عدداً من هذه الجماعة عادوا إلى رشدهم، وعلموا بطلان ما كانوا يدعون إليه، فتخلوا عن الجماعة وتصوراتها الحائدة عن منهج الله، وإن كان هذا العدد قليلاً.

ومما لا شك فيه أن الخسارة كانت فادحة لأن السلطة اتخذت من هذه العملية وسيلة لإرهاب الإسلاميين، وزجت بمجموعة كبيرة من الأبرياء في سجونها وهم الذين لا يعرفون شكري ولا جماعته، واستنشرت وسائل إعلامها لحرب شريحة واسعة من أبناء هذا الشعب المضطهد، وليس لحرب جماعة منحرفة زين لها الشيطان سوء عملها فرأته حسناً.

٢- تسلل فلول من جماعة شكري إلى جماعة أخرى، وأعلنوا ندمهم عن كل ما صدر منهم من أقوال وأفعال مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، غير أنهم لم يستطيعوا التخلص من فكرة المهدي المنتظر، فبدؤوا يتحدثون عن هذه القضية

ويرددون الأحاديث الواردة في ذلك، ثم اتجهت الأنظار إلى شخص في الجماعة الجديدة فزعموا أن أحاديث المهدي المنتظر تنطبق عليه، وما زالوا يتحدثون عن القرائن والمنامات حتى أصبح الخيال حقيقة والمستحيل ممكناً في عقول هؤلاء الشباب الأغرار، فاتجهوا نحو بيت الله الحرام، وفي اليوم الأول من القرن الهجري الجديد ١٤٠٤ أعلنوا عن مهديهم المنتظر، ورافقت لعلعة الرصاص هذا الإعلان، وتحول بيت الله الحرام إلى ساحة معركة ضروس دامت رحاها أكثر من أسبوعين.

و يا لها من فتنة عمياء ومحنة هوجاء أسفر عنها إزهاق أرواح أعداد كبيرة من المسلمين، وأضرار فظيعة لحقت بالكعبة المشرفة وأعمدة البيت الحرام ومنارته الشاهقة.

وأخيراً قتل المهدي المنتظر ومعظم الذين كانوا حوله، وتم إعدام آخرين من أصحابه، وبعد هذه المجزرة الرهيبة علم أصحاب هذه الدعوة خطأهم، وأدركوا أنهم تسرعوا في أمر لا ينفع فيه إلا الروية والأناة.

٣- من المؤسف جداً أن المسلمين اليوم قلما يتعظون من مثل هذه الأحداث المأساوية، وأضرب مثلاً على ذلك القصتين التاليتين:

الأولى: جاءني قبل خمس سنوات أحد الأصدقاء العاملين في الحقل الإسلامي، وسألني عما أعلم من أدلة وبراهين عن المهدي المنتظر فذكرت له الأحاديث النبوية الواردة في هذه المسألة، وبينت له كيف استغلت هذه القضية أبشع

استغلال في تاريخنا الإسلامي، فقاطعني أكثر من مرة وما كان عنده شيء يرد به علي سوى العواطف التي لا يسندها أي دليل.

وعندما وجدت أنه لا فائدة من الحوار مع صاحبي، واستغربت منه هذا الاهتمام قلت له: لا بد أن عندك جديداً في هذا الأمر؟!.

وبعد أن أبدى تحفظه وتخوفه من انتشار الأمر قال:

هناك شاب من فلسطين المحتلة يقيم في مدينة دمشق الشام، وقد رأى أهله منامات كثيرة مفادها أن ابنهم هو مهدي هذه الأمة المنتظر، وقد رأى أبوه - وهو رجل صالح - رسول الله ﷺ في المنام وبشره بهذا الخبر، وخشي الأهل على ابنهم، فخرجوا به من دمشق إلى عمان، فالضفة الغربية من فلسطين المحتلة، وهو على وشك أن يعلن عن دعوته ويطلب البيعة لنفسه.

وحاولت مرة أخرى إقناع صاحبي بخطورة مثل هذه الأفكار ولكن هيئات فقد أصبحت هذه القضية أمله الوحيد بعد أن يئس من كل شيء.

الثانية: هناك مدرس مصري لمادة التربية الإسلامية يعمل في دول من دول الخليج، وقد استولت على عقله فكرة المهدي المنتظر، وبعد حين من الزمن أخذ يحدث خاصة أصدقائه من المدرسين وغيرهم عن مهديه المنتظر، وأنه قد أعطاه البيعة، ودعوته ما تزال سرية، وسوف يظهر أمره بعد عامين، وحاول زملاؤه إقناعه بفساد قوله، ولكن هيئات، فلقد كان الرجل صلباً ليس عنده أدنى شك فيما يعتقد ويؤمن به.

وبعد عامين سارع المدرس إلى تقديم استقالته إلى وزارة التربية، وعاد إلى مصر ليكون أول من يناله هذا الشرف العظيم!!.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المدرس لا ينتمي لجماعة شكري، وإنما هو أمة أخرى. لقد كان صوفياً وعنده شيء من التشيع، ومع ذلك فمهديه ليس كمهدي الرافضة.

ولا أدري ما هو مصير مهدي صاحبي، كما أنني لا أدري ما هو مصير مهدي المدرس المصري؟!.

ترى هل يفاجئنا أحدهما أو كلاهما بمأساة جديدة كتلك المأساة التي شهدتها نيجيريا قبل سنة أو يزيد قليلاً، وانتحت بمحنة أليمة، ومذبحة عظيمة شملت الذين تأثروا بالمهدي المزعوم وصدقوه، كما شملت الدعاة الذين لم يتأثروا به ولم يصدقوه.

٤- وقبل أن أختم حديثي عن مسألة المهدي المنتظر أنصح إخواني المسلمين بما يلي:

أ- إن ظهور المهدي لا يكون عن طريق المنامات مهما كانت، ومهما قيل عن صلاح أصحاب هذه الرؤى، لأن في ذلك مخالفة صريحة للأدلة الشرعية، ولإجماع أهل العلم من رجال خير القرون. فحذار حذار من منامات وأقوال أصحاب البدع والأهواء وما أكثر وأوسع انتشارها في عالمنا الإسلامي.

ب- إن ظهور المهدي يتم عند موت خليفة - كما جاء في الحديث الذي روته أم سلمة- فأين هذا الخليفة في واقعنا المعاصر، وهل هناك من يقبل أن يسمي نفسه خليفة؟!

ومن جهة ثانية: فلن يحقق المهدي خلال سبع أو تسع سنين ما لم يحققه رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة.

ومن جهة ثالثة: فدور المهدي سيكون من خلال قيادته لهذه الأمة، ولا أحسب أننا في مستوى هذا الشرف العظيم..ولا أحسب أننا مؤهلون تربوياً لنكون جنوداً في جيش المهدي، ومع ذلك لا أخوض في تحديد هذه القضية التي استأثر الله سبحانه تعالى بعلمها.

ج- إن الذين يرفعون مثل هذه الشعار ثلاثة أصناف من الناس:

* **الصنف الأول:** وهم أهل البدع والأهواء من الخوارج والرافضة، ومن نهج نهجهم واقتفى أثرهم في هذا العصر. إنهم سيحلون دماء المسلمين ويكفرونهم بالمعاصي، ولهذا كان تاريخهم تاريخ ثورات وفتن، وليس لدماء المسلمين عندهم أي حرمة.

ويجب علينا أن نحصن صفوف أهل السنة والجماعة من انحرافاتهم، ولا ندع لهم ثغرة يتسللون من خلالها، كما أنه من حقهم علينا أن نجادلهم بالتي هي أحسن لعلهم يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى.

* الصنف الثاني: يغلب عليهم الجهل والسطحية، ويفتقدون القدرة على فهم الحاضر والماضي، ولهذا نجدهم هدفاً من أهم أهداف أصحاب الاتجاهات المنحرفة في بلاد المسلمين، ويسهل عليهم الاقتناع بالمتناقضات. ومن حق هؤلاء علينا أن ننقذهم من براثن الجهل والتخلف، وإلا فسيبقون نقاط ضعف في تاريخ أمتنا وهدفاً لأعدائنا.

* الصنف الثالث: وهؤلاء استولى عليهم اليأس وتشاقلوا إلى الأرض، وقصرت همهم عن العمل الدائب لتجديد هذا الدين، فراحوا يُسوّغون لأنفسهم الأعذار زاعمين بأن أمر هذه الأمة لن يغيره إلا المهدي المنتظر، وأن أيامه قريبة، ويذكرون علامات الساعة!!.

إن هذا الصنف من الناس يث روح الهزيمة في نفوس المسلمين، وينشر بينهم أجواء قاتمة من الخذلان والقنوط، والأمة المهزومة لن تنتصر ولو ملكت العُدَد والعدَّة.

إن مثل هذه الأفكار لو سيطرت على عقول أصحاب رسول الله ﷺ لما قضوا على الردة ونشروا دعوة الإسلام في الخافقين. ولو سيطرت مثل هذه الأفكار على عقل صلاح الدين الأيوبي لما كانت معركة حطين، ولما حرر الأقصى وفلسطين من رجس الصليبيين.

ليس هناك مانع شرعي أو عقلي يمنعنا من القول: نحن جيل تحرير القدس وفلسطين إن شاء الله وليس علينا إلا أن نأخذ بأسباب النصر،

وربما كان بيننا وبين المهدي آلاف السنين...

ولن نقعد عن الجهاد الذي فرضه الله علينا، ونترك أعداءنا يفسدون
وينهبون اعتماداً منا على قضية استأثر الله بعلمها، وربما كان عدونا وراء
نشر مثل هذه الأفكار الانهزامية والترويج لها.

المبحث الثاني

دعوة إلى الأمية

❖ عرض أقوالهم.

❖ مناقشة أقوالهم:

الوجه الأول: أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، ماذا تعني ؟

الوجه الثاني: تأبير النخل .

الوجه الثالث: تناقضات

عرض أقوالهم

تحدثوا في رسالتهم [التوسمات] عن خصائص جماعة الرسول ﷺ، فكان مما قالوه:

(... فلم تتعلم - أي الجماعة الأولى - الدين للدنيا، ولم يكونوا يتعلمون لعماراة الأرض وبناء الدور فتلك صفة الكافرين [يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا]. حتى أن رسول الله ﷺ كان يجهل أثر تأبير انخل. ويقول: نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، فلا بد أن نكون مثلهم أميين نوجه كل جهدنا ووقتنا لتعلم الكتاب والحكمة. وما دون ذلك فهو ضلال مبين، ومتى يتعلم الإسلام من أمضى أكثر من نصف عمره في تعلم الجاهلية.

ومن أجل هذا نقول: إن الدعوة إلى محو الأمية فكرة يهودية لشغل الناس بعلوم الكفر عن تعلم الإسلام. ووجود من يقرأ ويكتب بيننا لا ينفي أننا نحن أمة أمية طالما نوجه كل وقتنا لتعلم الإسلام).

وجاء في كتابهم الخلافة:

(والذي يظن أن هذه الحشود من الجهد والعلوم والمبتكرات التي تغرق الأرض الآن أنها قامت لعبادة الله، أو أنه يمكن التوفيق بين بذل العمر في صنع هذه المدنيّة الرائعة، والدنيا العريضة المزخرفة وبين عبادة الله بالصوم والصلاة والدعاء والذكر والحج والبلاغ والجهاد في الله حق جهاده، والتلاوة لكتاب الله

حق تلاوته وذكر الله تسيحاً له بكرة وأصيلاً... أقول من كان يظن أن تكاليف بناء المدينة الحديثة لا يتعارض مع تكاليف العبادة، وأنه كان يمكن لعلماء الغرب وبناء المدينة أن يكونوا عباداً لله في نفس الوقت... من كان يظن ذلك فليشهد على نفسه أولاً بقله الحياء وصفاقة الوجه، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء... وهؤلاء هم الذين قيل لهم:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ويقول شكري مصطفى شارحاً ظاهرة منع أتباعه من دخول الجامعات والمدارس والمعاهد:

(إنني أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبة في خطتك فقط، بحجبي للنساء عن الجامعات والمدارس، أقول للطاغوت هاأنذا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم. وهجرتي لا تشكل خطراً انقلابياً عليك، وأساهم بذلك في تخفيف مشاكل الإسكان، وبترك الوظائف أريحك من المرتبات التي تدفع لنا)^(١).

وجملة القول فقضية منع شكري لأتباعه من الانتساب إلى المدارس والمعاهد العلمية معروفة عند كل من كانت تربطه بهذه الجماعة أدنى صلة، وقد اعترف بذلك معظم الذين تخلوا عن هذه الجماعة أمثال

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين لعبد الرحمن أبو الخير، نشر دار البحوث العلمية، (ص: ٨٤).

المهندس أحمد محمود عرفة وغيره.

ومما يجدر ذكره أن تحريم الدراسة ليس قاصراً على كليات الطب والهندسة واللغات الأجنبية، وإنما يشمل الجامعات والمعاهد الإسلامية التي لا تدرس غير العلوم الإسلامية لأنها من مؤسسات الطاغوت، وتدخل ضمن إطار مساجد الضرار، فأساتذتها منافقون على الإطلاق بل ومرتدون لأنهم يؤمنون بأن هناك كفراً لا يخرج عن الملة.

أما العلم المشروع فلا يكون إلا في الشقق التابعة للجماعة، ولا يصح تقرير منهج غير المنهج الذي وضع أصوله وفروعه قائد هذه الجماعة.

مناقشة أقوالهم

الوجه الأول - أمة أمية ماذا تعني؟!

* لو قالت هذه الجماعة: يجب إعادة النظر بمناهج التعليم التي وضع أسسها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والشيوعيين في كثير من بلدان العالم الإسلامي لقلنا لهم: هذا حق لا نختلف معكم عليه.

* ولو قالوا: إن العلم لا يقاس بالشهادات الجامعية، بل والذي نراه أن الجهل يزداد في هذه الأمة مع ازدياد حملة ما يسمى [بالليسانس والماجستير والدكتوراه]. لو قالوا ذلك لقلنا لهم: صدقتم وأصبتكم كبد الحقيقة.

* ولو قالوا: إن القائمين على الغالبية العظمى من الجامعات في عالمنا الإسلامي، حرصوا منذ البداية على إبعاد علوم الشريعة الإسلامية من المناهج المقررة على طلاب كليات: الطب، والهندسة، والصيدلة، واللغات الأجنبية... كما حرصوا على أن تكون المؤسسات التي يعمل بها هؤلاء الخريجون غير إسلامية.

لو قالوا ذلك لقلنا لهم: هذا الكلام لا شك ولا مرية فيه.

* ولو قالوا: يجب أن تنزّه دراسة العلوم الشرعية عن المصالح والمنافع الدنيوية، وتكون خالصة لوجه الله تعالى، لو قالوا ذلك لقلنا لهم: صحيح ما تقولون. لكنهم وبكل أسف لم يقفوا عند هذه الحدود المباحة من النقد الهادف، وإنما

قالوا بحرمة الدراسة في مختلف الجامعات والمعاهد العلمية وزعموا أن الدارسين في هذه المؤسسات كفرة باعوا آخرتهم بدنياهم وأكدوا أنه من المتعذر الجمع بين دراسة العلوم الشرعية والعلوم العصرية المادية التي أسموها [علوم الكفار]، ومن أهم الأدلة التي اعتمدوا عليها في ذلك قول الرسول ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

فهل يجوز الاستدلال بهذا الحديث لمن يرى حرمة الدراسة في الجامعات والمعاهد العلمية على الإطلاق؟!.

وهل يصح قولهم: إن الرسول ﷺ كان أمياً، ونحن يجب أن نكون أميين، والدعوة إلى القضاء على الأمية فكرة يهودية خبيثة؟!.

هذا ما سنتولى الإجابة عليه فيما يلي والله ولي التوفيق:

نص الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا». يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين^(١).

قال ابن عباس: (الأميون: أي العرب كلهم، من كَتَبَ منهم ومن لم

(١) رواه البخاري واللفظ له: (٢٨/٥) من فتح الباري - الحلبي - ، ومسلم في كتاب الصيام: (١/٧٦١)، وأبو داود في سننه: (٢/٧٣٩)، وأحمد والنسائي: (١٤٧/٢٥)، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٤٧/٢٥).

يكتب. لأنهم لم يكونوا أهل كتاب وقيل: الأميون الذين يكتبون وكذلك كانت قريش^(١).

وأصاب ابن عباس رضي الله عنهما فلم يكن في العرب مزية علم ولا كتاب كأهل الكتاب، ولا علوم قياسية مستنبطة، كما للصابئة وغيرهم، وكان الخط فيهم قليلاً جداً.

وقد أطلق عليهم الله سبحانه صفة الأمية كما جاء في قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]

وجعل سبحانه وتعالى الأميين مقابلين لأهل الكتاب في قوله:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ إِسْلَامَةٌ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]

وأما الأدلة على أمية الرسول ﷺ فكثيرة، ومن أهمها قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف]

فإن أميته لم تكن من جهة فقد العلم والقراءة عن ظهر قلب، فإنه إمام

(١) تفسير القرطبي: (٩٢/١٨) و(١٣١/٢).

الأئمة في هذا، وإنما كان من جهة أنه لا يكتب ولا يقرأ مكتوباً. كما قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابِ الْمُبْطِلِينَ﴾ [٤٨] العنكبوت

وكان انتفاء الكتابة عنه مع حصول أكمل مقاصدها بالمنع من طريقها من أعظم فضائله وأكبر معجزاته. فإن الله علمه العلم بلا واسطة كتاب معجزة له^(١). ويسرف في الخطأ من يعتقد أن رسول الله ﷺ دعا في هذا الحديث إلى تكريس الأمية للأسباب التالية:

١- بين ﷺ أننا لا نحتاج في أمر الهلال إلى كتاب ولا حساب، كما كانت تفعل الأمم السابقة، فالشهر يكون تارة تسعة وعشرون، وتارة ثلاثين، والفارق بينهما هو الرؤية فقط، وما تزال الرؤية أفضل من الاعتماد على الكتاب والحساب، لأن أرباب هذا العلم يصيبون تارة ويخطئون أخرى، ويختلفون في حسابهم، والتشريع عام للناس جميعهم ميسر لهم إلى قيام الساعة.

٢- وصف ﷺ في هذا الحديث الحالة التي كان عليها العرب الذين بعثه الله فيهم، وليس فيه ما يدعو إلى تحريم الكتابة والقراءة.

قال ابن حجر العسقلاني:

(والمراد -أي الأميون- أهل الإسلام الذين بحضرته عند تلك المقالة، وهو

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٥ / ١٧٢).

محمول على أكثرهم أو المراد نفسه ﷺ (١).

٣- لم يكن الصحابة جميعاً أميين، فلقد كان بينهم كتبة رسول الله ﷺ: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد ومعاوية...، وكانوا رضوان الله عليهم يكتبون الوحي، ويكتبون العهود، ويكتبون كتبه إلى ملوك أهل الأرض وإلى عماله وولاته وسعاته وغير ذلك. وقد أمر ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود ليقرأ له كتبهم فتعلمها ﷺ في خمسة عشر يوماً، وفي رواية عبد بن حميد من طريق ثابت بن عبيد أن زيداً تعلم السريانية في سبعة عشر يوماً، وفي هذا دليل على ضرورة تعلم اللغات الأجنبية عند الحاجة إلى ذلك (٢). ولم يعد المسلمون أميين بعد بعثة الرسول ﷺ. لقد فقه أصحابه في دين الله وعلمهم الكتاب والحكمة، وربّاهم فأحسن تربيتهم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس: علماً وفضلاً وشجاعة وحضارة وأخلاقاً ومروءة.

قال جلّ من قائل:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

(١) فتح الباري: (٢٨/٥)، مطبعة الحلبي.

(٢) رواه البخاري معلقاً، انظر البخاري مع الفتح كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام:

(١٣/١٨٥) والمستدرک - كتاب الإيمان: (١/٧٥)، ورواه البغوي وأبو يعلى موصولاً، الإصابة

في تمييز الصحابة: (١/٥٦١)، وقال الحاكم هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

﴿١٦٤﴾ [آل عمران]

وأمر ﷺ أسرى بدر من المشركين الذين لم يكن لهم فداء أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، وأن يكون عملهم هذا فداء لهم^(١).

٤- وإذا كانت أمية الرسول ﷺ من أعظم فضائله وأكبر معجزاته، فهي ليست كذلك بالنسبة لغيره. فقد ورد في القرآن الكريم في صيغة الذم في قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [البقرة]

أي من اليهود والنصارى والمنافقين من لا يقرأ ولا يكتب، ويزعمون أنهم يعلمون ولا علم عندهم إلا تلفيق الأكاذيب ونسبتها إلى الله تعالى وإلى كتابه. وفي كتب الفقه يقول العلماء: لا يصح اقتداء القارئ بالأمي. ولا يجوز أن ياتم الأمي بالأمي. ونحو ذلك من المسائل، وغرضهم بالأمي هنا الذي لا يقرأ القراءة الواجبة سواء كان يكتب أو لا يكتب يحسب أو لا يحسب... فصارت هنا الأمية صفة نقص^(٢).

٥- وقد امتن الله على خلقه فجعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ليبتغوا فضلاً من ربهم وليعلموا عدد السنين والحساب. قال جلّ من قائل:

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: (٢٤٧/١).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٦٩ / ٢٥) بتصرف يسير.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]

وقال:

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّهَارِ آيَاتٍ فَحُونَآ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء]

ومن أهم العلوم الإسلامية التي بعث الله بها نبيه ﷺ [الفرائض] وفيها من الحساب ما فيها، وقد ثبت عنه ﷺ أنه لما قدم عامله على الصدقة [ابن اللثبية] حاسبه عليها^(١).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من وضع الديوان في الإسلام بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية وفتحت بلاد فارس والروم وكثرت الأموال.

والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق دولة الخلافة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. ويشتمل الديوان على أربعة أقسام:

أحدها ما يختص بالجيش من إثبات وعطاء، والثاني ما يختص بالأعمال من رسوم وحقوق، والثالث ما يختص بالأعمال من تقليد وعزل، والرابع ما يختص ببيت المال من دخل وخراج.

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٦٦/٢٥).

ووضع الفاروق رضي الله عنه لمن شهد بدرًا خمسة آلاف درهم في كل سنة، وألحق بهم العباس والحسن والحسين رضوان الله عليهم لمكانتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجعل لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل واحدة منهن عشرة آلاف درهم، ووضع لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألفي درهم وهكذا...^(١)

وتوسعت أقسام الديوان بعد عصر الخلفاء الراشدين، ولا غرابة في ذلك لأن من طبيعة ديننا التجديد والقدرة على وضع الحلول المناسبة لكل مشكلة طارئة. والسؤال الذي يفرض نفسه: من ينهض بمهمات الديوان والجند والعمال وبيت المال وجباية الزكاة والخراج والفيء؟!.

إنهم الكُتَّاب والحُساب من المسلمين الدعاة إلى الله، وكذلك كان الحال أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين، ولا يقول بغير هذا إلا جاهل أو صاحب هوى.

الوجه الثاني - تأبير النخل

(عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بقوم يُلقَّحون^(٢) فقال لو لم تفعلوا لصلَّحَ قال فخرج

(١) الأحكام السلطانية للماوردي. (ص: ٢٢٧)، المكتبة التوفيقية.

(٢) يلقحون: معناه إدخال طلع الذكر في طلع الأنثى، وهذا التلقيح يسمى التأبير.

شيصاً^(١) فمر بهم فقال ما لنخلكم قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وفي رواية ثانية قال ﷺ: «... إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لن أكذب على الله عز وجل».

وفي رواية ثالثة قال ﷺ:

«... إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر...»^(٢).

عجيب أن يكون هذا الحديث دليلاً لهم في زعمهم أن محو الأمية مؤامرة يهودية لأن المسلمين أمة أمية كما وصفهم سيد الخلق ﷺ، وليس فيه ما يدعو إلى هذا الفهم السقيم الشاذ لا تصريحاً ولا تلميحاً.

نعوذ بالله من الهوى الذي ألجأهم إلى تأويل حديث تأبير النخل تأويلاً لا يقره دين ولا عقل، وأعمى أبصارهم عن قوله تعالى:

﴿ت وَالْقَالِمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم]

وقوله تعالى:

(١) شيصاً: أي البسر الرديء الذي إذا بیس صار حشفاً، وقيل تمر رديء وهو متقارب.

(٢) الروايات الثلاثة رواها مسلم في صحيحه. انظر صحيح مسلم بشرح النووي: (١٥ / ١١٨)، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ.

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]

قال قتادة:

(القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دُوّنت العلوم، ولا قيّدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة)^(١).

وقبل أن أختتم كلامي عن حديث تأبير النخل أرى أنه لا بد من توضيح النقاط التالية^(٢):

١ - اجتهد ﷺ في بعض الأمور فأخطأ ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

* أخذه الفداء من أسرى بدر. قال تعالى:

(١) تفسير القرطبي، الجزء العشرون، (ص: ١٢٢).

(٢) أردت في هذه النقاط الرد على أهل الاعتزال وتلامذتهم من أصحاب المدرسة الإصلاحية الذين قسموا أحاديث رسول الله ﷺ إلى صفتين: إحداهما شرعية والأخرى بشرية. ولم تكن مشكلتهم في هذا التقسيم وإنما المشكلة أنهم توسعوا في حدود وصلاحيات الصفة البشرية للرسول ﷺ، فكل حديث يتعارض مع منهجهم الشاذ القائم على تقديس وتعظيم دور العقل زعموا أن الرسول ﷺ قاله بصفته البشرية وإذن لا يصلح أن يكون حجة.

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال]

* عبوسه ﷺ في وجه ابن أم مكتوم الأعمى.

قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ ﴾ [عبس]

* استغفاره لبعض المنافقين. قال تعالى:

﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة]

وقال:

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾
[التوبة: ٨٠]

* قصته ﷺ مع نسائه عندما شرب عسلاً عند زينب بنت جحش. فقال تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّىٰ مَرْضَاتٍ أَرْوَجِكِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
[التحریم]

وهناك أمور أخرى كان يستشير فيها أصحابه، فيعرضون عليه آراء تخالف ما
كان يراه فيستحسنها ويأخذ بها. ومن ذلك: حفر الخندق حول المدينة، وخروجه

لقتال المشركين خارج المدينة في موقعة أحد^(١).

٢- قال بعض العلماء: إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب^(٢) لأن التأسى بهم مشروع وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم من الذنب، وزعموا بأن الذنوب تنافي الكمال وأنها توجب التنفير، وأولوا الآيات التي أشارت إلى بعض الذنوب التي اقترفها أنبياء الله.

وجوابنا على ذلك أننا نثبت ما أثبتته الله في كتابه الكريم، وما أثبتته المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم فيما صح عنه من أحاديث، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]

وميز تعالى بين ذنبه ﷺ وذنوب أمته فقال:

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَاللَّمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]

وقال ﷺ:

«إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع. فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ

(١) انظر كتاب اجتهاد الرسول ﷺ للشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر، (ص: ١٥٤).

(٢) ومما يجدر ذكره أن موضوع الذنوب شيء وموضوع الخطأ في الاجتهاد شيء آخر ومع ذلك فقد حرصت على ذكر هذا وذاك.

منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من نار»^(١).

وكان ﷺ يقول:

«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»^(٢).

والخطأ في الاجتهاد كوقوع السهو والنسيان منه ﷺ. روى البخاري عن ابن مسعود - عندما سها ﷺ في الصلاة وذكره - أنه قال:

«لو حدث شيء في الصلاة لبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ

(١) رواه الشيخان وأبو داود واللفظ له.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/٢٨٣). طبع كردستان العلمية بالقاهرة، وحديث اللهم اغفر لي خطيئتي: انظر البخاري مع الفتح - كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت: (١١/١٩٦)، ومسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: (٤/٢٠٨٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه. ومن الجدير بالذكر أنني اعتمدت على كتاب اجتهاد الرسول ﷺ لمؤلفه عبد الجليل عيسى أبو النصر في أكثر من موضع من هذه الملاحظات.

رسالاته باتفاق الأمة. وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ فللناس فيه نزاع: والقول الذي عليه جمهور الناس - وهو الموافق للمنقول عن السلف - إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقاً^(١).

٣- لقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن اجتهاداته التي اخطأ فيها بما صح عنه من أحاديث نبوية، ولا يصح بعد ذلك أن يتوقف بعض الناس عند ذكر الخطأ، ولا يذكرون تصحيحه لأن الأمور بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وكمال النهاية في حديث تأبير النخل قوله ﷺ:

«أنتم أعلم بأمر دنياكم. وقوله... وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

ولا يصح أيضاً أن يزعم زاعم أن هناك أموراً أخطأ فيها رسول الله ﷺ ولم تبلغنا، لأن الله جل وعلا قد أكمل لنا دينه وأتم نعمته علينا، وتركنا رسول الله ﷺ بعد التحاقه بالرفيق الأعلى على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لقد كان الوحي ينزل عليه دون إبطاء إذا كان الاجتهاد شرعياً، أما إذا كان في أمور الدنيا فقد يكون تصحيحه متأخراً لأنه لا يترتب عليه حلال ولا حرام، فعندما ذكر لنا رسول الله ﷺ بعض الأدوية التي تصلح علاجاً لبعض الأمراض لم يأمرنا باستخدام هذا الدواء، ولم يحرم علينا استخدام غيره، مع أن كل ما يقوله ﷺ حق لأن الوحي أعظم من كل تجارب البشر، ورغم ذلك كان الأطباء

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢/٢٨٣) - طبع كردستان العلمية بالقاهرة.

يعالجونه ﷺ عندما يمرض، وكل الذي قاله لأصحابه في حديث تأبير النخل:
«لو لم تفعلوا...».

٤- هناك حكم كثيرة من وراء هذه الاجتهادات الخاطئة، نكتفي بذكر اثنتين منها:
الأولى: دلالتها على بشريته وعدم الغلو فيه. إن رسول الله ﷺ بشر يقع منه السهو والنسيان والخطأ، مع أنه أرجح الناس عقلاً، وأكثرهم علماً، وأشدهم لله خشية.
وكان ﷺ يؤكد لأصحابه كثيراً أنه بشر وابن امرأة كانت تأكل القديد، كره أن يعظمه الناس تعظيماً يقربه من مقام الله جلّ وعلا، وكان يخشى أن تقع أمته بما وقع به اليهود والنصارى عندما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

الثانية: دلالتها على أمانته في البلاغ. كان رسول الله ﷺ مثلاً يحتذى به في الأمانة، لقد بلغ أصحابه كل ما أنزله الله إليه، وأصبحت آيات عتابه على أخطائه قرآناً يتلوه المسلمون في كل عصر ومصر، رغم أن هذه الأخطاء كانت في سبيل الله تعالى، ولم تكن لغرض من أغراض الدنيا وشهواتها، وكان ﷺ يسارع إلى الاستغفار والتوبة عندما يظهر له الحق، ولو كان كاتماً شيئاً مما أنزله الله لكتّم مثل هذا - حاشاه من ذلك.

الوجه الثالث - تناقضات

لقد تهاوت شبهات جماعة شكري واحدة بعد الأخرى، وظهر لكل منصف تلاعبهم في اللفظ، وحيدهم عن الحق، وتحميلهم النصوص مالا تحتمل،

وفقدان الأدلة الشرعية في كل ما زعموه.

ومن أين يأتون بالأدلة، وكل من أنعم الله عليه بنعمة العقل، وورزقه الإيمان بهذا الدين يعلم بالضرورة أن الإسلام والعلم صنوان لا يفترقان، والعلم يعني: الفهم والكتابة والقراءة والحساب والطب والهندسة والصناعة وكل شيء فيه نفع للإسلام والمسلمين.

ولا ينقضي بعد ذلك كله استغرابي ودهشتي من هذه الجماعة ومن العقلية التي تفكر بها، فهي تدفع أتباعها ومؤيديها إلى تعلم حرفة البناء والكهرباء والميكانيك في الورشات وتحرم عليهم دراسة هذه المهن نفسها في المعاهد والجامعات!!
يا سبحان الله ما الذي أحلها هنا وحرمها هناك!؟.

بل وكيف تتعارض هذه الأعمال مع عبادة الله إذا كان العاملون من خريجي المعاهد والجامعات ولا تتعارض إذا كان العاملون أميين، وعلمهم بهذه المهن اكتسبوه عن طريق الممارسة!؟.

مثال: قامت الجامعة بإرسال عدد كبير من أعضائها للعمل كمهنيين في ليبيا ودول الخليج والأردن، وكان هؤلاء العمال يعملون في شركات ومؤسسات كافرة على حد زعمهم، وكانوا يرسلون جزءاً مهماً من دخلهم لقيادة جماعتهم، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا:

كيف أجازوا لأنفسهم مثل هذه الأعمال وشددوا في تحريمها على غيرهم،

وكيف يصح أن تقوم هذه المؤسسات الجاهلية الكافرة - على حد زعمهم - على سواعد ما أسموه جماعة المسلمين؟!.

لا أعرف أنهم قدموا جواباً مقنعاً عن هذا السؤال وغيره من الأسئلة الكثيرة التي تدل على سطحيّتهم في التفكير ووقوعهم في كثير من التناقضات.

وأخيراً: فإنني أجزم بأن أقباط مصر سيرقصون طرباً لهذه الخرافات التي تروجها هذه الجماعة، وسوف يرمون بثقتهم من أجل أن تمكن الحكومة لهذه الجماعة.

وإنني أجزم كذلك بأن أعداء الإسلام سوف يجدون في انتشار مثل هذه الأفكار آمالاً طالما عملوا لها خلال قرون، وأيه خدمة تقدمها لهم هذه الجماعة أكبر من إبعاد شباب الأمة الإسلامية عن المدارس والمعاهد والجامعات، ونشر روح التخلف والامية بينهم؟!.

المبحث الثالث

موقفهم من التاريخ الإسلامي

- ❖ عرض أقوالهم.
- ❖ شهادة أبي الخير.
- ❖ من أقوال شكري أمام هيئة محكمة أمن الدولة.
- ❖ مناقشة أقوالهم.

عرض أقوالهم

أعربوا عن موقفهم من أعلام^(١) الأمة الإسلامية من خلال ردهم على معتقد أهل السنة والجماعة في عدم تكفير مرتكب المعصية.

في رسالتهم الحجيات (إجمال تأويلاتهم وإجمال الرد عليها) نقلوا أقوال الإمام الزهري -رحمه الله- في هذه المسألة ثم قالوا في تعقيبهم عليها: (كل هذه الأقوال باطلة سخيفة).

وقالوا عن الإمام النووي رحمه الله:

(ولكن النووي ونظائره يقدمون العام على الخاص والمطلق على المقيد، وكل شيء على شيء نصرأ لمذاهبهم الباطلة واتباعاً لسلفهم من اليهود والنصارى الذين قالوا:

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]

وقالوا عن الإمام الخطابي رحمه الله:

(... وإنما الخطابي يكذب كدأبه في الكذب، وكذا النووي الصوفي الكذاب كدأب إخوانه من المتصوفة الكذابين على الله ورسوله. أما الذي قاله الذي لا

(١) لا شك أن أعلام الأمة الإسلامية - من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من الأئمة المحققين- هم جزء مهم من التاريخ الإسلامي.

ينطق عن الهوى:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

ويقول الكذابون عليه: هذه الخصال توجد في المسلم المصدّق الذي ليس فيه شك. نعوذ بالله تعالى أن نكون مثلهم أو قريباً منهم).

وبعد التخصيص انتقلوا إلى التعميم فشمّلت شتائمهم جميع أهل السنة والجماعة، فتارة يصمونهم بالكذب كقولهم:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف] ^(١)

وقولهم:

(فهذا لعمرى من أكذب الكذب وأفرى الفرى على الله وعلى دينه وعلى رسوله).

وأخرى بالكفر كقولهم:

(واتبعوا في ذلك سلفهم ^(٢) من كذّبة اليهود والنصارى، وحذوا حذوهم حين

(١) وقد استدلوا بهذه الآية في الرد على خصومهم.

(٢) جميع أقوالهم هذه وردت في صدد ردهم على أهل السنة والجماعة.

قالوا:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وكذا استنوا

بستهم حين قالوا: ﴿مَنْ أَبْتَدَأَ اللَّهُ وَأَحْبَبَؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]

وقولهم:

(أما أن يكون للناس كفر ينقل عن الملة، ولأهل القبلة كفر يدخل في الملة، ولعمري إنه لعين الكذب والقول على الله بغير علم)^(١).

١ - شهادة أبي الخير:

كتب عبد الرحمن أبو الخير - الذي كان عضواً في الجماعة - مبيناً موقف الجماعة من التاريخ الإسلامي فقال:

(واختلفنا منذ اليوم الأول في الفرعيات)^(٢):

- ١ - سحب الكفر على عصور التاريخ الإسلامي منذ القرن الرابع للهجرة.
 - ٢ - كون جماعتنا هي الجماعة الوحيدة المسلمة في العالم.
 - ٣ - تكفير الإخوان المسلمين كشخص معنوي من شخصيات الحركة الإسلامية.
- فبينما كنت أعتبر جماعة الشيخ شكري هي امتداد عضوي تاريخي للإخوان

(١) رسالتهم (إجمال تأويلاتهم - أي أهل السنة والجماعة - وإجمال الرد عليها).

(٢) إذا كان تكفير أئمة أهل السنة والجماعة من فرعيات هذا الدين فما هي أصوله إذن؟!.

المسلمين وصدى لمحتتها، كان الشيخ شكري يعتبر جماعته لا يربطها بأي جماعة على وجه الأرض أو عصر من عصور الخلافة وخاصة الخلافة العثمانية أي صلة، فهي عنده ليست امتداداً عضويّاً للإخوان المسلمين أو أية جماعة أخرى من جماعات الحركة الإسلامية أو الخلافة العثمانية.

٤- عدم الاعتراف بالتاريخ الإسلامي، فقد كان شكري يعتبره وقائع غير ثابتة الصحة، وأن التاريخ عنده هو أحسن القصص الواردة في القرآن الكريم ولذا يحرم دراسة عصور الخلافة الإسلامية أو الاهتمام بها. في حين كنت أرى أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ دار الإسلام كلها المتصلة الحلقات منذ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وحتى نجاح الغارة العالمية التي اشترك فيها العرب والعجم ضد آخر الخلفاء السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد آل عثمان في سنة ١٩٠٩ تاريخ الانقلاب الأتوركي^(١).

٢- من أقوال شكري أمام هيئة محكمة أمن الدولة:

١- كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلة وكافرة قطعاً.

٢- إننا نرفض ما يأخذون - أهل السنة والجماعة - من أقوال الأئمة والإجماع، وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

٣- إن الالتزام بجماعة المسلمين - أي جماعته - ركن أساسي كي يكون المسلم

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين لمؤلفه عبد الرحمن أبو الخير (ص: ٣٤ و ٣٥)، نشر دار البحوث العلمية.

مسلماً، ونرفض ما ابتدعه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهم الحكم بغير ما أنزل الله، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلماً.

٤- إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافراً.

٥- الإسلام الحق هو الذي تبناه [جماعة المسلمين]، وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط. وبعد هذا لم يكن إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن. نشرت الصحف المصرية أقوال شكري مصطفى التي أدلى بها أمام هيئة محكمة أمن الدولة العليا العسكرية في القضية رقم: ١٩٧٧/٦ تاريخ: ١٩٧٩/١٠/٢١. والذي أراه أن ما نشرته الصحف في هذه المسألة صحيح لأنه قاله بنفسه أمام جمع من الناس ومن بينهم عدد من المحامين الذين لم يكن معظمهم موالياً للسلطة، ولأنه لا يختلف البتة عما ورد في رسائل الجماعة، وما قاله عبد الرحمن أبو الخير عنهم -وهو عضو من أعضائهم- في كتابه [ذكرياتي مع جماعة المسلمين].

ومما يجدر ذكره أن ردي على أقوال هذه الجماعة سيكون قاصراً على موقفهم من التاريخ الإسلامي ورجاله، أما القضايا الأخرى التي وردت من خلال حديثهم عن التاريخ، فمنها ما سبق أن تحدثنا عنه في فصول سابقة من هذا البحث، ومنها ما سوف نتعرض له في فصل قادم إن شاء الله.

مناقشة أقوالهم

الوجه الأول - حرم ما أنكروه من التاريخ

قد لا يهتم بعض الناس بموقفهم من التاريخ الإسلامي، لأن حوادث التاريخ عند هؤلاء الناس مرتبطة بالإسرائيليات، وأحاديث القصاص وسائر الأخبار الملفقة البعيدة عن التحقيق العلمي والموضوعية.

غير أن الأمر عند جماعة شكري ليس كذلك، وسنوضح فيما يلي أهمية التاريخ، وحجم ما أنكروه من هذا العلم.

أهمية التاريخ: قال السخاوي رحمه الله في تعريف التاريخ:

(هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملة وتجديد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفي سماوي كجراد وكسوف وخسوف أو أرضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط

وطاعون وموتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم^(١).

ومن هذا التعريف الجامع الشامل نستخلص الدروس التالية:

١- من الأدلة المهمة التي تبين لنا أهمية علم التاريخ قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّاسِ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء]

وقوله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]

وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْقِفَتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ [البقرة: ١٨٩]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

(ذكر الله التاريخ في كتابه لأن معاذ بن جبل رضي الله قال يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تأليف السخاوي، (ص: ٧)، دار الكتاب العربي.

حتى يعود كما كان على حاله الأول فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ وهي جمع هلال ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي في دينهم وصومهم وفطرمهم وعدة نساءهم ومدد حواملهم ومحل ديونهم وأجور أجرائهم، وغير ذلك من الشروط إلى أن ينتهي إلى أجل معلوم حكمة بالغة ونعم ظاهرة^(١).

وقد قصَّ الله تعالى في كتابه المبين كثيراً من أخبار الأمم الماضية كقوم نوح وهود وكمدين وثمود وما حكاه عن موسى وهارون وفرعون وقارون وعن أصحاب الكهف والرقيم وعن النمروذ وإبراهيم.

وقال تعالى بعد ذكره هذه القصص:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود]

وامتنَّ سبحانه وتعالى على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والسلام بقوله:

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصفات]

وعلى خيرته من خلقه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح]

وأخبر تعالى عن إمام الحنفاء إبراهيم الخليل أنه قال:

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، (ص: ١٥).

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) [الشعراء]

وهذه الآيات تعني أن الله سبحانه وتعالى خلّد سير أنبيائه، وجعلهم تاريخاً لمن جاء بعدهم من الخلائق لا يجرؤ مسلم على تجاهله أو إنكاره. وجماعة شكري يؤمنون بقصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم، وهذا بعض ما تعنيه هذه الآيات التي ذكرناها في هذا الموضوع، أما الجانب الآخر المطلوب منهم الإيمان به، والوقوف عنده طويلاً:

إدراك أهمية التاريخ، ومعرفة ما فيه من عبر وعظات.

٢- علم التاريخ يبين لنا الأحاديث الصحيحة من الضعيفة والموضوعة، لأن رواية الحديث جزء لا يتجزأ من التاريخ. قال سفيان الثوري: لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ. وعن حسان بن زيد قال: لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ يقال للشيخ سنة كم ولدت، فإذا أقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه. وسأل إسماعيل بن عياش رجلاً اختيارياً أي سنة كتبت عن خالد بن معدان فقال سنة ثلاث عشرة ومائة فقال أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين^(١).

ومن فضل الله علينا، أنه يسر لهذه الأمة رجالاً أفذاذاً، وضعوا لنا علم الرجال، وبيّنوا الثقات من الضعفاء والوضّاعين، وسلّكوا في ذلك منهجاً علمياً دقيقاً ما يزال غرّة في جبين الدهر، ومفخرة لنا بين الأمم الأخرى، ولو لم يكن

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، (ص: ٩).

هذا العلم موجوداً لكثير الوضّاعون، واختلط الحق بالباطل والغث بالسمين، وطمست معالم هذا الدين كما طمست معالم الأديان الأخرى، ولكن الله جلت قدرته تعهد بحفظ دينه سالماً من كل تحريف أو تغيير.

٣- مما يشمله علم التاريخ أيضاً:

* سيرة المصطفى ﷺ، منذ ولادته وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى.

* تراجم الصحابة رضوان الله عليهم، ودورهم في حفظ دين الله والجهاد في سبيله.

* تاريخ المبتدعة وفرقهم: كالخوارج، والرافضة، والمعتزلة وغيرهم وغيرهم، وتعاون بعض أهل هذه الفرق مع أعداء الإسلام، وما كتبه فحول علماء أهل السنة والجماعة في الرد عليهم وتفنيدهم بأبوابهم.

ولا أعتقد أن هذه الجماعة أخذت بعين الاعتبار كل هذه المعاني عندما أصدرت قرارها الجائر الظالم في تاريخ الأمة الإسلامية.

ومن تناقضاتهم المؤسفة أن من يطلع على رسائل شكري ومن حوله من قيادة الجماعة يجدهم قد اطلعوا على التاريخ، ودرسوا بعض حوادثه، وقبلوا شيئاً من صفحاته، فكيف يحرمون على أعضاء جماعتهم ما أحلوه لأنفسهم؟! وأخيراً: أتساءل بدهشة:

أية جماعة هذه التي تطالب بالتنكّر لتاريخ أمتنا، وعدم الاعتماد عليه أو

الاستفادة منه؟!.

هل نقول للنصارى: إن خالد بن الوليد^(١)، وأبا عبيدة بن الجراح، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان محمد الفاتح... وغيرهم ليسوا شيئاً يستحق الذكر، ولن نجهد أنفسنا في الكتابة عنهم أو تتبع آثارهم؟! أم نقول لليهود: إنه لا رابط يربطنا بعمر بن العاص، الذي شرفه الله بفتح فلسطين، ولا بمن سبقه من سيوف الله الذين فتحوا خيبر، وطهروا جزيرة العرب من كفرهم؟!.

أم نقول للفرس والتتار: إنه لا شأن لنا مطلقاً بسعد وربيعي وابن تيمية وقطر؟!.

لا شأن لنا بهؤلاء ولا بأولئك فهم أمة ونحن أمة أخرى عددها لا يتجاوز الآلاف وأميرها شكري مصطفى!!.

الوجه الثاني - موقفهم من الأئمة الأعلام

لم يترك شكري وجماعته كلمة مبتذلة هابطة إلا وألصقوها برجال خير القرون، ومن هنا نحوهم من العلماء المحققين.

(١) قلنا فيما مضى أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يسلموا من السنة وأقلام هذه الجماعة. ومن جهة أخرى: لا يمكن فصل مرحلة من تاريخنا الإسلامي عن المراحل الأخرى، أما لماذا كُفرت هذه الجماعة بعضاً من التابعين ومن جاء بعدهم من علماء أهل السنة، ولم يكفروا الصحابة فهذا مما لم يقدموا لنا دليلاً عليه.

لقد زعموا أنهم مارقون من الدين، وأنهم من أتباع اليهود والنصارى، ونسبوا إليهم الكذب والنفاق، وحذروا الشباب من كتبهم وأقوالهم^(١).

وما كان الأئمة الأعلام كما زعموا، وإنما كانوا أتقياء أمناء لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يخشون الظالمين المتجبرين في الأرض، وكانوا - رحمهم الله - أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، لا يتعلقون بالمكاسب والشهوات، ولا يقصرون في فعل الطاعات.

ومشكلة هؤلاء العلماء الأعلام عند أصحاب شكري ما كتبه في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وكشف أباطيل وضلالات أهل البدع والأهواء: كالخوارج، والمعتزلة والرافضة.

والذي قاله علماء هذه الأمة وقرروه في ردهم على الذين يكفرون أصحاب المعاصي وهو الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، والتابعون ورجال خير القرون.

وإذا كان هؤلاء الأئمة والعلماء متهمين في عقيدتهم فمن تكون عقيدته سليمة إذن؟!.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فمن باب أولى أن نجادل علماء المسلمين بالتي هي أحسن!!.

(١) ذكرنا في الصفحات الماضية نماذج من أقوالهم ومواقفهم من أئمة الإسلام.

لقد هاجم المستشرقون من - الصليبيين واليهود - والرافضة الباطنيون أعلام الإسلام، وألّفوا في التاريخ الإسلامي، فكان معظم ما كتبوه افتراءات وأباطيل ليس لها أول من آخر، ورغم ذلك كله كان المستشرقون أكثر أدباً من شكري وأصحابه لأنهم نسبوا بعض الفضائل لرجال خير القرون من خلال تظاهرهم بالموضوعية والتجرد، أما أصحاب شكري فلقد جردوا سلف هذه الأمة من كل فضيلة، ورموهم بالكفر والشرك والردة، وويل لآخر هذه الأمة إذا لعنوا أولها.

المبحث الرابع

متى يبدأ دور هذه الجماعة؟

متى يبدأ دور هذه الجماعة

يرى جماعة شكري أن دورهم يبدأ بعد تدمير الكافرين، أي بعد حرب لا تبقي ولا تذر بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، ومن المستحيل - عندهم - قيام الخلافة الإسلامية قبل نشوب هذه الحرب، ويؤكدون أنه من سنن الله تعالى أن يكون القتال في السلاح القديم، أي بالسيوف والحراب والرماح والخيول، ولا يكون هذا إلا بعد انقراض الأسلحة الحديثة كالصواريخ والقنابل الذرية والطائرات الحربية وغيرها.

جاء في رسالتهم [التوسمات]:

(لا بد أن تدمر الأرض بمن عليها، وتبقى القوة المؤمنة، ويبقى السلاح الفطري).

وجاء في الرسالة نفسها تحت عنوان: كيف تقوم دولة الإسلام:

(إقامة دولة الإسلام على أنقاض دولة الكفر، ومن سننه تعالى الصراعات بين القوتين العظيمتين المختلفتين فكراً، وهذا قائم بين الروس والأمريكان، كما كان قائماً بين الفرس والرومان).

ومن سنة الله في نشوء الدعوات أن تصطرح هاتان القوتان العظيمتان في حروب طاحنة تهلك بعضها بعضاً، والجماعة المسلمة ليست على مستوى هاتين القوتين، فتفكير الجماعات التي تزعم الانتساب للإسلام بالانقلابات العسكرية هو سذاجة وانحراف أن نتصور أننا سنتفوق مادياً وعسكرياً على الجاهلية،

والنصر الجاد للجماعة المسلمة هو أن تعبد الله. وبعد هذا يُمكن الله تعالى لها بقدره، وبأن تقضي القوتان المتصارعتان على بعضهما تمهيداً لنصر المؤمنين. وهذا له صلة بأسلوب القتال وسلاحه، فتدمير الكافرين بتدمير سلاحهم، وأصول قتال المسلمين هو قتال رجل لرجل وليس قتال الجاهلية في تدمير الأرض بمن فيها بالصواريخ والقنابل الذرية.

ومن سنة الله أن يكون القتال في السلاح القديم للجماعة المؤمنة: [الجنة تحت ظلال السيوف] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]

و[يحرق أحدهم وترقونه]. ومن سنة الله تعالى أن يدمر الأرض بالكافرين يوم يملكون الأرض ويتبجحون فيها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤]

وفي كتابهم الخلافة^(١) تحدثوا عن الجهد البشري و الإعداد و سنن الله في أرضه فكان مما قالوه:

(وأنا لا أقول ذلك لأثبت وجوب التسابق مع الشرق والغرب في عمل قنبلة أو صاروخ، وإنما على العكس من ذلك تماماً فلا يمكن أن يكون ذلك التسابق هو الحل، حيث أن العدو قد سبق في هذا المجال مما لا يدرك حتى لو سرنا على

(١) ورد في رسائلهم مقتطفات من كتاب الخلافة، أما الكتاب فلم أتمكن من الحصول عليه.

درب السنن الذي قد سار هو عليها - وحتى لو سمح لنا بذلك - ولن يسمح).

وفي أقوال هذه الجماعة مغالطات كثيرة من أهمها ما يلي:

١- لو قرؤوا التاريخ الإسلامي جيداً وسبروا أغواره لعلموا أن الجماعة المسلمة الأولى لم تقعد عن الجهاد بعد أن أوجبه الله عليها، وتسوغ لنفسها الأعداء، وتتنظر هلاك الفرس والرومان، وإنما خاضت حرباً ضروساً مع الدولتين، استخدمت فيها كل ما تمكنت من الحصول عليه من أسلحة عصرية حديثة، وقدمت قوافل الشهداء قافلة تلو الأخرى، وأكرمها الله بالنصر رغم أنها كانت أقل عدداً وعدة من عدوها، ورغم أن المسلمين كان يخوضون حرباً هجومية وليس دفاعية، وكانوا يتحدون العدو في عقرب داره.

ولهذا كان قياس جماعة شكري فاسداً، وجميع النتائج التي انتهوا إليها ليست صحيحة.

٢- زعموا أن الجهاد الإسلامي لا يكون إلا بالسلاح القديم - كالسيوف والقوس -، ومن ثم فلا يصح أن يكون الجهاد الإسلامي المشروع - على حد زعمهم - إلا قتال رجل لرجل.

ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وهذا الدليل حجة عليهم وليس لهم فقلوله:

﴿وَأَعِدُّوا﴾: الإعداد تهيئة الشيء للمستقبل.

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾: [ما] من أفاظ العموم والاستغراق.

أي كل ما تقدر على فعله من أسباب القوة المادية والمعنوية. روى مسلم في صحيحه عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي^(١).

وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث [الحج عرفة] بمعنى أن كلاً منهما أعظم الأركان في بابه، وذلك أن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طائرة أو بندقية أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن هذا معروفاً في عصره صلى الله عليه وسلم فإن اللفظ يشمل المراد منه يقتضيه... ومن قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها والبنادق والدبابات والطائرات والمناطيد والصواريخ والسفن الحربية

(١) صحيح مسلم: (٦٤/١٣)، ومن سنن أبي داود رقم: (٢٥١٥)، وابن ماجه رقم: (٢٨١٣)، والحاكم: (٣٢٨/٢).

والغواصات، ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب بدليل ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب، وقد ورد أن الصحابة استعملوا المنجنيق مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر وغيرها. وكل الصناعات التي عليها مدار المعيشة من فروض الكفاية كصناعات آلات القتال^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾: رباط الخيل حبسها واقتناؤها، ورباط الجيش: أقام في الثغر... والغرض من هذه المرابطة يفسره قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، ولن نرهب أعداء الله بالخيل إذا كانوا يواجهوننا بالطائرات والصواريخ والمدركات، وجملة القول: فحديث رسول الله ﷺ «ألا إن القوة الرمي» ينسف أباطيلهم كلها ولا يبقى لها أثراً.

٣- يؤكدون في رسالتهم المرة بعد الأخرى أنه لا طاقة لنا اليوم بالدول الكبرى، والتفكير - نعم يزعمون أن مجرد التفكير - بمواجهة الغزاة المستعمرين نوع من أنواع الغفلة والسذاجة، وإذن فما علينا إلا الاستسلام والخنوع!!.

قال شكري مصطفى في حديث له مع عبد الرحمن أبو الخير يدافع به عن نفسه:

(إنني أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبه في طريق خطتك فقط، فحجبي للنساء

(١) تفسير المنار (١٠ / ٦١)، وتفسير القاسمي، (ص: ٨ / ٣٠٢٤).

عن الجامعات والمدارس أقول للطاغوت هاأنذا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم. وهجرتي لا تشكل خطراً انقلابياً عليك، وأساهم بذلك في تخفيف مشاكل الإسكان، وبترك الوظائف أريحك من المرتبات التي تدفع لنا^(١).

وفعالاً قد قالوا هذا الكلام للطاغوت خلال لقاءات تمت بين الطرفين، وظنوا أنهم سينجون من الأذى إذا اتبعوا مثل هذه الأساليب الملتوية.

ومن نتائج هذه التربية الجماعية الشاذة ما قاله عبد الرحمن أبو الخير في رسالته إلى نقيب الصحفيين:

(وأحب أن أختتم خطابي هذا بالإفصاح عن واقع اعتقادي: لست معادياً لإسرائيل، وما أنا سوى فرد مسلم غريب لا حول له ولا قوة)^(٢).

وهؤلاء الذين يقولون بأنهم لا يعادون إسرائيل، ويؤكدون للطاغوت بأنهم لا يشكلون خطراً عليه... هؤلاء هم الذين يعتدون على إخوانهم الضعفاء المسالمين لأنهم مرتدون عن الإسلام بسبب خروجهم من الجماعة!!.

٤- هذا الرأي الذي تبنته جماعة شكري لا يعتمد على دليل شرعي، بل وليس فيه عرض أمين للمشكلة، ومثل هذه المواقف الارتجالية كثير عند الهيئات والجماعات الإسلامية.

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين، (ص: ٨٤)، وأخبار مباحثاتهم مع السلطة، (ص: ٥٥).

(٢) المصدر السابق، (ص: ١٨٥).

ولا أدري لماذا اليأس والقنوط إلى مثل هذا الحد، مع أن التاريخ المعاصر على غير ما ذهبوا إليه. فشعب فيتنام تمكن من إذلال الولايات المتحدة الأمريكية، وتمريغ جبينها بالأوحال.

وقلة من اليهود في فلسطين المحتلة تمكنوا من إنشاء جيش أصبح من الجيوش المعدودة في العالم، وأسسوا المصانع التي تصنع فيها أحدث أنواع الأسلحة.

ونحن أكثر عدداً وأموالاً من هؤلاء وأولئك فلماذا نرضى الهوان؟!.

الفصل السابع:

نظرات في تاريخ الجماعة

المبحث الأول: الأوضاع العامة التي سبقت المحنة .

المبحث الثاني: الجماعة من الداخل .

المبحث الثالث : ملف اغتيال الذهبي .

المبحث الرابع : الأهداف التي حققتها السلطة.

المبحث الأول

الأوضاع العامة التي سبقت

المحنة.

الأوضاع العامة التي سبقت المحنة

أعلن الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر حرباً شعواء ضد الإخوان المسلمين، ثم ضد حملة الدعوة الإسلامية، فاعتقل أعداداً كبيرة جداً من الدعاة إلى الله على مختلف انتماءاتهم ومشاربهم، وأعدم آخرين من قاداتهم وأعلامهم، ونشر الفساد في كل مكان من وادي النيل، وفرض حكماً عسكرياً إرهابياً لم تعرف له مصر مثيلاً منذ أن منَّ الله على أهلها بنعمة الإسلام - اللهم إلا في عهد الدولة العبيدية المجوسية التي سميت خطأً بالفاطمية.

لقد سلط جواسيسه ومخابراته على رقاب المسلمين يقتلون وينهبون ويفجرون دون حسيب أو رقيب، حتى صار الأخ يشك بأخيه والأب بابنه والزوج بزوجه^(١)، واتخذ من نفسه نداً لله، فوضع ما أسماه دستوراً وسنَّ ما زعم أنه قانون، وأصدر ما شاء من القرارات والأنظمة والمراسيم، والحق يقال إن أهواءه وحدها هي الدستور والقانون وكل شيء، وما عدا ذلك فهراء وأباطيل.

وإذا كان فرعون الكبير قد قال ذات مرة كما أخبرنا العلي القدير:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر]،

فجمال عبد الناصر قال في حشد كبير:

(١) تبين لبعض الناس الذين أضلهم الله أن نساءهم كن يتجسسن عليهم لصالح النظام، وتفاصيل ذلك في المذكرات الكثيرة التي نشرت بعد هلاك عبد الناصر.

(أنا الذي خلقت فيكم العزة والكرامة... أنا مصر، ومصر جمال)^(١).

وجلّ من قائل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾
[البقرة]

نعم لقد تشابهت قلوبهم، وتوحدت أهدافهم رغم تباعد الأزمان، واختلاف العادات.

وبعد ثمانية عشر عاماً فشل عبد الناصر في كل شيء:

- * فشل في فرض اشتراكيته ودينه الجديد على دين الله تعالى.
- * وفشل في اجتثاث جذور الإسلام من قلوب أبناء الكنانة.
- * وفشل في تنصيب نفسه امبراطوراً على سائر الدول العربية.
- * وفشل حتى في تشكيل حزب يمسك بالسلطة من جميع أطرافها، ويضمن له الاستمرار في الحكم.

وفوق ذلك كله صنع للعرب هزيمة حزيران ١٩٦٧، وما أدراك ما هزيمة

(١) قالها عبد الناصر بعد حادث المنشية، فليراجع من شاء الصحف المصرية الصادرة بهذا التاريخ.

حزيران؟!، وقاد شعبه إلى هزيمة أخرى في اليمن التي سميت قديماً مقبرة الأناضول.

وبعد هزيمة حزيران عاش عبد الناصر حياة لا يحسد عليها: لقد تلاشت أحلامه، وتنكر له أعز أصحابه، وانفض عنه أقرب الناس إليه، وبات يتمنى الموت وينشده.

وأخيراً: استجاب الله لدعاء المظلومين فأهلكه - وقد ظن أتباعه بأنه لن يموت - وجعله عبرة لمن يعتبر.

وورث عرش مصر أنور السادات، وهو شريك عبد الناصر، ورفيق دربه، بل وما كان السادات يحلم بهذا المنصب لولا عبد الناصر.

وبدأ السادات عهده بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، وأعاد معظمهم إلى وظائفهم، وقدم تعويضات مادية للمتضررين منهم.

وزعم أن حكمه سيكون دستورياً ديمقراطياً، وأحاط هذا الزعم بحملة إعلامية واسعة النطاق ضد من أسماهم (مراكز القوى) وهم كذلك، وأوعز لعملائه فراحوا ينددون برجالات العهد السابق من الذين رفضوا زعامته.

فالصحفيون من عملاء السادات، أخذوا يكتبون عما كان يحدث في سجون ومعتقلات مصر: كالسجن الحربي، والقناطر الخيرية، وليمان طره، وتسابقوا في إجراء لقاءات صحفية مع كبار المعتقلين، ومن خلال ذلك يبينون مآثر السادات

العالمية، ويشيدون بعهده الميمون.

والمفكرون وأصحاب الأقلام أصدروا أكداً من الكتب شرحوا فيها ذكرياتهم الأليمة في عهد عبد الناصر، ونشطوا في كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات. ورجال القانون منهم رفعوا قضايا في المحاكم المصرية ضد أقطاب العهد السابق: كسامي شرف، وشمس بدران، وصالح نصر، وحمزة البسيوني.

ولما كان الإسلاميون أكثر الناس تضرراً في عهد عبد الناصر، والأضرار التي لحقت بغيرهم لا تعد شيئاً أمام المصائب التي لحقت بهم... لهذا بدأت تبرز أسماء الإسلاميين، وكثر الحديث عن مشكلاتهم، ومعظم الذين نشطوا في الدفاع عنهم كانوا من ألد أعدائهم، وكانوا يعدونهم من المجرمين وقطاع الطرق، وعلى الأقل ما كانوا يقولون كلمة واحدة في الدفاع عنهم في العهد الماضي، ولولا أن السادات أذن لهم ما نطقوا بكلمة واحدة.

ووجد الإسلاميون الفرصة سانحة، فأقدموا بعد تردد، وشمروا عن سواعدهم، فكتبوا وحاضروا وعقدوا الندوات، وليس غريباً أن يتجاوب جمهور الشباب في المعاهد والجامعات معهم لأنهم أصحاب القضية، ودعاة إلى الحق الذي دعا إليه أنبياء الله ورسله، أما غيرهم فدعاة إلى الباطل، وكانوا ينافقون في عهد عبد الناصر، كما أصبحوا ينافقون للسادات، وقديماً قيل: ويل للشجي من الخلي.

والتبس الأمر على نفر قليل من الدعاة إلى الله، فظنوا أن السادات منحهم حقاً

ليس لهم، وأنه أراد وجه الله في ذلك... فبالغوا في مدحه، وأطنبوا في حديثهم عن طيب أرومته وعلو نفسه وكريم خلقه وحرصه على فعل الخير.

وراح هؤلاء الناس يسوغون لأنفسهم الأعذار قائلين: إن دينهم علمهم أن يقولوا للمحسن أحسنت وللمسيء قد خالفت الصواب... ولماذا لا يذكرون بالفضل والجميل من أنصفهم ورفع الظلم عن كاهلهم، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

وكان السادات داهية في تعامله معهم... لقد استقبل أحدهم ذات مرة في مكتبه، وأمر له بالشاي والحليب ولم يأمر لنفسه لأنه كان صائماً ذلك اليوم، ولأنه يحافظ على صيام يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع كما أخبر الداعية الزائر، ولم يفته أن يؤكد له بأنه لا يفكر إلا بكل ما يرضي الله تعالى، ولن يتوانى عن تحكيم شرع الله، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الصبر والحكمة... وخرج الداعية الزائر مطمئن النفس مرتاحاً من كل ما سمع... وحدث أصحابه ومحبيه عما سمعه من سيادة الرئيس، وشتان شتان - على حد زعمه - بين ما كان يفعله ويخططه له عبد الناصر، وبين ما يفعله ويخطط له السادات.

كما كان السادات داهية جداً عندما غض الطرف عن صدور بعض المنشورات والمجلات الإسلامية، لأنها أصبحت متنفساً للدعاة ولو إلى حين من الزمن.

لهذا وذاك ظن معظم الإسلاميين أن عهد الاستبداد قد ولى إلى غير رجعة،

وجاء عهد الحرية وسيادة القانون، وما عليهم إلا أن يصدعوا بالحق دون خوف ولا وجل ولا حذر، من غير كتمان ولا سرية.

لقد زرت مصر في أواسط السبعينيات، وتجولت في مدنها المهمة، وقابلت عدداً غير قليل من الدعاة وأصغيت - بشغف - إلى أقوالهم وآرائهم... ويال هول ما رأيت وسمعت، ولولا أن الصحف المحلية كانت تنشر على صفحاتها كثيراً من خفايا أخبار الجماعات الإسلامية، كما كانت السلطة تعرف كثيراً مما يجري وراء الستائر والأبواب... لولا هذا وذاك لأحجمت عن وصف بعض - وليس كل - ما رأيت وسمعت لأنه لا يسرُّ إلا أعداء الإسلام والمسلمين.

أول ما لفت نظري تعدد الجماعات الإسلامية، ففي كل مدينة أمراء للمؤمنين ومنابر تذكر الزائر بعصر احتضار الدولة الإسلامية في الأندلس وكثرة الدول والألقاب فيها. قال الشاعر:

مما يزهديني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهـر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

إن تعدد هذه الجماعات لم يعد مقبولاً بحال من الأحوال، وإذا كنا قد نجد أعداراً لوجود جماعة صوفية وأخرى سلفية أو لوجود جماعة متميزة تلتزم منهج أهل السنة والجماعة وأخرى تمالي الطغاة وتدور في فلـكهم، فهناك جماعات لا عذر أبداً في تعددها، ومن الأمثلة على ذلك تعدد جماعات أهل الغلو، وتعدد ما يُسمَّى بجماعات الجهاد، وتعدد الجماعات السلفية، وتعدد الجماعات

الصوفية... لم أجد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا حب الزعامة عند معظم قياداتها.

ومن شر ما سمعت ورأيت أن خطيب هذا المسجد في مدينة من المدن يعتلي المنبر الذي كان يقف على مثله رسول الله ﷺ، فلا يتحدث عن أعداء الإسلام، وإنما يشن حملة مؤسفة ضد جماعة من الجماعات الإسلامية في المدينة نفسها فلا يذكر عنها إلا النقائص والعيوب، دون أن ينسب لها مكرمة واحدة.

وفي الجمعة الثانية يشن خطيب الجماعة الأخرى حملة مماثلة ويرد الصاع صاعين على أقوال الخطيب الأول، ثم تنتقل هذه العداوات إلى المعاهد والجامعات والنوادي العامة.

أما السلطة فكانت تبذل كافة الأسباب التي تساعد على تعميق وترسيخ هذه الخلافات، فصحفها تضخم هذه الخلافات عن طريق تغطية أخبارها، أو تشعل نيران العداوة بين قادة هذه الجماعات عن طريق مقابلات صحفية تجريها مع أحد هؤلاء القادة وتسأله عن رأيه بالآخرين وهكذا.

وكان لجوايس السلطة ومخابراتها دور خطير جداً في تكريس الخلافات، وزرع التناقضات بين الجماعات الإسلامية، وكانت مهمتهم بسيطة جداً، فليس مطلوباً منهم ليكونوا أعضاء في جماعة من الجماعات الإسلامية إلا إعفاء لحاهم، وحفظ بعض الكلمات والردود التي تناسب الجماعة التي يكلفون بالتسلل إليها، ولهذا ترى بعضهم يحفظ بعض الآيات والأحاديث في الجهاد والحاكمية، وبعضهم في التشدد والغلو، وآخرين في التسبب والإرجاء وهكذا.

ليس مطلوباً من رجال المخابرات وغيرهم التعمق في فهم عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة، كما أنه ليس مطلوباً منهم أن يتخلقوا بأخلاق الرعيّل الأول من رجال خير القرون، أو أن يلتزموا بالسلوك الإسلامي في سرهم ونجواهم.

و الأنكى من ذلك كله أن الطريق إلى قيادة بعض الجماعات صار معبداً أمام بعض هؤلاء المشبوهين، وكان يشار إلى بعضهم بالبنان، وكانوا يبذلون جهداً غير عادي في إقامة الندوات، وكان يقال لبعض القادة ألا ترى أن فلاناً وفلاناً من المباحث، فيكون الرد التقليدي:

وما يدريك أنه تاب توبة لو وزعت على أهل الأرض لأشبعتم؟!.

بل وكيف نحجب، ونمنع عنهم الخير والهداية، وما إلى ذلك من أقوال مغلوطة، فالحذر من المشبوهين لا يعني أننا نحكم عليهم بالردة عن الإسلام، ونحن لا نطالب بمنع وحجب الدعوة عنهم، ولكننا نطالب بحجب أسرار الجماعات الإسلامية عنهم.

وهكذا أصبح بأس المسلمين بينهم، وصاروا أعزة على بعضهم أذلة على الكافرين، وتوسع الخرق على الراقع، وباءت جميع المحاولات التي بذلت من أجل وحدة الصف الإسلامي بالفشل.

كلمة لا بد منها: أخطأ الإسلاميون الذين تعاملوا مع السادات ونظامه في السبعينيات، أخطؤوا كثيراً عندما ظنوا به الخير، وأثنوا عليه في بعض كتاباتهم،

وصدقوه فيما يعدُّ به شعبه.

ونحن لا نصدر هذا الحكم على إخواننا الآن وبعد استسلام السادات للنظام اليهودي... وإنما أصدرنا هذا الحكم وقلناه وأكدنا عليه منذ بداية عهد السادات لأسباب كثيرة من أهمها ما يلي:

١- كان للإسلاميين تجربة مع أنور السادات منذ أيام الداعية الإسلامي الكبير حسن البنا رحمه الله - أي قبل بداية تجربتهم مع جمال عبد الناصر -، وكل من يتعامل مع السادات يعلم علم اليقين أنه كذاب مراوغ، ومن أخص صفاته التقلب والغدر والتمثيل... وفوق ذلك كله فهو علماني من المعجبين بأتاتورك أشد الإعجاب.

وأول من يعرف هذه الصفات في السادات الإسلاميون الذين تعاملوا معه في السبعينيات - غفر الله لنا ولهم - بل ولم يكن السادات مستقيماً ثم انحرف، فكيف لدغوا من جحره مرتين؟!.

٢- كان السادات عضواً فعالاً - عضواً يمين - في المحكمة العسكرية التي حكمت بإعدام عبد القادر عودة والشيخ محمد الفرغلي وإخوانهما من الدعاة إلى الله، كما حكمت بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة على عدد كبير من كبار الدعاة، وحكمت أيضاً بالسجن لعدة سنين على آلاف الشباب من خيرة أبناء مصر.

ولم ينس الإسلاميون وقائع المحاكمة وسفاهة رئيسها البكباشي جمال

سالم.

٣- كان أنور السادات رئيساً لتحرير صحيفة الجمهورية الرسمية الناطقة باسم قيادة ثورة [٢٣ يوليو]، وكان يقود حملة نظام عبد الناصر الإعلامية ضد الإسلاميين.

وكان أسلوبه - فيما يكتب ضد قادة الإخوان - يمتاز بالكذب والوقاحة وقلة الحياء، وتلفيق الروايات التي لا أصل لها، وقد عرف ضباط يوليو من يختارون لهذا الغرض، ومن شاء مزيداً من المعلومات عن أسلوب السادات فليعد إلى أعداد الصحيفة الصادرة بذلك التاريخ، وسوف يترحم حيثئذ على أسلوب [أحمد سعيد] في إذاعة صوت العرب.

٤- لم يندم السادات عن دوره الذي قام به فيما سمي محكمة الثورة، ولا عن مقالاته التي كان يهاجم بها الإسلاميين.

وعلى العكس من ذلك أكد في مناسبات عديدة أنه شريك لعبد الناصر في جميع إنجازات العهد السابق، بما فيه من إيجابيات وسلبيات، وأن نظامه استمرار لنظام ثورة [٢٣ يوليو]، وكان يعزو بعض الانحرافات إلى ما أسماه [مراكز القوى] أي الذين رفضوا زعامته، وكانوا يرون أنهم أحق بالحكم منه.

٥- إن جميع الأنظمة التي انبثقت عن انقلابات عسكرية، ثبت أنه لا خير فيها، والأصل فيها سوء الظن، كيف إذا أضفنا إلى هذا معرفتنا لتاريخ هؤلاء العسكريين الأسود، ومن من هؤلاء القادة الإسلاميين لا يعرف أنور السادات

وأين نشأ وكيف تربي؟!.

لا يختلف معنا أحد من القادة الإسلاميين أن هناك جهات أجنبية وراء كبار ضباط ثورة ٢٣ يوليو، بل كان هؤلاء القادة أول من كشف حقيقة هؤلاء العسكريين بعد الخلاف الذي نشب بينهم بعد نجاح الثورة وبعد أن أطيح بمحمد نجيب وانتهاء أمر قيادة الثورة إلى جمال عبد الناصر.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يتداعى المفكرون وكبار القادة من رجال الدعوة الإسلامية إلى اجتماع يتدارسون فيه الموقف من السادات والشعارات الجديدة التي يجعجع بها؟!.

إن مثل هذا الاجتماع لا يعود بالنفع على حزب من الأحزاب الإسلامية فحسب وإنما سيعود بالنفع على كل داعية يعمل في الحقل الإسلامي، ولهذا فلن يؤدي الاجتماع دوره إذا كان قاصراً على جماعة من الجماعات الإسلامية ومن يؤيدها!!.

ومن أهم الأمور التي كان من الواجب أن تشبع دراسة في هذا الاجتماع ما يلي:

١- لقد دخل الدعاة السجون وهم جماعة واحدة، وخرجوا منها وهم جماعات متفرقة. كيف تعالج هذه الظاهرة الخطيرة؟!.

٢- إن واقع العصر قد تغير، كما تغيرت الأنظمة والأساليب التي كانت تصلح في

الثلاثينيات والأربعينيات، لم تعد تصلح في السبعينيات وغيرها.

وهذا يقتضي تقويم مسيرة العمل الإسلامي، وتجنب كل الأخطاء التي وقعت.

٣- هل جاء السادات ليضرب العمل الإسلامي من داخله بعد أن فشل عبد الناصر، وفشلت جميع وسائل الإرهاب والتعذيب؟!.

هل جاء السادات ليلبس لبوس الدعاة، ويغرق البلد في بحر من الفوضى ثم يضرب بيد من حديد؟!.

علم الله أن مثل هذه الأمور كنت أتحدث عنها في بداية عهد السادات، وكنت أعجب من الفوضى التي يتخبط بها الإسلاميون في مصر، وكأنه ليس لهم تجارب في العمل الإسلامي.

قال لي أحدهم ذات مرة:

إن في مصر، بل وفي القاهرة بالذات فوضى لا نظير لها في تاريخ مصر الحديث، وإن رجال الأمن في إجازة يبدو أنها طويلة الأمد، ويستطيع المرء في ظل هذه الأوضاع أن يفعل ما يريد.

قلت له:

لماذا نتصور أن رجال الأمن في إجازة، ولا نتصور أننا أمام مرحلة جديدة تختلف كثيراً عن المراحل السابقة، وسيظهر رجال الأمن في الوقت المطلوب.

والعجيب أن رجال الأمن كانوا يقومون بما يطلب منهم بجدارة ويؤكدون

لكل عاقل أنهم ليسوا في إجازة، بل ثبت أنهم يرصدون حركات الجماعات الإسلامية، ويعرفون عنها أموراً لا يعرفها الدعاة البارزون من جماعات أخرى. إن من أكبر المحن أن لا يعلم الدعاة واقع عصرهم، ولا حجم المؤامرات التي تدبر ضدهم، ولا يتعاملون مع الأحداث بجديّة ومن خلال أرقام ومعلومات دقيقة.

المبحث الثاني
الجماعة من الداخل

أولاً - المناخ الذي ولدت فيه أفكار الجماعة

شكري أحمد مصطفى من شباب الإخوان المسلمين الذين تم اعتقالهم سنة ١٩٦٥م، وكان طالباً في جامعة أسيوط -كلية الزراعة-، وعمره لا يتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة، فهو من مواليد ١٩٤٢م، وكان تحصيله العلمي في أصول الدين وفروعه لا يذكر.

وفي داخل السجون والمعتقلات المصرية شاهد شكري صفوة شباب مصر: خلقاً، وديناً ومروءة، وذكاء... ولم يتم اعتقالهم لعمل شائن وإنما اعتقلوا لأنهم يقولون ربنا الله، ويعملون من أجل أن يكون الدين كله لله... كما شاهد شكري ألواناً من التعذيب والإرهاب لا يحيط بوصفها خيال قصاص ماهر.

وسوف نترك الحديث عما كان يلقاه المعتقلون داخل هذه السجون للمدعو [علي محمود] وهو صحفي مصري زج به نظام عبد الناصر في معتقل [ليمان طره]، وما كان [علي محمود] من العاملين في الحقل الإسلامي، بل ولم يكن متديناً، وكذلك كان حاله عندما كتب هذا المقال في مجلة الأسبوع العربي اللبنانية بعد اغتيال الدكتور محمد حسين الذهبي بأيام قليلة.

عاش علي محمود مدة من الزمن داخل سجن ليमान طره مع شكري مصطفى سنة ١٩٦٨، وسمع منه كثيراً من الأمور، كما شاهد بعينه الويلات والمصائب، وكان مما سمعه من شكري ما يلي:

(كان المسلمون، شباباً وكهولاً، يرزحون تحت وطأة عذاب جهنمي فوق طاقة

البشر، لا لذنب جنوه اللهم إلا أنهم كانوا يتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين. وتحت وطأة السياط والكي بالنار والنفخ ونهش الكلاب والجوع والمهانة، مات من مات، وُجِنَّ مَنْ جُنَّ، واستكان الباقون وفوضوا أمرهم لله. كنا نمشي فوق قطع الزجاج فتدمى أقدامنا - الكلام هنا كله لشكري -، وكنا نصلي لله بعيوننا، فقد كبلت أيدينا وشلت أجسامنا. وكانت حقبة قاسية في معتقل أبي زعبل والسجن الحربي والقناطر والقلعة والواحات وقنا وغيرها، حقبة غسيل الدماغ التي زلزلت الشباب فهتفوا لحسن الأول وحسن الثاني وسلكوا الطريق ضد الأديان! نعم...

هناك ابتلي المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى إذا خفت وطأة العذاب وتوافرت لنا فسحة لمراجعة النفس، عوّلنا على تقييم الأمور بعيون المؤمنين وعقول الواعين لماهية العقيدة.

لقد انتشرت نزعات الكفر في مجتمعات المسلمين، وسرت تمور في جسد الأمة كالسم الزعاف لدرجة فاقت جاهلية ما قبل الإسلام. وعندئذ رجعنا إلى أفكار الشهيد سيد قطب، وهو الذي طرق باب أزمة العقيدة في كتابه [في ظلال القرآن] حيث دق ناقوس الخطر محذراً من جاهلية القرن العشرين^(١).

(١) من الجدير بالذكر أن أفكار وتصورات هذه الجماعة لا يربطها رابط بسيد قطب رحمه الله، وسنبيّن ذلك في الجزء الثاني من هذا البحث إن شاء الله.

وهنا نرى في عالمنا - عالم الكفر البين -، كيف أن الزنابات يمارس على قارعة الطريق، وكيف انتشرت بيوت الدعارة ودور الخلاعة، وكيف أصبح الشباب يدورون في معترك الضياع يمزقهم الكفر. أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

وفي موضع آخر من مقالات [علي محمود] وصف عملية [غسل الدماغ] ومراحلها فقال:

١ - مرحلة التسخين:

هذه رحلة حتمية لا بد منها لكل المعتقلين حتى يعتادوا الخنوع وتلين عريكتهم ويجهزوا للتحقيقات. وهي تشمل على [التعليق] بأن توضع معصما المعذب في أصفاد، ثم يحتضن ركبتيه بعد أن يوضع عامود من الحديد تحت ثنيتي الركبتين ثم يرفع المعذب إلى أعلى ويوضع طرفا عامود فوق عارضتين من الخشب. عندئذ يسقط الرأس إلى الورا وترفع القدمان إلى أعلى. والمعذب في هذه الحالة عار من كل ثيابه تماماً كما ولدته أمه. ثم يصار إلى ضربه بالسياط والهراوات على رجليه إلى أن يفقد وعيه.

٢ - مرحلة الترويض:

وهي التي تتخلل مراحل التحقيق، إمعاناً في ممارسة الضغوط الجسدية وظناً أنها تجبر المعذب على أن يفرغ رأسه من كل ما بها من معلومات. وهي تشمل التعليق والنفخ وصدّات الكهرباء.

٣- مرحلة التبخير:

وهنا تشتد الضغوط، بأن تطلق الكلاب الشرسة تنهش من جسد المعتذب في أجزاء بين الفخذين، وتنزع أظافره، ويوضع في أحواض مليئة بقطع الثلج. ويستمر هذا إلى أن يبول الأخ المسلم على نفسه، ويبدأ في الهذيان.

٤- مرحلة الإذابة:

يستمر التعذيب المُرَكَّب الطويل إلى أن ينسى المعتذب اسمه ويبدأ يعلن الكفر. وهنا يكون الدماغ قد وصل إلى حالة سموها [الشلل الوقائي]، وهي المرحلة المثلى لصب أفكار تناقض عقائده، عندئذ تتم عملية غسل الدماغ وتحويل العقيدة في رأسه.

وفي موضع ثالث يمضي الصحفي المصري [علي محمود] في الحديث عن مشاهداته وذكرياته عن أيام سجنه، فيذكر حادثتين لهما دلالات مؤسفة جداً:

الحادثة الأولى:

بعد نكسة^(١) ١٩٦٧ سمحت سلطات المعتقلات لنا بممارسة بعض أنواع الهوايات. وكان السبب في التنازل أن الصليب الأحمر الدولي قد تمكن من إقناع السلطات بالسماح للمعتقلين اليهود بمثل هذه الامتيازات، فكان أن حظي

(١) إنها هزيمة وليست نكسة، ومن المؤسف أن بعض الكتاب الطيبين يستعملون مثل هذه الألفاظ دون الانتباه إلى مدلولاتها.

المعتقلون كلهم بمثل ما نال اليهود.

الحادثة الثانية: ألم تُضَبَط في جامع؟!

زار مدير عام المباحث العامة اللواء حسن طلعت أحد المعتقلات أعقاب هزيمة ١٩٦٧، وِعَوَّل رغم جهله الشديد على مقارعة المعتقلين حجة بحجة ورأياً برأياً.

وحدث أن نهض شاب دون العشرين وشكا الاعتقال وتساءل لماذا استمر اعتقاله رغم أنه لم ينتم إلى جماعة أو فكرة، وهنا همس المقدم سلومة شيئاً في أذن اللواء الذي لم يلبث أن زار:

(ألم تُضَبَط في جامع؟ عندما أمسكوا بك، ألم تكن في جامع؟ كيف تدعي إذن أنك لا تنتمي إلى فكرة أو جماعة؟ اجلس).

عندئذ هتف الشيخ عارف [مفتش وعظ بمساجد منطقة الدلتا]:

(لو ضبطوك في بيت دعاة أو في خمارة لأفرجوا عنك. أما أن يضبطوك في جامع فالويل لك).

انتهت الفقرات التي نقلتها من مقالات المصري [علي محمود]... وإذا كانت عباراته قد اختلطت بعض الشيء بعبارات شكري مصطفى، فما نشر قبل هذه المقالات وبعدها من وثائق يؤكد أن الذي كان يلقاه الدعاة داخل المعتقلات المصرية أضعاف أضعاف ما وصفه علي محمود، ونكتفي هنا بنقل فقرة من

حيثيات حكم المحكمة العسكرية العليا في نهاية سنة ١٩٧٦ :

(إن المحكمة لتسجل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوى [تعذيب] كانت سبة في جبين الحكم المصري، يندى لها خزيًا وعاراً، ولعل في حكم المحكمة ما يسدل على حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأهينت كرامة الإنسان، الذي كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حدها الأدنى، حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسيط لتوصلاً للإرهاب وللإلقاء في غياهب في السجون أو تقريباً زلفى للحكام والرؤساء، حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربي بمصر، حقبة من تاريخ مصر أعادت إلى الأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجري فيها من مخاز وفضائح، حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلى ابتكار وسائل التعذيب).

إن هذه الحيثيات كتبها أحد القضاة في لحظات صحا فيها ضميره وثاب إلى رشده... أما القضاء المصري، وكلّ قضاء لا يُحكّم شرع الله فالأصل فيه الظلم، وإن تظاهر القائمون عليه بالعدل والاستقامة، وقد عادت السيادة للسيط في مصر بعد صدور هذه الحيثيات بسنة واحدة أو ينقص قليلاً عندما تم اعتقال شكري وأصحابه بسبب اختطاف الشيخ الذهبي، كما عادت الحقبة التي امتهنت فيها كرامة المسلم عندما تم اعتقال خالد الاستنبولي ومن معه من الذين قتلوا أنور السادات بعد صدور هذه الحيثيات بحوالي أربع سنين.

ثانياً - أضواء على شخصية شكري مصطفى

* من هذا الرجل الذي ألغى أصولاً من دين الله ووضع أخرى جديدة؟!.

* ما هي أبعاد العقلية التي يفكر بها، وكيف تجرأ وزعم بأن رأيه أقوى من إجماع الصحابة رضوان الله عليهم؟!.

سوف نحاول فيما يلي الإجابة عن هذين السؤالين، وعن أسئلة أخرى كانت وما تزال تثار حول قائد هذه الجماعة.

نبذة عن حياته:

شكري أحمد مصطفى من مواليد سنة ١٩٤٢ قرية الحواتكة - مركز أسيوط-. والده متزوج من غير والدته، وله منها أولاد متفوقون في دراستهم، كما أن والدته متزوجة من آخر ولها منه أولاد متفوقون أيضاً، بينما تعثر هو في دراسته، وكان منطوياً على نفسه منذ أن كان تلميذاً بمدرسة أسيوط الثانوية، ولم يكن له أصدقاء، بل وكان منبوذاً من جميع زملائه في الدراسة.

وافترق الزوجين لا يعني بالتأكيد انطواء الأبناء وتقوقعهم، وعلى العكس من ذلك، فإن معظم الذين نبغوا في التاريخ وأصبحوا قادة كباراً كانوا يتامى أو فقراء مدقعين أو عاشوا مع غير آبائهم، وربما كان انطواء شكري وتقوقعه بسبب بعد أمه عن أبيه أو لسبب آخر لا نعلمه.

وفي سنة ١٩٦٥م تم اعتقال شكري بسبب انتمائه لجماعة الإخوان

المسلمين، وهو ما يزال طالباً في جامعة أسيوط - كلية الزراعة - وتم الإفراج عنه في أواخر سنة ١٩٧١م بعد أن لبث في سجن [ليمان طره] ست سنين.

كان داخل السجن - كما وصف زملاؤه الثقات -: عصبي المزاج، يميل إلى الغلو والتشدد في جميع أمور حياته، يكثّر من تجريح من حوله من الناس إذا خالفوا رأياً من آرائه، وما أكثر ما يحدث ذلك بين مجموعة من البشر أراد الله لهم أن يعيشوا في حجرة واحدة أو في حُجْر متقاربة عدة سنين، وفي أجواء نفسية لا تطاق.

ولهذا كان شكري داخل السجن كما كان خارجه منبوذاً من زملائه.

قال صديقه وعضو تنظيمه عبد الرحمن أبو الخير:

(... كان الشيخ شكري في معتقل طره السياسي منبوذاً من أكثر الإخوان...) ثم يقول عن أسلوبه:

(وما عاب هذا الأسلوب حينئذ غير عصبية في الطبع حالت بينه وبين الالتقاء مع الآخرين من رجال الحركة الإسلامية)^(١).

وفي موضع آخر يقول أبو الخير:

(وكنت كلما استمعت إلى الأخ شكري ازددت يقيناً في أنه تغير، فلم يعد شكري ذلك الفتى العصبي الذي لا يؤبه بشأه كما شاهدته آخر مرة في معتقل طره

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين، عبد الرحمن أبو الخير: (ص: ١٨ و ١٩).

السياسي، لقد كان حينئذ شكري الداعية المكتمل لعناصر الإمامة^(١)، لولا بقية من الهياج العصبي الذي يدفعه لتجريح محدثه إن لمس فيه أدنى من ذرة من الخلاف في الرأي).

ويقول أصدقاء شكري: إنه كان شديد الثقة بنفسه، لا يتراجع عن رأي يراه، مهما كلفه ذلك من توضيحات وخسائر، وكان يحتقر آراء الآخرين ولو كانت بالغة الأهمية ومصحوبة بالأدلة الشرعية، وكان غروره بنفسه يزداد مع مرور الزمن وكثرة الصراعات مع الآخرين.

ونقل لنا عبد الرحمن أبو الخير عن أحد قادة الجماعة [مصطفى عبد المقصود غازي - أبو توبة -] قوله:

(والله يا أخي - المخاطب عبد الرحمن - إنني خائف على أبي سعد - شكري -، إذا تمكنت فكرة من عقله تشبث بها، وإنني أخشى على عنقه من الجاهلية).

وقال أبو الخير في موضع آخر:

(وكان الشيخ شكري لا يتراجع في أمر مقتنع به، وكان يستشير أبا مصعب وأبا عبد الله والآخرين، ولكن الرأي النافذ دائماً والغالب كان رأيه)^(٢).

(١) يبدو أنه مكتمل لعناصر إمامة أهل الغلو، أما إمامة أهل السنة فلا أظن أن أبا الخير يعرف شروط الإمامة وعناصرها عندهم.

(٢) ذكرياتي مع جماعة المسلمين: (ص ٣٢ و ٧٢ و ١٠٢).

وعن نشاط شكري وحركته قال أبو الخير:

(... كنت أعلم أيضاً أن الذي يؤجج في نفسه الحركة من أجل هذا الهدف هو ذاته، لقد كان تواقفاً لأن ينجح كأمر، وكان يطرب في نفسه عندما يشيع أمره في دولة ما، قال لي ذات يوم: نحن موجودون في الأردن، والحكومة هناك تعلم ذلك. قالها بنبرة سعيدة تخلو من حسبان العواقب)^(١).

نعم كان شكري أحمد مصطفى تواقفاً لأن ينجح كأمر!! للمؤمنين في أرض الله، وليس كأمر لمجموعة محدودة العدد في بلد من البلاد. ومن أجل أن يكون أميراً سهلاً عليه أن يغير ويبدل في دين الله^(٢) كما يشاء ويريد!!.

ومن أجل أن يكون أميراً ويتلذذ بالزعامة وطاعة الناس له زعم أن له حقوقاً على أتباعه لا تكون إلا لنبي من الأنبياء!!.

ومن أجل أن يكون أميراً أفتى لجماعته بجواز التعامل مع السلطة وغير السلطة ضد الشيخ الذهبي رحمه الله ومن هم على شاكلته.

هذا وسوف تكون الصورة أكثر وضوحاً في الصفحات القليلة القادمة عندما نبسط مفاهيم الجماعة وتصوراتها عن القيادة، وكيف زعموا بأن من يتخلى عن

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين: (ص ٥٣).

(٢) هل هذا التغيير بدافع من هواه أم هذا هو حدود فهمه للنصوص؟!.

عضويته في الجماعة يكون مرتداً عن الإسلام حلال الدم والمال.

ثالثاً - كيف تفجرت الفتنة؟

في سنة ١٩٦٧ طلب رجال الأمن من جميع الدعاة المعتقلين تأييد رئيس الدولة ورمز النظام المصري جمال عبد الناصر.

وسارعت فئة من المعتقلين إلى تأييد الرئيس ونظامه، وزعمت بأنها تتكلم باسم جميع الدعاة، وما اكتفت هذه الفئة بمثل هذا الموقف المؤسف، وإنما أخذت على عاتقها مهمة الدخول بحوار مع رجال الأمن، وصدقوا الوعود المعسولة التي كان يتبجح بها مدير المباحث العامة ومدير السجن الحربي، وظنوا أنه سيتم قريباً الإفراج عنهم ويعودون إلى وظائفهم، وكانت هذه الفئة القليلة تحتوي على نوعين من الناس:

نوع يتعاونون مع السلطة لأنهم عملاء وثبت بأنهم [طابور خامس]^(١) داخل الحركة الإسلامية ومن أبرزهم علي عشاوي، ونوع آخر ليسوا عملاء بالمعنى السابق، وإنما هم رجال سياسة، وقد التحقوا بالدعوة الإسلامية وهي في أوج قوتها بغية الحصول على مغانم كبيرة، فكانت حساباتهم خاطئة، ووجدوا أنفسهم بعد حين داخل السجن وفي [زنزانات] مظلمة. أما جمهور الدعاة فقد لجؤوا إلى الصمت، ولم يعارضوا أو يردوا على الذين تكلموا باسمهم، والحق

(١) هل هذا الارتباط كان بعد السجن أم قبله؟! هذا مما لا أعلمه.

معهم في اتخاذ مثل هذا الموقف لأنهم في حالة إكراه، وحكم المكره معروف في الشريعة الإسلامية.

وفي هذه الأجواء الرهيبة رفضت فئة قليلة من الشباب موقف السلطة، وأعلنت بأن رئيس الدولة كافر لا يختلف عن أبي لهب وأبي جهل في القديم، ولا عن بن غوريون وليفي اشكول في الحديث، ولم يقف هؤلاء الشباب عند هذا الحد، وإنما زعموا بأن الذين أيدوا السلطة من إخوانهم مرتدون عن الإسلام، وأن المجتمع بأفراده كفر لأنهم موالون للحاكم، ولا ينفع الناس صلاة ولا صوم إذا كان ولاؤهم لغير الله تعالى.

وكان إمام هذه الفئة من الشباب شيخاً من خريجي الأزهر تأثر بأفكار وتصورات الخوارج... وبعد حين من الزمن آب الشيخ علي عبده اسماعيل إلى رشده، وأعلن براءته من الأفكار التي كان ينادي بها، وسارع الشاب شكري مصطفى إلى اتهام شيخه بالكفر، وتولى بعده إمامة هذه الجماعة التي أسماها [جماعة المسلمين] وأسماها السلطة [جماعة التكفير والهجرة].

والسلطة من جهتها كانت تعلم حجم القنبلة التي فجرتها بين أبناء الجماعة الواحدة، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى ضرب الصف الإسلامي من داخله، وكانت حساباتها دقيقة جداً، بل كانت الأمور قد تم ترتيبها مع الذين يتعاونون معها، ولم تُفاجأ بكل ما حدث فيما بعد.

إلى هذا الحد هذه هي قصة نشأة جماعة شكري داخل السجن، وإن اختلف

أسلوب عرضها من كاتب لآخر.

وهناك جذور قديمة وأسباب مهمة لهذه المأساة، لم تطرق من قبل -في حدود ما اطلعت عليه من كتابات-، ولا نرى مصلحة من السكوت عنها، لأنها لم تعد سراً من الأسرار، ونوجزها فيما يلي:

١- تفجرت المشكلة سنة ١٩٦٧م، وكان قد مضى على تأسيس الجماعة أربعون سنة، ورغم ذلك لم تدرس عندهم قضية الموقف من الأنظمة التي لا تحكّم شرع الله، ولهذا كانت مواقفهم في هذه المسألة غير ثابتة، وإنما تختلف من بلد لآخر، لا بل تختلف من شخص لآخر، مع أنها من أخطر قضايا المعاصرة ومن أخص خصوصيات العقيدة والفقهاء والجماعة والفرد.

وإضافة لهذا كله فمن أجل أن يكون الحكم والدين كله لله قامت الجماعات والأحزاب الإسلامية في عصرنا الحديث. ومن المحزن أن بعض الكتاب المعاصرين بعد اعترافهم بأن قضية الحاكمية لم تُدرس عند الجماعة عدّوها من نقاط القوة لأن علماء السلف قد أشبعوا المسألة بحثاً ودراسة، ولأنها واضحة ولا مجال لتعدد الآراء فيها.

غفر الله لنا ولهؤلاء الأخوة، إن علماء السلف رضوان الله عليهم قد أشبعوا قضايا عصرهم بحثاً ودراسة، ونحن عندما ندرس قضية معاصرة نستفيد من آرائهم ومواقفهم نظراً لتشابه الأمور وتداخلها، لكنه من الخطأ أن نتصور أنه ما من جديد إلا وقد وضعوا حلاً شافياً له، والحل لا يكون إلا بعد الاطلاع على

هذه المشكلات التي لم يكن لها وجود في عصرهم... وهذه من غير شك مسؤولية وعلماء هذا العصر.

أما أن القضية واضحة، فغير صحيح هذا القول على الإطلاق، ولو كانت كذلك لما وقع الخلاف داخل السجن وخارجه، وما تزال الأقوال والمواقف متضاربة في هذه المسألة في كل بلد من عالمنا الإسلامي الكبير.

وجملة القول: فإن موقف الجماعة من الأنظمة التي لا تحكم شرع الله ثغرة استطاعت السلطة أن تنفذ إلى الجماعة وتشق الصف الإسلامي من خلالها.

٢- تم اعتقال شكري أحمد مصطفى لأنه عضو في تنظيم ١٩٦٥م، ولهذا التنظيم رأي ببقية الأعضاء الذين ينتسبون إلى الجماعة الأم، ولهم عليهم مأخذ كثيرة من أهمها:

الحاكمية، والتعاون مع الظالمين، وسياسة التجميع، وتمييع كثير من الأمور الإسلامية، وأمور أخرى: بعضها صحيح، وبعضها فيه شيء من التشدد الغلو.

وكانت مثل هذه المواقف ليست واحدة عند الأفراد، فبعضهم فطر على السماحة وحسن الظن، وبعضهم يمتاز بالتشدد والعصبية.

وعندما قامت السلطة باعتقال الدعاة إلى الله سنة ١٩٦٥م، كان واضحاً أن هناك جماعتين داخل السجن:

- الأعضاء العاملون في تنظيم ١٩٦٥، وهم شباب التزموا بالإسلام قولاً وعملاً،

ويغلب عليهم التشدد، وقد صمدوا أمام التعذيب صموداً مشرفاً، واستهانوا بالظلم والظالمين، واستعذبوا الموت في سبيل الله تعالى.

- الأفراد الذين كانوا ينتمون للجماعة الأم، ولم يكن لهم تنظيم بعد محنة ١٩٥٤م، وليس بينهم تجانس ففهم الصالح المستقيم، وفيهم من هو غير ذلك، ومعظمهم كان قد كبر سنه واستوى عوده، وعاش جزءاً كبيراً من حياته داخل السجن.

وكان معظم أفراد الجماعة الأم ينظرون إلى أعضاء جماعة ما يسمى تنظيم ١٩٦٥م الأولى نظرات فيها كثير من عدم الارتياح، لأنهم يرون بأنهم غرباء عنهم، وليسوا من جماعتهم، وهم الذين كانوا سبباً مهماً فيما تعرض إليه الدعاة من محن وكوارث.

وخلاصة القول: فإن جذور الخلاف قديمة، والسلطة تعلم ذلك، وكانت تعرف كيف تضرب ضربتها الأليمة.

٣- من الأخطاء الشائعة في الساحة الإسلامية المعاصرة، أن كثيراً من الآراء التجديدية تقابل ببرود واستنكار، وإذا أصر أصحابها على موافقهم تصدر أوامر القيادة بفصلهم واعتزالهم والبعد عنهم والتنفير منهم.

وفي أغلب الأحيان يقال عنهم ما ليس فيهم، ويلصق بهم ما هم برآء منه.

وقضية هؤلاء الشباب لم تعالج منذ البداية بالحكمة والأسلوب الحسن، ولم

تعط حجمها الطبيعي، ولم تقدم لحسمها الحلول والدراسات الشرعية التي تستحقها. ومعظم الشباب لا يتحملون مثل هذه المواقف، ويقابلون الشدة بمثلها إن لم يردوا الصاع صاعين، وشكري من هذا الصنف من الشباب، وقد قلنا أكثر من مرة أنه كان عصبي المزاج، شديد الانفعال، وزيادة على ذلك كله فقد كان يرى أنه صاحب مواهب وطاقات لا تستوعبها الجماعة الأم، ولا سيما وهو ينظر إليها من خلال فئة قليلة جداً انحرفت وضلت سواء السبيل.

والخلاصة: فإن هذه الأمور مجتمعة أججت سلبيات كثيرة في نفسية شكري دعته إلى اتخاذ موقف مؤسف، وأعلن عن قيام جماعته، ثم بدأت مواقفه تزداد غلواً وتنطعاً.

رابعاً - مفهوم القيادة عند الجماعة

بدأ شكري خط الانحراف، وأصبح أسيراً لأهوائه وشهواته، وحدثته أوهامه أنه أصبح مصلحاً عظيماً، ومهدي هذه الأمة المنتظر، وظلَّ الله في الأرض، وأميراً للمؤمنين، وقائداً لجماعة المسلمين.

وكانت المشكلة الأولى التي واجهته: تعارض تصوراته الجديدة مع أصول الإسلام التي أجمعت عليها الأمة منذ عصر رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا، وخرج من هذه الورطة بالنتائج التالية:

* رفض القياس على مختلف أشكاله وأنواعه.

* وزعم أن قول الصحابي وفعله ليس حجة ولو كان من الخلفاء الراشدين.
* وكان يرى بأن الإجماع ليس دليلاً شرعياً على الإطلاق سواء كان صريحاً أو سكوتياً، أو كان إجماع الصحابة رضوان الله عليهم.

* لا قيمة عنده للتاريخ الإسلامي، وأقوال العلماء المحققين، وأمّهات كتب التفسير والعقائد، وزعم بأن كبار علماء الأمة - في القديم والحديث - مرتدون عن الإسلام.

* قال شكري بحجية الكتاب والسنة، ولكنه كغيره من أصحاب البدع الذين اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، فما وافق أقوالهم من السنة قبلوه، وما خالفها تحailوا في رده أو رد دلالتة.

* زعم شكري أن كل مسلم عليه أن يعرف الأحكام بأدلتها، ولا يجوز التقليد في أي أمر من أمور الدين: أصلاً كان أو فرعاً، ومن قال بغير ذلك فقد كفر وارتد عن الإسلام^(١).

وإذن: فالأدلة الشرعية - عند هذه الجماعة - تعني الأوامر الصادرة عن القيادة، وليس لأحد من الناس الحق بمخالفتها ولو بدليل واضح من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ.

والقيادة هي شكري مصطفى وحده، فقد يستشير من حوله، ولكن الشورى عنده غير ملزمة على الإطلاق، والرأي الأخير يبقى له.

(١) هذا تلخيص لأقوالهم التي سقناها في الفصول الستة السابقة من هذا الكتاب.

ومخالفة رأيه قد يكون ردة عن الإسلام في بعض الحالات، وتكون من الكبائر في حالات أخرى.

ولا يكون الإنسان مسلماً إلا إذا انتسب لهذه الجماعة وبايع قائدها، ولا يجوز تعدد الجماعات على الإطلاق، فهم جماعة الحق، والجماعات الأخرى جماعات ضلالة وكفر - على حد زعم شكري -.

وطاعة شكري طاعة الله، والتسليم لله لا يتجزأ - أي لا يكون الإنسان مسلماً إذا رفض الإذعان لأوامر قائد الجماعة.

وتراهم يؤكدون على هذه المعاني كثيراً في رسائلهم. جاء في رسالتهم التوسمات:

(وهكذا فعلى الذين يظنون أنه سيكون للحركة الإسلامية مائة إمام أو أنها يمكن أن تنشأ في مائة قرية، أو أن تلتقي الحركة الإسلامية حول مائة نواة وسرة، أو أن تنشأ في بلاد تتكلم اللاتينية أو التركية... على هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم وينتبهوا أن لكل شيء نواة وسرة وأماً، فيها تتجمع أصول المادة وصفات الشيء تلتف البقية حولها وتدور في فلكها... وأنه لا الحركة الإسلامية ولا شيئاً مما خلقه الله يشذ عن هذه السنة، من أول الذرة الهائلة إلى الفلك الدائر... وأنه ليس من طبيعة الأشياء أن يخرج إمامان وجماعتان على درجة واحدة من العلم والهدى والاجتباء وملابسات الأقدار، وإلا فلو كان كذلك لجاز لنا شرعاً وقدرأ أن نتخذ إمامين، وأن يكون المسلمون أمتين... ومعاذ الله، وإنما هو إمام واحد، وسرة

واحدة.. وقبله واحدة يتوجه إليها وينطلق منها وتبدأ فيها الحركة الإسلامية البداية المثالية... قرية واحدة هي أم القرى... ثم تبدأ الدعوة إلى الله... وإنما لا نجد لأم القرى نظيراً ومثيلاً في بلاد العرب الآن إلا مصر).

وجاء في موضع آخر من التوسمات:

(نريد أن نقول أن التسليم لله تعالى لا يتجزأ، وأنا لا نقبل من الناس في دخولهم في جماعة الحق - وإن تأخر دخولهم - إلا الاعتراف الكامل بألوهية الله والسمع والطاعة والبينة الكاملة... والتمادي في طاعة الله في كل جديد يعلمون أنه أمر من الله، ومن خلال الجماعة المسلمة وإمامها) انتهى كلامهم.

قارئ الكريم: أرايت كيف يتلاعبون في اللفظ، ويحرفون الكلم عن مواضعه؟

* دين واحد لا يجوز أن يتعدد!!.

* رب واحد ليس له شريك أو مثيل!!.

* قبلة واحدة هي مكة المكرمة!!.

* قرية واحدة هي مصر!!.

* جماعة واحدة يعني جماعتهم!!.

* إمام واحد يعني شكري مصطفى!!.

وطاعة الله، والإذعان له، والاستسلام لأوامره، واجتناب نواهيه... هذه الأمور كلها لا تكون إلا من خلال جماعتهم وأميرهم!!.

ولو قامت للإسلام دولة في بلاد العجم: أي تركيا، وباكستان وغيرهم، وكانت السيادة فيها لشرع الله لما كانت دولة إسلامية لأن أميرها ليس شكري!!.

وهؤلاء الذين يقدسون زعيمهم، ويعدون أقواله وأفعاله أدلة شرعية هم الذين يهاجمون التقليد، ولا يعتبرون إجماع الصحابة رضوان الله عليهم دليلاً، والله في خلقه شؤون!!.

خامساً- الآثار الناجمة عن مزاجية القائد

كان شكري في جماعته أشد استبداداً من القادة الظالمين في عصرنا، وكان يستدعي الشباب بأوامر عسكرية صارمة، ويويل لمن تردد أو رفض تنفيذ هذه الأوامر.

وكان قائد هذه الجماعة مزاجياً في كل ما يصدر عنه من تعليمات وأوامر، فقد يمنع اليوم ما كان يبيحه بالأمس ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

* كان شكري لا يجيز الصلاة في المساجد لأنها مساجد ضرار تستخدمها السلطة في حربها التي تخوضها ضد الإسلام والمسلمين.

وكان قد أمر جماعته بإقامة صلاة الجمعة في شققهم، وبعد حين من الزمن أصدر أوامره بعدم إقامة صلاة الجمعة والاكْتفاء بصلاة الظهر بدلاً عنها.

* أصدر أوامره بحلق اللحى، لأن طبيعة مصلحة الجماعة تقتضي ذلك،

فسارعوا إلى حلقتها لأن الأمر الآخر نسخ الأول.

* صدرت الأوامر بمنع التلاقي بين الأفراد إلا بإذن مسبق من الأمير منعاً لانتشار حركة الانشقاق^(١) أو الردة بين الجماعة، وتم بموجب هذا الأمر عزل الأفراد عن إخوانهم في الجماعة بعد أن عزلوا عن الأهل والأقرباء وسائر أفراد المجتمع.

* قبلت الجماعة مبدأ التحاكم إلى المحاكم المصرية بغية الحصول على تعويضات مادية كما وعدتهم أجهزة الأمن، مع أن الجماعة ترى أن هذه المحاكم من أوكار الطاغوت. وكان الأفراد يسارعون إلى تنفيذ هذه الأوامر بعد أن يُبلَّغوا بها، وليس لأحدهم أن يعترض لأي سبب من الأسباب مهما كان وجيهاً.

ومثل هذا الاعتراض قد يكلف الفرد روحه وأمنه، وفي معظم الحالات يفسر بأنه ردة عن الجماعة، وقد صدرت أوامر الجماعة بتصفية المرتدين، كما صدرت الأوامر بتصفية بعض أفراد من جماعات أخرى، لأنهم أصبحوا خطراً على جماعة شكري، ففي ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٧٦ قام جماعة شكري بمهاجمة من أسموهم مرتدين - بالمعصرة - في القاهرة، كما هاجموا حسن الهلاوي ومن معه من تجمع الفنية العسكرية بالهرم، وطعنوا

(١) المرتدون: هم الذين تخلوا عن الجماعة: تنظيمياً ومنهجاً. والمنشقون: هم الذين يوالون منهج الجماعة، ولكنهم شقوا عصا الطاعة على قيادتها، أو أن القيادة عزلتهم.

الهلاوي عشرين طعنة بالسكاكين والمطاوي وقد نشرت الصحف المصرية هذا الخبر مضخماً كعادتها عندما تتعرض لقضية إسلامية.

ومن المناسب أن ننشر فيما يلي أقوال بعض الذين تم الاعتداء عليهم، ونجاهم الله من القتل:

١- رفعت أبو دلال: (أنا من أوائل المؤسسين لجماعة التكفير والهجرة، انضمت إليها في أواخر سنة ١٩٧٢. بعد صدور أوامر القبض علينا في أواخر أمن دولة عليا لسنة ١٩٧٣ لجأنا إلى المغارات وكهوف المنيا وتعرضنا في بداية الدعوة إلى متاعب كثيرة... وكنت من أشد المقتنعين بهذه الجماعة وأفكار أميرها.

وانزعجت عندما علمت أنهم يعتمدون بالضرب على من ينشقون عنهم، ولما طلبوا أن أشارك في إحدى الفرق المخصصة لهذا الغرض قررت الانفصال عنهم فتعقبوني).

٢- المهندس أحمد محمود عرفة: (حينما تعرفت على شكري - أمير الجماعة - أقنعني في البداية بمنهجه ومعتقداته ومن ذلك تكفير المجتمع حاكماً ومحكوماً لإصراره على ارتكاب المعاصي، وتحريم التعليم في مدارس الدولة لأنها كافرة والمناهج غير دينية، وتحريم العمل في هيئات الحكومية المصرية ووظائفها العامة... لأن هذه الحكومة كافرة وتتعامل بالربا... وعليه لا يجوز الانضمام أو الخدمة في جيش ينتمي إلى دولة كافرة، وكل أئمة المساجد كفار لا يجوز الصلاة خلفهم، مع ضرورة الهجرة إلى مكان لا سلطان فيه لإنسان على

إنسان حيث يعبدون هناك الله ويعدون أنفسهم بدنياً وعقائدياً ثم يزحفون على المجتمع الكافر لتغيير نظامه بالقوة. هذا بالإضافة إلى استباحة الاستيلاء على أموال^(١) الغير باعتبار أنها أموال كفار تعتبر في حكم الغنائم لإنفاقها في سبيل الله. وسافر بعض أعضاء الجماعة بالفعل إلى شمال اليمن خصوصاً أن أميرهم يتصور أن اليمن هو المكان الصالح لإقامة المجتمع الذي ينشده).

٣- المهندس محمد سعد الدين: (انضمت إلى هذه الجماعة في أغسطس ١٩٧٥ وتركتها في مايو ١٩٧٦، ومن يومها وأنا أتعرض لاعتداءات متكررة منهم... فقد كانوا يزوجون الفتيات اللاتي وقعن في شباكهم لأعضاء التنظيم، وإذا فاء أحدهم إلى رشده وترك الجماعة، طلقوا منه زوجته... لأن الخارج عنهم كافر ولا يجوز زواج الكافر من مسلمة... ثم يزجونها بعد ذلك من عضو آخر.

ويحرّضون الطلبة على ترك دراستهم بدعوى التفريغ للعبادة ويحثون الموظفين والعمال على ترك أعمالهم والعمل في [مهن حرة] ناهيك عن تكفيرهم لبعض الأنبياء لارتكابهم المعصية كآدم وإبراهيم وموسى عليهم السلام).

- وكذلك من الذين حاولوا اغتيالهم المهندس الزراعي عبد السلام مصطفى، وقد حققت نيابة أمن الدولة العليا مع متهمين أربعة من الجماعة حاولوا تنفيذ الجريمة.

(١) معظم جماعات أهل الغلو - رغم ما بينهم من خلافات أصولية- يجيزون الاستيلاء على أموال الغير، وليس عندهم دليل شرعي على ذلك إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

أما رفعت أبو دلال وأحمد عرفة، فهاتجهمها عدد من الجماعة برئاسة أميرهم، مما دفع المجني عليهما إلى إلقاء نفسيهما من النوافذ حيث نقلوا مصابين إلى المستشفى^(١).

سادساً - خوف الكل من الكل

وصف عبد الرحمن أبو الخير أوضاع أعضاء الجماعة التنظيمية

(١) نشرت مجلة روز اليوسف المصرية هذه اللقاءات في عددها الصادر بتاريخ ١١/٧/١٩٧٧م. وكانت الصحف المصرية قد نشرت أخبار هذه الاعتداءات في تاريخ وقوعها. والذي أراه أن اعتداءات جماعة شكري على من أسمتهم (مرتدين) قد وقعت فعلاً سواء ذكرتها الصحف المصرية أم لم تذكرها، كما أنهم اعتدوا على تجمعات أخرى من بينها تجمع الفنية العسكرية - حسن الهلاوي -.

ومن جهة أخرى فالذين وردت أسماؤهم هنا كانوا أعضاء في تنظيم شكري ثم تخلوا عن العضوية، والإسلاميون في مصر يعرفون ذلك، وما ذكره رفعت أبو دلال وصاحبه عن تصورات الجماعة وأفكارها صحيح وثبت عندنا من مصادر أخرى ذكرتها في هذا البحث، اللهم إلا قول المهندس محمد سعد الدين [ناهيك عن تكفيرهم لبعض الأنبياء...] فلا دليل عندنا عليه، بل والذي نعرفه أنهم لم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. وقد تكون هذه الزيادة من سعد الدين أو من الصحف أو من أفراد في الجماعة ألجأهم الجدل إلى مثل هذا القول... أما شكري ومساعدوه فلا نعرف أنهم كفروا أحداً من أنبياء الله.

ومن جهة ثالثة سوف يستغرب بعض الدعاة مما أكتبه عن هذه الجماعة، وأكرر ما قلته في المقدمة ليس بيني وبين أحد منهم خلافات أو نزاعات شخصية، ولم أستعجل في الكتابة عنهم، وأشعر بأنني مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل كلمة أقولها.

داخل السجن، وكيف كانت القواعد تتعامل مع الأوامر والتعليمات الصادرة من القيادة، فقال تحت عنوان [خوف الكل من الكل]:

(تلك حالة لمستها عبر سجن الاستئناف وليمان أبي زعبل، عندما خرجنا من زنازين طره بعد تصفية المواقف في قضية خطف وقتل الذهبي. وانتظرنا دورنا في عملية تصفية المواقف في قضية الانتماء... لقد لمست في الشباب متناقضات: حباً وصدقاً وترابطاً، ثم خلف ذلك السطح الواقعي احتجاج في الأعماق، وتساؤل عن مدى مصلحة الجماعة في لعبة الذهبي، ولكنه كان تساؤلاً دفيناً يخشى أي فرد أن يفصح به للآخرين.

إن رد الفعل العصبي الذي يمكن أن تقابل به أي دعوة لمراجعة النفس، قد أجبر الكل على كتم الرغبة في مراجعة الحساب أو تصفية المواقف ذاتياً لتصحيح الأخطاء. لقد قام بناء هذه الجماعة على الطاعة المطلقة، بل والعمياء، فأى شخص كان يشم منه رائحة لقياس الأوامر الصادرة إليه بمقياس شرعي، أو حتى استفسار عن مغزاه، كان يواجه بتهمة الردة ويعامل معاملة المرتدين... ولذا نشطت مشاعر الانشقاق فظلت دفينه، وتولد عنها عمل فريق من هؤلاء لحساب أعداء الجماعة من داخل الجماعة، بل إن فريقاً أو أفراداً ارتدوا نفسياً ولم يترجموا ردتهم عملياً. فكانوا طابوراً لجاسوسية المباحث داخل الجماعة كالسوس بين ثنايا الخشب. ورغم ذلك، كان الواحد من هؤلاء يؤمر فيصدع

بالطاعة الفورية... وقد لمست جانباً من هؤلاء الشباب الذي كان متحمساً للحق، ولم يرتد عنه عقيدة، بل ارتد عنه لعصبية أمير أو فقدان لحنان التجمع أحياناً، أو بالاختصار كانت عصبية الأمرة سبباً في انشقاق الشباب وردتهم، إما على مستوى الردة النفسية ضد التجمع وكراهة الأمرة من الأعماق.. وهذا أخطر... وإما ردة واقعية بمستواها النفسي ومستواها العملي الواقعي.

لقد شاهدت بعد الإفراج عنا شايبين كانا في منتهى الحماس لهذا الحق، وجهين كريمين، ومع ذلك دفع بهم الموقف بين فكي الكماشة، فك الأمرة العصبية الطبع التي جلبت عليهم المحن دون اقتناع بمبررها، وبين بطش المباحث التي كانت تبعث إليهما بالمخبرين ليبيتوا معهم داخل مساكنهم في محاولات للتأثير النفسي المدمر... لقد شاهدت هذين الشايبين وهما يقصان عليّ قصة الواقع المؤلم الذي يحيونه... كيف لا يصليان في مساجد الضرار ويلتزمان بالجانب العقائدي للجماعة سلوكاً، ثم كيف يحرران تقارير ويبلغان جند الطاغوت بكل صغيرة وكبيرة تصل إلى علمهما... وكانت أعماقي تأسى على انفصام الشخصية الذي أصيب به بعض الشباب، ولا أملك إلا أن أقول لِنَفْسِي: حسبنا الله ونعم الوكيل^(١).

وفي موضع آخر قال أبو الخير:

(وقد لمست عظمة الواقع العملي لأفراد الجماعة في الضبط الإداري والسمع

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين: (ص ١٣٤ و ١٣٥ و ١٦٣).

والطاعة، لقد صدرت إليهم أوامر بعدم مخاطبة المرتدين والجماعات الأخرى، فالتزم الجميع بذلك الأمر عملياً.

ولاحظت على تنفيذ هذا الأمر أن عنصر الشعور بالرقابة [رقابة الأفراد بعضهم على بعض] قد أدى إلى تنفيذ الأمر تماماً. لقد صدع بالطاعة من منطلق طاعة الله ورسوله وولي الأمر، العدد الكبير، ممن تواجد من الثلاثمائة عضو المقبوض عليهم والذين يشكلون أغلب أفراد الجماعة... بليمان أبي زعبل.

ولكن عدداً آخر قد صدع بالطاعة لهذا الأمر إيثاراً للسلامة، ولكيلا يتهم بالعصيان أو الردة.

وكنت أرى البعض يتخاطب مع الشيوعيين ولا يتخاطب مع التجمعات الأخرى، وكان تفسير ذلك أن هذا التخاطب مصلحي. ثم صدر أمر بعدم مخاطبة الشيوعيين، ولكن جريمة مخاطبة الشيوعيين كانت أهون من جريمة مخاطبة المأخوذون بسبب الإسلام في حملة تصفية النشاط الديني واستثماره، تحت عنوان [التكفير والهجرة].

ويشيد أبو الخير بالنظام الدقيق الذي كان يلتزم به أعضاء الجماعة ثم يستدرك فيقول:

(كل ذلك طالما لم يلمس أصحاب الحل والعقد في المرء معارضة لفكرة، أو مراجعة لموقف. إذ يكفي أن يلمس فرد منهم شبهة مناقشة لفكرة بقصد التيقن من أمرها، لكي يندفع إلى أخيه المناقش اندفاعية عدائية، وقد يصل الأمر إلى

التجريح والغمز، أو غير ذلك من وسائل بث الكراهية في القلوب^(١).

سابعاً - سقوط الجماعة في شراك السلطة

١ - بداية التعاون مع السلطة:

تحدث سالم البهنساوي عن بداية تعاون جماعة شكري مع المباحث العامة داخل السجن في نهاية الستينيات فقال:

(قام بعضهم بالعمل مع المباحث العامة للتجسس على المعتقلين وتتبع صلاتهم وصيامهم وما قد يقومون به من تكافل اجتماعي فيما بينهم، وكان جوابهم أن هذا يتم لصالح الجماعة الحققة، وهم أصحاب هذا الفكر حتى يمكن تحطيم من خالفهم بالتضييق عليهم في معاشهم وأرزاقهم وحياتهم. وفي سبيل ذلك استحلوا الكذب وغيره، ومن هنا يظهر التضارب والخلل، فهم يعلنون عدم العمل والوظيفة في الحكومة ومعاونتها لأنها كافرة بزعمهم، بينما يستحلون إيذاء زملائهم في المحنة والتبليغ بالكذب عليهم لرجال الحكومة التي يرون كفرها، وعندما نوقشوا في ذلك أجابوا:

إن آية الحشر تبيح تحطيم المجتمع الجاهلي بشتى الوسائل، كما أنه ليس بعد الكفر ذنب فلا حق في الحياة لمن كان كافراً، ولا مجال للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بعد أن يدخل المسلمون الإسلام من جديد لأن إسلامهم

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين: (ص ١٣٨).

جاهلي^(١).

٢- التردد على مراكز السلطة:

زار صديق لي شكري مصطفى بعد خروجه الأول من السجن، وبعد أن اشتهر أمره وأمر جماعته. ودار بينهما حديث طويل حول العمل الإسلامي ومهمة جماعته في الأرض، وكيف يربي أصحابه، واستوقفني في هذا الحديث القصة التالية:

قال شكري لصديقي:

(انظر إلى هذا الشاب، وأشار إلى [ماهر عبد العزيز بكري] لقد كنت مهتماً في تربيتي له منذ البداية إلى تحطيم حاجز الخوف في نفسه، وتنشئته على الشجاعة والتضحية، أتدري ماذا كنت أفعل معه؟!).

كنت أصطحبه إلى مركز الشرطة القريب من بيتنا، وكان يستقبلني هناك رئيس المركز، أو ضابط من الضباط، ويجري بيننا حوار، فأبين للمسؤول انحراف نظامه عن منهج الله تعالى، وأبسط له أدلتي على ردتهم وطغيانهم وضلالهم، وأهاجم رئيس الدولة، وأكشف ارتباطه بالمخططات اليهودية، ثم أخرج من المركز سالماً معافى، وتتكرر الزيارة والشاب يشهد بعينه تفاهة النظام وحقارته، وأنه لا يساوي جناح بعوضة، كما يشاهد ويرى قوة الحق وشموخه وعزة حَمَلَتِهِ.

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم، سالم علي البهنساوي: (ص ٣٠٥).

وهكذا سقطت الهيبة من النظام، وتحطم حاجز الخوف في نفسه، وهو الذي كانت ترتعد فرائضه خوفاً عندما كان يمر من أمام هذا المركز وغيره... وأصبح لا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى... أرأيت الفارق بين تربيتي للشباب، وتربية الجماعات الأخرى؟!).

وفي البداية^(١) لا أشك بأن شكري كان شجاعاً قوياً، وكان يسخر من رجال الأمن داخل السجن وخارجه، ولكن في النفس أسئلة كثيرة، نظرحتها فيما يلي ونترك الأجوبة لفطنة القارئ:

* أليس هناك طريقة أخرى يربي من خلالها أتباعه غير زيارة مراكز الشرطة وكثرة التردد عليها؟!.

* كيف يتحدى رجال الأمن في عقر دارهم، ثم لا يردون عليه إلا بكل كلمة مهذبة، وعهدنا بهم يعتدون على الأبرياء ويرهبون الأقوياء ويقتادون الآمنين من بيوتهم ومن بين نسائهم وأبنائهم، ويزجون بهم في غياهب السجون، وتلصق بهم تهم لا أصل لها؟!.

* كيف تحول رجال الأمن أمام شكري - وهذه خصوصية له - من وحوش مفترسة كاسرة إلى حملان ودیعة أليفة؟!.

(١) لا بد من التنويه بأن الشاب ماهر عبد العزيز بكري يكنى بأبي عبد الله وهو ابن شقيقة شكري، ونائبه في قيادة الجماعة ومسؤول الاعلام فيها، وهو الذي عرف فيما بعد بفيلسوف الجماعة، وكان أحد الذين تم إعدامهم في قضية الذهبي.

٣- حوار مثير!!

في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٦ زار مجموعة من قيادة الجماعة زميلهم عبد الرحمن أبو الخير، وعرضوا عليه أسرار الاتصالات التي جرت بينهم وبين الحكومة، وبنقل فيما يلي الحوار الذي جرى بينهم وبين أبي الخير حول هذه المسألة:

أبو عبد الله: قد عرضت الحكومة على الجماعة رغبتها في التعاون معها، على أساس أن جماعتنا تصرف الشباب عن المناهج الانقلابية، وتدعو إلى الهجرة. إن الحكومة في حاجة إلى جماعة إسلامية تستوعب الخاصة من الشباب، ثم إلى جماعة أخرى تستوعب العامة، ونحن إن شاء الله جماعة الخاصة، وقد قبلنا ذلك.

وقد يقولون عنا عملاء، فليقولوا، المهم أن نحقق تقدم الجماعة، وستصبح الجماعة الوحيدة في مصر.

أبو الخير: والإخوان المسلمون؟!.

أبو عبد الله:.. قد تكون هذه جماعة العامة المنتظرة.

أبو الخير: وفي مقابل أي شيء يطلق الطاغوت أيدينا في العمل للإسلام وبحرية في مصر؟!.

أبو عبد الله: في مقابل صرف الشباب عن الانقلابات، فالحكومة قدمت هذا

العرض، وهي تعلم تماماً أن منهجنا لا يتصادم مع خطتهم حالياً، فهو منهج هجرة ويصرف الشباب عن التجمعات ذات المناهج الانقلابية، شأن تنظيم الفنية العسكرية، وخلافه من ذوي الاتجاهات الانقلابية.

أبو الخير: على ما أعتقد - والله أعلم - أن هذا استدراج من الطاغوت لاحتواء الجماعة أو استخدامها في ضرب وتصفية تجمعات الحركة الإسلامية الأخرى، ثم يستدير علينا ليصفينا بعد أن نكون قد أدينا غرضه.

أبو الهيثم: أبداً ذلك لن يحدث.

أبو عبد الله: لا... إن الحكومة جادة في عرضها. وقد عرضت علينا أيضاً تعويضاً عما لحق بنا من أضرار في الماضي كدعاية سيئة أو اعتقال، وطلبت منا رفع قضية ضد دور الصحف والأجهزة الأخرى للحصول على التعويض المناسب.. واتفقنا مع المحامي، والجماعة في حاجة إلى المال.. إننا في حاجة إلى المال لتقوية الجماعة.

أبو الخير: ومن هو المحامي؟

أبو عبد الله: شوكت التوني.

أبو الخير: إن الطاغوت بذلك سوف يجرنا إلى الاحتكام إليه، وهذا محرم شرعاً لقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ [النساء]

أبو مصعب: أبداً.. ما وجه الحرام في ذلك؟ إن رسول الله ﷺ قد دخل في جوار كافر.. لقد دخل في جوار مطعم بن عدي ليحميه من الكفار في الطائف.. [وذكر بلهجة مصرية].. واحد يقول لك عندي حقوق تعال خذها أقول له لأ...؟!.

أبو الهيثم: غير معقول.. لا عقلاً ولا شرعاً..

أبو الخير: إننا بذلك سوف نستثمر، سوف يستثمرنا الطاغوت لمصلحته.. والقاعدة الشرعية في وجودنا هي قول الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۗ﴾ [الممتحنة]

أبو الغوث: قبلنا أن نستثمر.. قبلنا أن نستثمر.

وفي موضع آخر سجل لنا عبد الرحمن أبو الخير الحوار التالي^(١):

(١) الحوار الثاني تم في ٣٠ من نوفمبر ١٩٧٦. وأبو عبدالله: هو ماهر عبد العزيز بكري نائب رئيس الجماعة.

وأبو الهيثم: هو مجدي صابر، وأبو مصعب هو أنور مأمون صقر وأحد الذين تم إعدامهم.=

أبو الخير: ما أخبار القضية؟

أبو حذيفة: الأخوة قابلوا المحامي ويشنون عليه.

أبو الخير: أشوكت التوني؟

أبو حذيفة: نعم.. إنه محام ماهر.

أبو الخير: والأخوة جميعاً هل هم راضون عن ذلك؟

أبو حذيفة: نعم. لأن في ذلك خير الجماعة.

أبو الخير: وما هو رأيك الشخصي من التحاكم إلى محاكم الطاغوت؟!.

أبو حذيفة: الرأي للجماعة.

أبو الخير: وما أخبار الجماعة الآن؟!.

أبو حذيفة: كلهم مختفون.

أبو الخير: وهل هم راضون عن ذلك وبذلك؟!.

أبو حذيفة: نعم.

٤ - لغة الحسابات الدقيقة:

وحول لغة الحسابات الدقيقة والمصالح بين الجاهلية والجماعة المسلمة،

=وأبو حذيفة: هو هاشم بكري، وجميعهم من قيادة الجماعة.

تحدّث أبو الخير عن لقاء تم بينه وبين أبي عبد الله وأبي الهيثم أسماه [لقاء تصفية للمواقف] قال أبو الخير:

(فأعاد أبو عبد الله، وكان يجلس على يميني، مضمون خطاب اعتكافي، وشهر أبو الهيثم سن مطواه وكان يجلس عن يساري واضعاً إياها إلى جواره على المرتبة. فنهرته أن [أعمد مطواك يا ولد وأزحها بعيداً]... ثم واصل أبو عبد الله حديثه، فألفيتني أمام أسلوب جديد في الحديث لم يسبق أن سمعته داخل الجماعة، لقد بدأ يشرح طبيعة [الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية] وقال:

إذا كانت هناك عملية ما يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤٪ منها ويكسب العدو ٤٦٪ منها نؤديها، لأنه دون ذلك فلن تتقدم الجماعة خطوة واحدة.

إن العالم كله مصالح مشتركة بين المسلمين والجاهلية وهذه المصالح قائمة بصورة حتمية...

أبو الخير: ذلك حق، ولكن العبرة بالطرف الذي يستخدم الآخر لمصلحته... وأرى أن الجاهلية هي الغالبة، وبالتالي بيدها خيوط التأثير في اتجاهات المصلحة.

أبو عبد الله: أبداً.. إن الله تبارك وتعالى معنا وليس معهم، وبالتالي نملك

المحافظة على تحقيق نسبة من المصلحة أكبر مما يحققه العدو^(١).

مآخذ واستدراكات:

ولنا على الحوار الذي سبق عرضه في الصفحات الماضية المآخذ التالية:

١ - كررت جماعة شكري القول في رسالة [التوسمات] وكتاب [الخلافة] بأن دولة الإسلام لا تقوم عن طريق الانقلابات العسكرية، أو عن طريق التسلل إلى وظائف الدولة القيادية، وذهبوا لأبعد من هذا وذلك عندما زعموا بأن الجهاد لا يكون إلا بالسيوف، وبعد دمار هذه الحضارة وما اخترعته من أسلحة فتاكة، وجملة القول فهذه المرحلة لا يجوز الإعداد للجهاد فيها، ويجب أن يتفرغ المسلمون للعلم - أي دراسة رسائل وأفكار الجماعة وما عدا ذلك فهو لغو - ولعبادة الله وحدة لا شريك له.

وكان من الممكن أن نلتمس لهم الأعذار في دعوتهم لإلغاء الجهاد في هذه

المرحلة ونقول:

اجتهدوا فأخطؤوا، ولكن هذه الاتصالات مع النظام وقولهم: إن الحكومة عرضت على جماعتنا رغبتها في التعاون معها، على أساس أن جماعتنا تصرف الشباب عن المناهج الانقلابية، وتدعو إلى الهجرة... وقولهم أيضاً: فالحكومة

(١) جميع فقرات هذا الحوار وردت في كتاب ذكرياتي مع جماعة المسلمين: (ص ٥٨

و ٧٤ و ٨٦).

قدمت هذا العرض، وهي تعلم تماماً أن منهجنا لا يتصادم مع خطتهم حالياً!!.

هذه الأقوال لا تدل على حسن نوايا قادة هذه الجماعة بحال من الأحوال.

ترى كيف اطمأنت الدولة إلى أن منهجهم لا يتصادم مع خطتها الحالية؟!.

إن هذا الاطمئنان لا يتم إلا عن طرق المفاوضات واللقاءات المستمرة بين الجانيين. ولقد كان صفوت الزيني [أبو طلحة] مندوب الجماعة وممثل شكري في مفاوضاتهم مع المباحث العامة.

ويؤكد لنا شكري بأنه حريص جداً على إقناع السلطة بأن جماعته ليست عقبة في طريقها، ولا تشكل خطراً عليها. انظر إلى قوله مخاطباً صديقه عبد الرحمن أبو الخير:

(إنني أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبة في طريق خطتك فقط، بحجبي للنساء عن الجامعات والمدارس، أقول للطاغوت هاأنذا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم. وهجرتي لا تشكل خطراً انقلابياً عليك، وأساهم بذلك في تخفيف مشاكل الإسكان، وبترك الوظائف أريحك من المرتبات التي تدفع لنا)^(١).

وهذه الجماعة التي تصرح بأنها ليست عقبة في طريق السلطة.. كانت عقبة في طريق الجماعات الإسلامية، وكانت تستخدم كل ما تملكه من قوة في حرب الدعاة إلى الله والإساءة إليهم وإصاق أبشع أنواع التهم بهم.

(١) ذكرياتي مع جماعة المسلمين (ص ٨٤).

٢- جرى اتفاق جماعة شكري مع السلطة كما ذكر أبو الخير في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٦. وبعد هذا التاريخ بدأت الصحف المصرية تنشر أخبار اعتداءات جماعة شكري على من أسمتهم مرتدين وعلى الجماعات الإسلامية الأخرى كجماعة الفنية العسكرية وغيرها.

وبشكل أكثر وضوحاً نستطيع القول: إن الجماعة بدأت تنفذ بنود اتفاقها مع السلطة بعد أيام قليلة من تاريخ الإعلان عنه.

ومن جهة أخرى فقد تمت عملية اختطاف الدكتور الذهبي وقتله بعد ستة أشهر من هذا الاتفاق.

٣- وعدت السلطة جماعة شكري بدفع تعويضات لهم، وقبلوا هذا العرض، وقال ممثلها لدى السلطة [أبو مصعب] في دفاعه عن وجهة نظر جماعته:

[واحد يقول لك عندي حقوق تعال خذها أقول له لأ...].

ومما يجدر ذكره أن جميع العملاء يقال لهم مثل هذا الكلام وأفضل منه، ولكن هذه الأقوال المعسولة لا تنفي عنهم العمالة والغرق في الأحوال.

٤- أما حديث الجماعة - على لسان نائب أميرها - عن المصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية، فهو مخالفة صريحة لمنهج أنبياء الله ابتداءً بآدم وانتهاءً بالمصطفى عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

كما أنه مخالفة واضحة للأصول والتصورات التي طرحتها هذه الجماعة

نفسها.

زيادة على هذا وذاك فمثل هذه الأساليب يتبعها السياسيون من أتباع
[ميكافيلي] الذين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة.

المبحث الثالث
ملف اغتيال الذهبي

أولاً - من الذهبي؟!

الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف السابق رحمه الله، لم يكن من العاملين في الحقل السياسي، وليس له مواقف مشهورة في هذا المضمار، ولم يعرف عنه أنه كان يتنسب إلى حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات.

وكان قد تخرج من الأزهر، ثم تابع دراسته العليا، وبعد أن نال شهادة [الدكتوراه] تم تعيينه أستاذاً في جامعة الأزهر، ثم تقلب في وظائف علمية حتى أصبح من علماء الأزهر المعدودين في مصر. ونشط في مجال الكتابة والتأليف، فكان من أشهر كتبه [التفسير والمفسرون].

ويتألف الكتاب من جزأين، تحدث في بدايته عن علم التفسير، وما هي العلوم التي يحتاج إليها المفسر.. ثم استعرض أشهر الكتب في التفسير في القديم والحديث، وبين ما لها وما عليها بأسلوب علمي يمتاز بالموضوعية والنزاهة، والبعد عن كل جمود وتقليد.

ومن أهم ما جاء في كتاب: [التفسير والمفسرون] نقد المؤلف رحمه الله لمنهج أهل البدع والأهواء: كالصوفية، والخوارج، والمعتزلة، والشيعة ومن نحنا نحوهم من أصحاب المذاهب الباطنية.

وكان ينطلق في تقويمه لهذه المؤلفات وفي رده عليها من إيمانه وقناعته بعقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة.

ومع قناعتي بأن الكتاب لا يخلو من أخطاء، والكمال لله وحده، مع ذلك فإنه من المراجع المهمة، وقد رأيت عدداً من الكتاب المعاصرين الذين كتبوا في علوم القرآن قد عادوا إليه واستفادوا منه.

ومن كتب الدكتور الذهبي المهمة [الإسرائيليات]، ويعد تنمة للكتاب الأول ومرجعاً لا يستهان به لطلاب العلم .

وإذا كان الذهبي قد أخطأ عندما رضي أن يكون وزيراً في مثل هذه الحكومة بالذات، فإن خطأه ليس بالحجم الذي يراه البعض، وذلك لأن الذين يقبلون مثل هذه الوزارة صنفان:

صنف مردوا على النفاق، ودأبوا على الغش، ويدينون بكل ما يخدم مصالحهم.

وصنف آخر تختارهم السلطة لاستقامتهم ولثقة الناس بهم، وتغريهم بالوعود الخلافة كقولها:

لقد اخترناك لتنشر الخير، وتصلح بين الناس، وتأمراً بالمعروف، وتنهى عن المنكر.. ويصدق المسكين ما يقال له.. وبعد أن يتورط يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر:

الخيار الأول: أن يستمر بالوزارة، ويسير في ركب الانتهازيين المرائين، الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي كل واد يهيمون.

والخيار الثاني: أن يخرج من الوزارة بخفي حنين، بل لن تترك له السلطة خفي حنين، وإنما تسارع إلى تهديده بطريق غير مباشر، وتبدأ فعلاً بتشويه سمعته والإساءة إليه... وفي أحسن الحالات تخرجه من الوزارة عند أول تعديل لها بعد أن تهتز ثقة الناس به، ويصبح ورقة محروقة.

ويبدو أن الذهبي رحمه الله كان من الصنف الثاني. لقد رفض تهديدات السلطة، وأصر على إثارة قضية وزير الأوقاف السابق توفيق عويضة ووكيل وزارته [المغربي] وقد أخرج السلطة فعلاً، ولهذا تم إبعاده في أول تعديل وزاري.

وبعد قتله قام ورثته بنشر عدة كتيبات له كان من أهمها: نور اليقين من هدي خاتم النبيين، وكتاب آخر عن وجوب الاحتكام لشريعة الله، وكتاب ثالث تحت عنوان: [مشكلات الدعوة والدعاة]، وهو عبارة عن تقرير كان قد قدمه للجهات العليا في الدولة في منتصف يناير سنة ١٩٧٧، وقد تحدث فيه عن فساد جهاز الدعوة في المساجد، ووضَّح أسباب هذا الفساد، ووسائل العلاج، وسوف نختار فيما يلي فقرات منه لنعرف من خلالها العقلية التي يفكر بها هذا الرجل. قال رحمه الله:

* إن إنسان العصر الذي نعيش فيه يريد أن يجد حلولاً لكل مشكلات الحياة التي تعترضه، سواء في سلوكه الشخصي، أم في علاقاته الأسرية، أم في معاملاته الاقتصادية، ويريد أن يجد للدين كلمة تضيء له طريقه في قضايا الحكم ومسائل السياسة ومشكلات الاقتصاد.

* ويطالب بمناخ صالح تنطلق فيه الدعوة فيقول:

لا بد أن ترفع عن أجهزة الدعوة في كل بلاد المسلمين أثقال أجهزة السلطة التي تمنعها حرية الكلمة، وتوجهها - في كثير من الأحيان - لتتحول من دعوة إلى الله، إلى بوق من أبواق الدعاية، أو وسيلة من وسائل الإعلام، أو تجمد حركتها بحيث تصبح مجرد وظيفة اجتماعية، تتيح لصاحبها مورداً للرزق يصبح الحصول عليه هو الغاية الأخيرة.

* وعن إعداد الدعاة يقول:

إن العلم وحده لا يكفي لتكوين داعية، والمعرفة وحدها لا تصنع داعية كذلك، لقد قال رسول الله ﷺ:

«أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان».

إن العلم إذا لم يستند إلى خلق يحميه من نزوات النفس وطغيان الشهوات، ويصونه من الدنيا وسفاسف الأمور، يصبح كارثة حين يوجه لغايات آثمة، أو يستغل في مآرب خبيثة.

إن الالتزام الديني بالإسلام فكراً وسلوكاً في كل صغيرة وكبيرة، مما يجب تمكينه تمكيناً متأصلاً في أنفس الدعاة، ومن الخطورة أن نقدم للناس دعاة يقولون ما لا يفعلون أو يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، أو ينهاون عن المنكر ولا يتناهون هم عن فعله!!.

تربية الداعية دينياً، وتدريبه على تطبيق الإسلام في حياته عملياً، وتركيزه نفسه بما يجعله متأبياً عن الدنيا، ثم الترقى به ليعيش في مستوى التجرد لرسالته، مطمئناً ومستعداً للتضحية في سبيلها بكل ما يستطيع، هذه التربية ضرورية ولازمة، وبدونها لا يكون هناك معنى للحديث عن دعوة ودعاة:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام]

هذه ما ينبغي أن يكون شعار الدعاة ولكن هل تصلح معاهد إعداد الدعاة الحالية لهذا اللون من التربية؟!.

بالقطع هي لا تفي بهذا، ولم تصمم مبانيها، ولا مناهجها، ولا فلسفاتها على هذا الأساس.

* ويقارن رحمه الله بين إمكانيات وطاقات الفاتيكان وبين أجهزة الدعوة مجتمعة في عالمنا الإسلامي، ويبين الفرق الواسع والمسافة الشاسعة، ثم ينتقل إلى الحديث عن [أندونيسيا] و[الفلبين] وغيرهما من بلدان العالم الإسلامي، ويطالب بوجوب تقديم كل عون ومساعدة لهما.

* ويقترح إنشاء كلية للدعوة الإسلامية بتمويل إسلامي عام، ثم تتحول هذه الكلية إلى جامعة ثم يتحدث عن طريقة اختيار الطلبة لهذه الجامعة من كل أنحاء العالم الإسلامي من خلال نظام محكم للقبول، وفي موضع آخر من التقرير يتحدث عن منهج الكلية، ومراحل التعليم فيها، وهيئة التدريس وجهاز التربية

فيها، ودراسة اللغات الأجنبية، والجانب الفني العلمي للدعوة في مجال الممارسة والتطبيق.

ويطالب بجهاز عالمي للدعوة يتحرر من سيطرة الحكومات ويتمكن من قول كلمة الحق دون خوف ولا وجل^(١).

وبعد: هذه فقرات من تقرير الذهبي رحمه الله، وما لم نقله لا يقل أهمية عما نقلناه. وإن دل على شيء فإنما يدل على إخلاصه وصدقه - ولا نزكي على الله أحداً- وهي كلمة حق صدع بها في وجه سلطان جائر، ولم يجعجع بها في ندوة من الندوات أو فوق منبر من المنابر، ومما يجدر ذكره أن معظم ما ورد في هذا التقرير يحوي نقداً للنظام المصري وغيره لأنه لا يعطي الدعوة إلى الله حقها، ولا أدري بعد ذلك كله ماذا يمكن أن يقول الدعاة المخلصون أكثر مما قاله الشيخ الذهبي غفر الله له؟!.

أما الوقت الذي كتب فيه هذا التقرير فقد كان حرجاً، وكان يعلم أنه ربما يكلفه حياته، ومع ذلك كتبه وقدمه لرئيس الدولة.

ثانياً- من المستفيد من قتل الذهبي؟!

نؤكد ما قلناه قبل قليل: إن الذهبي ليس من رجال السياسة، وقد عاد إلى نشاطه العلمي بعد خروجه من الوزارة، وليس بينه وبين حزب من الأحزاب أو

(١) مشكلات الدعوة والدعاة للذهبي.

جماعة من الجماعات صراع أو خصومة، اللهم إلا قصة [المغربي]!!.

وذكر عبد الرحمن أبو الخير في كتابه [ذكرياتي مع جماعة المسلمين] أن [أبا الهيثم] جاءه في ٢٠/٦/١٩٧٧ وسأله عن مقال للدكتور الذهبي هاجم فيه الجماعة، وأجابه أبو الخير بأنه لم يجد أثراً لهذا المقال المزعوم في [أرشيف] أخبار اليوم، والأهرام والجمهورية.. وأضاف أبو الخير:

إن هجوم الذهبي لم يكن سوى كتاب رسمي صدر عن وزارة الأوقاف يوم أن كان الذهبي وزيراً لها، والكتاب لا يمثل الذهبي بشخصه، ولكنه كتاب رسمي يمثل الدولة المصرية. وقال أيضاً:

(ولم يكن قولي هذا دفاعاً عن الذهبي.. ولم يكن للشيخ الذهبي بالذات بين أفراد الجماعة وحتى القيادة أي اهتمام).

وصدق أبو الخير فيما قاله: فإني لم أجد مقالات ودراسات للذهبي يهاجم فيها جماعة شكري، ولم يحدث بينهم وبينه مواقف معينة كتلك التي حدثت بينهم وبين جماعة الفنية العسكرية أو بينهم وبين الذين انشقوا عنهم.

وإذا افترضنا أن الذهبي كتب مقالاً ينقد فيه منهج الجماعة، فليس هو الشيخ الوحيد الذي كتب مثل هذا المقال.. لقد قالت عنهم الصحف المصرية ما لا يقبله عقل ولا منطق، وكتب في نقدهم عدد غير قليل من علماء الأزهر وغيره.. فلماذا سكتوا عن الجميع، وراحوا يبحثون عن مقال سمعوا من غيرهم [!!] أن الذهبي كان قد كتبه، ولم يجدوه ويطلعوا عليه ليعلموا مبلغ خطورته عليهم. ومن

جهة أخرى لماذا جاء البحث في هذا الوقت بالذات أي ٢٠/٦/١٩٧٧، وكان خطفهم له في أوائل الشهر السابع من سنة ١٩٧٧، وكان رحمه الله مدعواً لتأدية الشهادة في قضية المغربي في الشهر العاشر من سنة ١٩٧٧م؟!.

جاء قتله وخطفه بعد عشرة أيام من بداية البحث عن مقال مزعوم له ضد الجماعة، ومثل هذه المدة لا تكفي للتأكد من حقيقة موقفه من هذه الجماعة..ومن ثم فالجهة الوحيدة التي استفادت من قتله وكيل وزارة الأوقاف السابق [المغربي] وأسياده من القراصنة وقطاع الطرق.

وقضية [المغربي] غير خافية على أحد من المتهمين بمثل هذه القضايا داخل مصر وخارجها. لقد كان توفيق عويضة سلفاً للذهبي في وزارة الأوقاف وكان المغربي وكيلاً لهذه الوزارة، وقد أقدموا - عويضة والمغربي - على شراء أراضي وقف ببضعة آلاف من الجنيهات، في حين كانت قيمتها ببضعة ملايين من الجنيهات، وظن الذهبي أن الحكومة لا علم لها بمثل هذه القضية، ويبدو أن فيه شيئاً من السذاجة وطيبة القلب، وفاته أمران:

الأول: أن صفقة كهذه لا يمكن أن ينفرد بها وزير أو وكيل وزارة لأنه من المستحيل أن تبقى سرية وغير معلومة.

الثاني: توفيق عويضة رجل السادات في مثل هذه القضايا، وهو مختص في شؤون التجسس ولهذا اختاره وزيراً للأوقاف مع أنه ضابط عسكري، كان متهماً حتى في المبالغ المخصصة لطباعة المصاحف في مصر.

وزيادة على هذا وذاك فمثل هذه الصفقات معروفة في عالمنا الإسلامي، وبشكل اخص في البلاد التقدمية الثورية، ولكن الذهبي لا علم عنده بالسياسة وأخلاق السياسيين المعاصرين.. ولهذا رفع قضية ضد المغربي لدى المحاكم المصرية لأنه يعتقد بأنه المختلس الوحيد، وربما تجاوز الأمر إلى عويضة، وكان الدكتور الذهبي شاهد الإثبات الوحيد في هذه القضية.. وإذن لا بد من تصفية الذهبي قبل موعد المحاكمة، وقبل أن يدلي بأقواله التي ربما تكون إعصاراً تحرق الحكومة أو تفجر لها فضيحة على الأقل.

ومن الجدير بالذكر أن عدداً من المجالات العربية المهمة الصادرة خارج مصر أثارت هذه القضية بعد مقتل الذهبي رحمه الله، وأشارت بأصابع الاتهام إلى [المغربي] ومن يقف وراءه من كبار المسؤولين، وقالت مجلة الدستور الصادرة في أوروبا بعد أن تحدثت عن قضية المغربي:

(.. والذهبي حرك القضية قانونياً ضد المسؤولين الذين وقعوا على عقد البيع.. ولكن المحكمة ردت دعوى الذهبي بحجة [النقص في الأدلة]. وما لبث الذهبي أن فقد منصبه الوزاري في أول تعديل وزاري للوزارة المصرية.. وأكدت مجلة الدستور بأن أجهزة الأمن المصرية اقتحمت منزل الدكتور الذهبي قبل اختطافه، وفتشته بحثاً عن الأوراق التي تدين أولئك الذين عقدوا الصفقة فلم يعثروا عليها، ويبدو أن ذلك كان السبب المباشر لتصفيته).

حوار بين المحامي وأسماء الذهبي:

ومن ثم فشهادة [أسماء بنت محمد حسين الذهبي] في المحكمة كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير - كما يقولون - وسنقل فيما يلي أسئلة المحامي محمد يعقوب، وأجوبة أسماء على هذه الأسئلة:

المحامي: هل كان المرحوم والدك مدعواً لتأدية الشهادة في قضية المغربي؟!.

أسماء: أيوه في شهر أكتوبر^(١).

المحامي: جاء في أقوالك أمام رئيس نيابة أمن الدولة تعليك للحادث هو للمسائل المعروضة في قضية المغربي وعويضة؟!.

الشاهدة: بعد الاختطاف أول شيء فكرنا فيه مين هم أعداء الوالد اللي قاموا بالعمل الإجرامي ولم تكن هناك خصومة أو عداوة سوى مع المغربي وعويضة. وأول حاجة نفكر فيها هم الاثنين دول، ولكنني بعد ما أذاعت الداخلية أن جماعة التكفير والهجرة هي التي قامت بالاختطاف، وتم القبض على المتهمين.. عرفنا من هم المسؤولين^(٢) عن خطف وسلامة الوالد^(٣).

وقد قطعت أسماء بشهادتها قول كل خطيب، فمشكلة أبيها مع المغربي

(١) شهر أكتوبر من عام ١٩٧٧ أي بعد شهرين من مقتل الذهبي.

(٢) والصحيح: المسؤولون. وواضح أنها تتكلم بالعامية.

(٣) صحيفة الأهرام تاريخ: ١٢/٩/١٩٧٧ م.

وعويضة وليس مع أحد غيرهما، أما بيان الداخلية فلم يكشف الطرف الثاني في الجريمة، ونحن لا ننتظر من نائب وزير الداخلية [نبوي إسماعيل] أن يقول في بيانه: أنا المخطط لهذه الجريمة، وقد استدرجت جماعة شكري وضربتهم بالذهبي.

ثالثاً- عملية الاختطاف ودور السلطة

في الهزيع الأخير من الليل هاجمت عصابة مسلحة أسرة آمنة مطمئنة، وصوبت فوهات أسلحتها إلى صدور الولدان والنساء، واقتادوا بوحشية شيخاً مسناً ثم ألقوا به في سيارتهم، وأهله وجيرانه ينظرون بحزن ولا يستطيعون إنقاذه ودفع الأذى عنه، وانطلقت السيارة من حدائق حلوان إلى مكان مجهول في مدينة القاهرة.

وبعد زمن قليل أعلنت جماعة شكري مسؤوليتها عن الحادث، وطالبت السلطة بدفع مبلغ قدرة [٢٠٠ ألف جنية مصري]، وإخلاء سبيل المعتقلين من الجماعة مقابل إطلاق سراح وزير الأوقاف السابق الدكتور الذهبي.

وأعلنت السلطة عن الحادث، وبدأت بالبحث عن المجرمين، واتصلت بالمحامي [شوكت التوني] الذي كانت تربطه صلات وثيقة بهذه الجماعة، وقد دافع عنهم أكثر من مرة، كما كان يتردد على مكتبه معظم قادة الجماعة، وكانوا معجبين به، ويرون أنه ناصح أمين لهم.

وقام شوكت التوني بإصدار نداء إلى الجماعة للحفاظ على حياة الدكتور الذهبي، ثم سافر في اليوم نفسه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يعد منها إلا شاهداً أمام المحكمة العسكرية العليا في ١٠ / ١٠ / ١٩٧٧ م ونقل فيما يلي أهم ما قاله في شهادته:

(إنني اطلعت على مبادئ الجماعة منذ ارتبطت بالدفاع عن أعضائها.. ولاحظت أنها متشددة في الدين.. وفي مساء خطف الشيخ الذهبي اتصل بي اللواء نبوي إسماعيل، وقابلته، وشرح لي ظروف الحادث، وطلب مني التوسط لدى الجماعة. وكان في منتهى الجدية لإنقاذ الذهبي، وأكدت له أنه لن يمس بسوء. وأصدرت بياناً نشرته الصحافة والإذاعة والتلفزيون.. وفوجئت بإعلان نبأ قتل الذهبي أثناء وجودي في أمريكا، وسألني أساتذة الجامعات هناك عن إباحة الإسلام للقتل، وكنت أشرح لهم سماحة الإسلام).

وقال: (إن التحقيق الذي يجري اليوم ليس بالصورة البشعة التي كانت تجري بأسلوب صلاح نصر وحسن عليش.. وقال: إن من بين الجماعة متطرفين وإن الاتصالات كانت تتم تليفونياً بالمتهم ماهر..).

وقبل أن أدون ملحوظاتي على شهادة المحامي شوكت التوني، وبشكل أخص قوله عن نائب وزير الداخلية نبوي إسماعيل [وكان في منتهى الجدية لإنقاذ الذهبي].. أرى لزاماً عليّ قبل ذلك عرض استطلاع مهم لمجلة الحوادث حول اختطاف الذهبي:

قال الأستاذ نشأت التغلبي:

* الساعة الثانية والدقيقة العاشرة من صباح يوم الأحد الثالث من تموز [يوليو] تم اقتحام شقة الدكتور الذهبي في حدائق حلوان ونقل إلى مكان مجهول في حين تعطلت السيارة الثانية التي اشتركت في العملية، وفر المسلح الذي كان فيها في حين وقع سائقها في قبضة جيران الدكتور، فأفرغوا عجلات السيارة من الهواء.

* في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة اتصلت ابنة الدكتور الذهبي بشرطة النجدة وأبلغتها الحادث.

* في الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين، اتصلت ابنة الدكتور بأحد الصحفيين طالبة معونته [لأن رجال الأمن لم يصلوا إلى الآن].

* في الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين، وصل الصحفي إلى منزل الدكتور الذهبي قاطعاً مسافة تقرب من ثلاثين كيلو متراً، فلم يجد سوى ضابط شرطة برتبة ملازم تعذر عليه إيجاد عربة تنقله إلى مكان الحادث فاستقل دراجة نارية [موتوسيكل] ثم لحق به أربعة جنود من مخفره استقلوا سيارة أجرة.

* في الساعة الخامسة بدأ وصول رجال الأمن والمحققون وبدأ التحقيق. من هنا كان السؤال:

لماذا تأخرت إجراءات الأمن طوال ثلاث ساعات؟!.

بل كان سؤال آخر أكثر أهمية:

ما دامت شرطة النجدة قد علمت بالحادث بعد خمس دقائق فقط من وقوعه، فلماذا لم تبلغ دورياتها في مختلف أنحاء العاصمة باعتراض طريق كل سيارة من طراز [فيات] وتفتيشها؟!.

سبب هذا السؤال، هو أن الخاطفين الذين انتقلوا من حدائق حلوان إلى شارع الهرم - كما تبين فيما بعد - كان عليهم أن يجتازوا نحو [٣٢ كم] كما كان عليهم أن يمرروا بنقطة حراسة تابعة للشرطة العسكرية في منطقة المعادي، وبمخفر مصر القديمة، ونقطة شرطة [النيل] ومبنى محافظة الجيزة!! ونقطة شرطة تحت نفق الجيزة!! ويضيف السؤال:

لو أبلغت شرطة النجدة دورياتها المتحركة، لاستطاعت إحدى هذه الدوريات العثور على السيارة، ففي مثل تلك الساعة تكون حركة المواصلات قليلة جداً، ومن السهل إيقاف أية سيارة من نوع [فيات] وتفتيشها. ولو تم ذلك، لكان على الخاطفين، إما الهرب تاركين سيارتهم والدكتور المخطوف، وإما إلقاء الدكتور في الشارع والهرب بسيارتهم، أو الاصطدام بالقوة التي تستوقفهم.

هذه التفاصيل بالذات هي التي أطلقت نقاط استفهام عديدة، وجعلت تصريحات نائب وزير الداخلية أمام مجلس الشعب موضع شك^(١).

هذه هي أهم الفقرات التي وردت في استطلاع نشأت التغلبي.. ومن ثم

(١) نشرت حوادث اللبنانية هذا الاستطلاع في عددها، تاريخ: ٢٩ / ٧ / ١٩٧٧ م.

استمر حديثه عن معرفة الدولة لهذه الجماعة منذ بضع سنين، ومع ذلك تركت لهم الجبل على غاربه، يعتدون ويضربون ويثيرون الرعب في كل مكان لهم فيه موطن قدم، ولم تتخذ منهم موقفاً حاسماً إلا بعد قتل الذهبي.

وبعد هذه الفقرات التي اخترتها من استطلاع الصحفي نشأت التغلبي الذي نشرته الحوادث أن لي أن أسجل الملاحظات التالية:

١- لقد كان الدكتور الذهبي رحمه الله في نظر جماعة شكري مرتداً عن الإسلام، وهذا يعني أن دمه وماله حلال، ويجوز قتله في أي وقت من الأوقات... ويضاف إلى هذا اتهامهم له بأنه كان قد كتب مقالاً يهاجم فيه الجماعة.. ومن هنا نعلم بأن اتهامهم بقتل الذهبي له ما يبرره، كما نعلم سهولة استدراجهم إلى اقرار جريمة كهذه.

٢- إذا كانت السلطة حريصة على حياة الشيخ الذهبي رحمه الله كما زعمت، فلماذا لم تدفع المبلغ الذي طلبوه [٢٠٠ ألف جنيه] وتطلق سراح المعتقلين من جماعتهم.. وبعد إنقاذ حياة الذهبي تستطيع اعتقالهم جميعاً واسترداد المبلغ الذي دفعته لهم، ولهذا فليس صحيحاً قول المحامي شوكت التونسي بأن نائب وزير الداخلية كان في منتهى الجدية لإنقاذ الذهبي، بل وقوله يتعارض مع شهادة له وأخرى لرجل الأعمال المصري أمام المحكمة العسكرية العليا قال فيها:

إن عثمان أحمد عثمان عرض على السلطة دفع هذا المبلغ لجماعة شكري مقابل الإفراج عن الشيخ الذهبي، ورفض نبوي إسماعيل هذا العرض بإصرار لأنه زعم

بأن السلطة سوف تقبض على المجرمين قبل تنفيذ الجريمة، وسوف تتمكن من إنقاذ حياة الذهبي بدون الإذعان لمطالب المجرمين وسقوط هيئة السلطة - على حد زعمه - وثبت أن شيئاً من هذا لم يحدث، وأول من وجه أصابع الاتهام لنائب وزير الداخلية - نبوي إسماعيل - مجلس الشعب المصري في أول جلسة بعد اختطاف الذهبي، على ما كان عليه هذا المجلس من ضعف، ومع ذلك لم يحتمل الصبر على مواقف السلطة ممثلة بنائب ووزير الداخلية!!.

٣- هناك أسئلة كثيرة فرضت نفسها بعد الحادث:

* اتصلت ابنة الدكتور الذهبي بشرطة النجدة بعد خمس دقائق من وقوع الاختطاف فلماذا لم تتحرك وتنجدهم؟!.

* لماذا تأخرت إجراءات الأمن طوال ساعات ثلاث؟!.

* هل أجهزة الأمن المصرية بهذا المستوى من الضعف حيث لم يجد ضابط الشرطة عربة تنقله إلى مكان الحادث، وأربعة جنود من مخفر استقلوا سيارة أجرة [!!!]، فأين سيارتهم، وأين ما نعرفه ويعرفه كل مصري عنهم وعن إرهابهم؟!.

لقد كان الصحفي نشأت التغلبي بارعاً في إثارة مثل هذه الأسئلة.. وقد تبين فيما بعد أن تحرك السلطة جاء بعد اطمئنانها تماماً على أن المجرمين نجحوا في مهمتهم، ووصلت الفريسة إلى المكان المطلوب.. ومن ثم جاء تحرك المسؤولين لتضليل الناس وخداعهم.

٤- من هذا المحامي الذي أصدر نداءً إلى جماعة شكري للحفاظ على حياة الدكتور الذهبي.. وعلى أي شيء اعتمد عندما أصدر بياناً آخر أكد فيه أن الذهبي لن يمس بسوء، ولماذا الاهتمام بهذا البيان بحيث تمّ نشره وإذاعته في الصحافة والإذاعة والتلفزيون؟!.

ولماذا غادر القاهرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في اليوم الذي تم فيه اختطاف الذهبي، وبعد هذه البيانات التي أصدرها. إن المصلحة توجب حضوره إن كان مسافراً طالما أن له هذه الأهمية فكيف سافر ثم قال بأنه فوجئ بقتل الذهبي، هل صحيح هذا؟!.

وإذا كانت اتصالاته بأحد قادة الجماعة - ماهر - كانت تتم تليفونياً، أما كان يعرف أماكن وجود بعضهم، ومن ثم أما كان بوسع رجال الأمن معرفة أشياء أخرى عن طريق هذا الهاتف، وهل هناك أمور أخرى لم يقلها شوكت التونسي في شهادته أمام المحكمة لاسيما وقد نُشرت أخبار تشير إلى أن بعض مفاوضاته مع جماعة شكري كانت تتم عن طريق زيجات بعض قادة هذه الجماعة؟!.

وأخيراً ماذا يقصد شوكت التونسي من قوله [إن من بين الجماعة متطرفين]، ومن الذين ليسوا متطرفين منهم.. وهل يقصد أن بعضهم ما كان يعلم بالحادث، أو لا يرى مصلحة للجماعة في الإقدام على مثل هذا العمل؟!.

وجملة القول: هناك إشارات استفهام كثيرة حول المحامي شوكت التونسي وتصريحاته.

٥- عندما أدرك رجال الأمن أنه تم تصفية الشيخ الذهبي، وأن فضيحة السلطة - أي قضية المغربي - قد دفنت معه تحركوا فأثبتوا مقدرتهم، وأنهم ما كانوا في حالة استرخاء أو في إجازة كما ظن بعض الناس.

وخلال أيام قليلة كانت جماعة شكري قاعدةً وقيادةً في السجن، وثبت أن أجهزة الأمن كانت تعلم أوكارهم في كل مكان لهم فيه وجود.. ولم يسمع الناس بعد هذا التاريخ - أي الشهر السابع من عام ١٩٧٧ - وحتى كتابه هذه السطور حادث اعتداء واحد قامت به هذه الجماعة ضد أحد من الناس.

وإذا علمنا أن أمر هذه الجماعة أخذ ينتشر منذ عالم ١٩٧١، وأن أعمالهم العدوانية بدأت منذ عام ١٩٧٣، ومن أهم القضايا التي سجلت ضدهم:

* القضية رقم ٦١٨ أمن دولة لسنة ١٩٧٣.

* القضية: ١٩٥٤٩٤ أمن دولة لسنة ١٩٧٥.

* القضية رقم ٨٧٣ أمن دولة لسنة ١٩٧٦.

* القضية رقم ٢٤٧٥٩٨٤ أمن دولة لسنة ١٩٧٧ في القاهرة.

* القضية رقم [١] لسنة ١٩٧٧ في المنصورية.

ومعظم هذه القضايا التي رفعت ضدهم شروع بالقتل مع سبق الإصرار، والمتهمون قيادة الجماعة التي كانت تصدر الأوامر، والأفراد المنفذون للأوامر.

ونكرر طرح السؤال الذي سبق طرحه في الصفحات الماضية:

لماذا تركهم السلطة طوال هذه المدة، وكأنهم يعيشون في غابة؟!!

إن من أبسط معاني الديمقراطية [هذا إذا سلمنا جدلاً بأن النظام المصري خلال هذه الفترة كان ديمقراطياً] وجوب فرض العقاب الرادع والأخذ بشدة على يد كل مجرم فرداً كان أو جماعة.

لم يبق أمامنا إلا الحقيقة التالية على ضوء ما بسطناه من حقائق في الصفحات الماضية:

كانت السلطة تريد هذه الفوضى لأغراض كثيرة، وعندما تم خطف الذهبي وقتله قامت أجهزة الأمن بتصفية هذه الجماعة لأن مهمتها قد انتهت في نظر السلطة.

هل كان الضابط احمد طارق عشاوي جماعة شكري؟!!

قلت غير مرة: في أعقاب كل مؤامرة تبثلى بها الجماعات الإسلامية يبرز دور مشبوه لعناصر كانت من الذين يصنعون القرار داخل هذه الجماعة.. ففي محنة ١٩٦٥م برز دور عميل السلطة [علي العشاوي] الذي كان من ركائز التنظيم، بل ومن الذين يجنحون إلى التطرف، فهل كان الضابط أحمد طارق [الذي كان مسؤولاً عن اختطاف الذهبي] عشاوي جماعة شكري؟!!

وجهت هذا السؤال إلى عدد من الذين كانوا يعرفون أحمد طارق عن كثب فأفادوني بما يلي:

كان ضابط البوليس أحمد طارق شديداً يدعو إلى إزالة الفساد بالقوة، وفاوض

ذات مرة إحدى جماعات الجهاد على العمل سوية، وزعم أنه يقود تنظيمًا سريعاً يربو عدد أفرادها على ٢٠٠ شخص وأنهم مدربون تدريباً جيداً على استخدام مختلف أنواع الأسلحة.. وعرض على أفراد آخرين نسف (كازينو) جديد في البلدة، فرفض الشباب التعاون معه وأوجسوا منه خيفة لأنه كان ضابطاً في [البوليس]، وما كان يرتدي لباسه العسكري، ولا كان يداوم في نادي الضباط الذي زعم أنه كان يعمل فيه، وعندما كان ممنوعاً تداول أو طباعة كتاب [معالم في الطريق] لسيد قطب رحمه الله، كان أحمد طارق ينشر هذا الكتاب في أوساط الشباب الذين يعرفهم، وكان يعتكف مع الشباب في العشر الأواخر من رمضان، ويحضر حلقات القرآن دون انقطاع.

وقال مرة لمجموعة من الشباب: إنه من جماعة يحيى هاشم وقد شهد مصرعه، وسأل الشباب أحد الذين كانوا يعملون مع يحيى هاشم عن أحمد طارق فأجاب:

ليس من جماعتنا، وكنا نشك به فاحذروا منه.

وفي يوم من الأيام جاء إلى دكان أحد أعضاء جماعة من جماعات الجهاد يعرفه وقال له: لو سمحت خذ هذه الحقيبة وضعها أمانة عندك. فسأله صاحب الدكان عما بها فقال: متفجرات. فنهره وطرده من دكانه ثم ذهب صاحب الدكان إلى مباحث أمن الدولة وقال لهم:

(خذوا صاحبكم ده وبطلوا لعب.. صاحبكم يحضر لنا ديناميت) وداهم مباحث

أمن الدولة بيته فوجدوا عنده متفجرات ومسدساً غير مرخص.. ورغم ذلك لم يقبض عليه ولم يعتقل.. وقال الشباب في تفسير هذه الظاهرة: يبدو أن مباحث أمن الدولة في هذه المدينة كانت تجهل دوره ولذلك قامت بتفتيش منزله، ثم تدخلت الجهة المسؤولة عنه فلم يعتقل.

وأخيراً اتصل أحمد طارق بقوم شكري وانضم إليهم، وانقطعت أخباره عن الشباب الذين كان يعرفهم، وكانوا يشكون من مواقفهم السلبية نحوه وغادر المدينة التي كان معروفاً فيها.

وقال هؤلاء الشباب الذين أثق بدينهم وصدقهم: كان أحمد طارق يتصرف في حالات الغضب تصرفات مؤسفة ليس فيها التزام بالسلوك الإسلامي، بل وكأنه ليس متديناً.

قلت لهم: بماذا تفسرون إعدام السلطة له؟

قالوا: حتى لا يبقى شاهداً على الجريمة التي خططت لها السلطة.. فرأيت أن وجهة نظر الشباب تستحق التسجيل.

المبحث الرابع

الأهداف التي حققتها السلطة

أولاً - شنت حملة واسعة ضد الإسلاميين

استنفرت السلطة أجهزةها الرسمية، واستخدمتها في حرب شرسة ضد الإسلاميين:

* فأجهزة أمنها أخذت تعتقل المواطنين المتدينين، وتقتاد الناس من متاجرهم ومن الشوارع لأنهم أطلقوا لحاهم والتزموا بسنة المصطفى ﷺ، ولا تهتم أو تتبين من حقيقة انتماءاتهم، وهل هم من جماعة شكري أم لا، وحسبها أنهم متدينون وملتزمون بالسنة ومن رواد المساجد.

* وأجهزة إعلامها: أخذت تنشر الدراسات والاستطلاعات، وتعد الندوات، وتلفق الأخبار، وتذيع ما تسميه وثائق، ولا أقول كل ما كانت تنشره ليس صحيحاً، فبعضه حدث فعلاً، ولكن لا يجوز أن يحاسب عليه الأبرياء.

* ووزارة الأوقاف كان لها دور فعال من خلال المساجد في هذه الحملة الظالمة، والمهمات التي قام بها معظم شيوخ الأزهر كانت لا تختلف في حال من الأحوال عن المهمات التي قام بها رجال الأمن والإعلام.

* وأجهزة الإعلام العالمية كانت تستقي أخبارها من وكالات أنباء السلطة، أو من الإذاعات المشهورة في عداوتها للإسلام والمسلمين: كإذاعة لندن، وصوت أمريكا، ومونت كارلو، وإسرائيل، وموسكو، وغيرها من الإذاعات ووكالات الأنباء الشرقية منها والغربية.

ومن المؤسف أننا لا نجد في مثل هذه الظروف إذاعة واحدة تقول الحق أو تقف على الحياد على الأقل، وهكذا يبقى الصوت الإسلامي مخنوقاً، ويمارس ضد الدعاة والجماعات تعميم إعلامي رهيب، يصعب اختراقه.

والمواطنون في مصر يتابعون نشرات الأخبار المحلية منها والعالمية، ويشاهدون في الصحف وعلى شاشة التلفاز أصحاب اللحي من الشباب وهم يدلون باعترافاتهم وجرائمهم.. ثم يسمعون فتاوى علماء الأزهر بمثل هذه الأفعال التي لا يقرها دين ولا خلق.

والسلطة كانت بارعة جداً في هذه المسرحية. لقد ألصقت بجماعة شكري مسؤولية انفجارات ثلاثة رافقت اختطاف الدكتور الذهبي:

الأول: بسينما [سفنكس] بالعجوزة، والثاني في ميدان العتبة، والثالث في معهد الموسيقى العربية، وقد أسفر عن هذه الانفجارات إصابة بعض الأبرياء الذين كانوا في تلك الأمكنة وما يجاورها من شوارع وساحات عامة بأضرار وجروح.

وزعمت السلطة أيضاً بأن جماعة شكري يخططون لقلب نظام الحكم ولتدمير المؤسسات العامة، وهذه الجماعة تؤمن فعلاً بوجوب تدمير مؤسسات النظام، لكنني أستبعد أن يكونوا وراء هذه الانفجارات، أما قلب نظام الحكم فغير وارد عندها ولا تؤمن أصلاً بأسلوب الانقلابات والسلطة أول من يعرف هذه الحقيقة.

هذه الأمور مجتمعة جعلت الشعب المصري يتساءل بدهشة واستغراب:

* أهذه هي حقيقة الجماعات الإسلامية؟!.

* أهؤلاء الذين يعملون من أجل أن يكون الدين كله لله؟!.

* إذا كان هذا موقفهم من عالم كبير من علماء المسلمين، ماذا ننتظر أن يكون موقفهم منا؟!.

* ما الذي يميز هؤلاء عن نظام عبد الناصر أو غيره من الأنظمة؟!.

ومما يجدر ذكره أن عامة الناس يخلطون ما بين الإسلام وحملته من الدعوة، وإذا أخطأت مجموعة ضئيلة من أهل الغلو والتنطع ينسبون هذا الخطأ للجماعات كلها. ومن هنا نقول: لقد نجح النظام في الحملة التي شنّها ضد الجماعات الإسلامية، وكان أصحاب شكري غطاء ناجحاً لهذه الحملة.

ثانياً - فرق تسد

الذين دبّروا حادث اختطاف الذهبي من جماعة شكري لا يتجاوزون العشرين، ومئات من شباب هذه الجماعة سمعوا الخبر كما سمعه عامة الناس في مصر، وخلال بضعة أيام وجدوا أنفسهم داخل السجون والمعتقلات المظلمة وأخذ المجرمون الجلادون يلهبون ظهورهم بالسياط التي أعدت لهذا الغرض.

* كيف نُعتقل لأمر لا نعرف عنه شيئاً، بل وليس من حقنا أن نسأل أو نعترض؟!.

* ما مصلحة الجماعة من اختطاف الذهبي وقتله؟!.

ولهذا وثّق كثير منهم علاقاته مع رجال المخابرات، وكانوا في الخفاء

يكتبون لهم التقارير عن نشاط إخوانهم وغيرهم من فلول الحركات الإسلامية التي نالها ما نال جماعة شكري من ديمقراطية السادات المزعومة، أما في الظاهر فكانوا أمثلة غريبة في طاعتهم المطلقة وشدة انضباطهم لكل ما تأمرهم به جماعتهم، وهذا نفاق ظاهر، ويعد في شرع الجماعة ردة عن الإسلام يستحق فاعله القتل في الدنيا، ويوم القيامة يكون من الخالدين المخلدين في نار جهنم.

وهكذا انقسمت الجماعة على نفسها، وكثر عدد الذين يعلنون انسحابهم منها بين كل فترة وأخرى، وتم إعدام العناصر المؤثرة من قاداتها، والفراغ الذي يتركه هؤلاء يصعب أن يسده أحد بعدهم، ويضاف إلى هذا وجود معظمهم داخل السجون والمعتقلات.

أما كثير من علماء الأزهر، وشيوخ السلطة، فلقد هزم نياً اختطاف الشيخ الذهبي - رحمه الله - وقتله، وزاد من خوف هؤلاء العلماء وقلقهم ما زعمته السلطة عبر أجهزة إعلامها بأن اختطاف الذهبي بداية في طريق جديد سوف تسلكه هذه الجماعة، وقد عثرت أجهزة الأمن على وثائق تؤكد أن معظم كبار علماء مصر مهددون بالقتل.

وأصبح كبار العلماء يتوجسون خيفة من كل شيء، والتجؤوا إلى مراكز الأمن يطلبون حمايتهم من شر مستطير ينتظرهم، واستجابت السلطة لمطلبهم وقامت بتعزيز حراستهم، وكان رجال الأمن يعتقلون

كل الذين يقتربون من بيوت شيوخ السلطة من أصحاب اللحى، فإن عرفه الشيخ أطلق سراحه، وإلا فيقاد إلى السجن ثم لا يعرف مصيره إلا أن يشاء الله سبحانه وتعالى.

ودفع كبار العلماء ثمن حمايتهم باهظاً، فكانوا يقولون في الصحف والإذاعة والتلفاز أكثر ما تريده السلطة، وقد أسفوا كثيراً في هجومهم على جماعة شكري وفي التأكيد على ولائهم للظالمين وثنائهم عليهم.

أما الجماعات الإسلامية فلقد فوجئت بالخبر، وأصبحت مستهدفة من السلطة التي تحارب كل من يدعو إلى الله تعالى ويرفض تقديم الولاء والطاعة لها، ومن جهة أخرى فهذه الجماعات الإسلامية مرتدة عن الإسلام في نظر جماعة شكري، وقد سبق لهم الاعتداء على بعض قادة الجماعات الأخرى وحاولوا قتلهم.

وإذن ليس غريباً على جماعة شكري أن لا تجد من يتعاطف معها في محنتها، وأن يسارع الدعاة والجماعات الإسلامية إلى إعلان استنكارها وبراءتها من الجريمة النكراء ومن الذين اقترفوها.. وكان نظام السادات المستفيد الوحيد من جميع هذه السلبيات في الساحة الإسلامية، بل هو الذي خطط لها منذ أن انتهى إليه عرش مصر.

ثالثاً - تصفية الذهبي

نجح النظام في قتل وزير سابق رفض أن يغوص في أحوال السلطة، وأعرض عن الجاه والسلطان، وأصر - رغم التهديد والوعيد - على فضح اللصوص والقراصنة من كبار المسؤولين.. وكان يعلم أن حياته سوف تكون ثمناً لمثل هذا الأمر الذي أقدم عليه ورفض التراجع عنه.

ونجح النظام أيضاً في غسل أدمغة قادة حركة إسلامية، واستدراجهم إلى ارتكاب جريمة بشعة كان ضحيتها داعية من دعاة الإسلام، ولو تم اغتيال الشيخ الذهبي عن طريق غير جماعة شكري لاتجهت أصابع الاتهام إلى السلطة، ولكان قتله مصيبة على النظام، ولكثر الحديث عن قضية عويضة والمغربي.

ولكن النظام الماكر أصاب عصفورين بحجر واحد، ونجح في إشعال الرأي العام بحملته التي شنّها ضد جماعة شكري.. وثبت أن الإعداد لهذه الحملة كان منذ بضعة أشهر.

رابعاً - التمهيد للصالح مع اليهود

* تم اختطاف الشيخ الذهبي رحمه الله ثم قتله في بداية الشهر السابع سنة ١٩٧٧.

* زار رئيس النظام المصري القدس المحتلة في ١٩ / ١١ / ١٩٧٧. وبدأت مفاوضات العلنية الرسمية مع اليهود منذ تاريخ زيارته الأولى للكنيست

الإسرائيلي.

وإذن: بدأ السادات في اضطهاد الدعوة والجماعات الإسلامية قبل أربعة أشهر من زيارته للقدس المحتلة.

* تم تنفيذ حكم الإعدام بشكري مصطفى ومن معه من قيادة جماعته في ١٩٧٨ / ٣ / ٣٠.

وتنفيذ حكم الإعدام في ١٩٧٨ / ٣ / ٣٠ يعني أمرين:

الأول: تهديد للمعارضة ولكل من تسول له نفسه القيام بعصيان أو مظاهرة ضد النظام.

الثاني: لا يقبل اليهود صلحاً مع السادات إلا إذا سحقت الدعوة إلى الله، وأخمد أصواتهم، ويعلم اليهود علم اليقين أن الجماعات الإسلامية هي العدو الحقيقي لها، ونمو قوة هذه الجماعات يعني دمار اليهود.. ولهذا بطش السادات ظاهرياً بجماعة شكري وحقيقة بعموم الدعوة إلى الله، ومن قبل بطش بتجمع الفنية العسكرية، ومن بعد بطش بالجميع.. ومن يتتبع أحداث المنطقة خلال أكثر من ثلاثين عاماً يعلم أنه ما من ضربة وجهت للإسلاميين إلا وأعقبها عقد صفقة مع اليهود.

من المسؤول؟

* من المسؤول عن مأساة هذه الجماعة التي ذهب ضحيتها مئات من الشباب بين سجين وقتيل؟!

ومأساة الانحراف عن منهج الله أشد خطراً من السجن أو القتل.

* من المسؤول عن مآسي جماعات كثيرة ابتلاها الله قبل جماعة شكري وبعدها، وكانت نتيجة هذا الابتلاء عشرات^(١) الآلاف من الشباب بين قتيل وجريح وسجين ومطارد في أرض الله الواسعة!

* من المسؤول عن مصائب ومآس تلوح في الأفق!

بعض كتابنا الأفاضل الذين تصدوا لعلاج هذه الظاهرة قالوا:

إن المسؤول عن ذلك كله أعداء الإسلام، الذين يمكرون بنا مكر الليل والنهار ويوجهون لنا أشرس الضربات.

غفر الله لإخواننا وهل كانوا ينتظرون من عدونا أن يقدم لنا باقات الورود، أو أن يوزع علينا الجوائز والمكافآت التشجيعية تقديراً للجهود التي نبذلها في حقل الدعوة الإسلامية؟

وآخرون من كتاب الدعوة الإسلامية قالوا إن المسؤول عن ذلك كله شكري وغيره من المنحرفين.

(١) عشرات في تلك الفترة، وفي هذه الفترة تبلغ مئات الآلاف.

ونحن لا ننكر انحراف شكري وأمثاله، ولكن القضية أكثر عمقاً وأعظم خطراً.

إن كبار العلماء والدعاة من أهل السنة والجماعة مسؤولون عن دراسة الأجواء والظروف التي نشأت فيها مثل هذه الأفكار المنحرفة، كما أنهم مسؤولون عن تحصين الصف الإسلامي بالعلم والمعرفة، لأن الجهل مرتع خصب لدعاة الهدم والتخريب.

لنقلها صريحة: لو كان في أمتنا علماء مجاهدون أمثال: أحمد بن حنبل، وعمر بن عبد العزيز، وابن تيمية، العز بن عبد السلام وغيرهم.. وغيرهم لما استطاع عدونا ضرب الصف الإسلامي من داخله، ولا تمكن شاب جاهل من وضع أصول جديدة في دين الله، وتجميع مئات الشباب حول أهوائه وضلالته.

الفهرس

- ٥ * مقدمة الطبعة الرابعة
- ٨ * المقدمة
- ١٦ * مصادري فيما كتبتة عن جماعة شكري
- ٢٣ * منهجي في البحث

الفصل الأول

الاجتهاد والتقليد

- ٣٣ المبحث الأول: عرض أقوال الجماعة في التقليد
- ٣٤ أولاً: الرد عليهم - أي ردهم على أهل السنة
- ٣٦ ثانياً: ثلاثة أمور حول مسألة التقليد
- ٣٧ ثالثاً: أصل الشر هو التقليد وعبادة الرجال للرجال
- ٣٨ رابعاً: صورة التقليد المتخذة الآن
- ٣٩ المبحث الثاني: دحض أقوال جماعة شكري
- ٣٩ الوجه الأول: نعم، التقليد المذموم مأساة في تاريخنا

- ٤٢ الوجه الثاني: الدعوة إلى العلم والاجتهاد والتحذير
من التقليد
- ٤٥ الوجه الثالث: العامة لا بد لهم من التقليد
- ٥٠ الوجه الرابع: أقوال العلماء في الاجتهاد والتقليد
- ٥٦ الوجه الخامس: من اجتهد فأصاب فله أجران ومن
اجتهد فأخطأ فله أجر واحد
- ٥٩ الوجه السادس: شكري فيما قاله عن التقليد كان
مقلداً فيه
- ٦٣ الوجه السابع: استدلالهم بقول ابن عباس
- ٦٦ الوجه الثامن: افتراؤهم على أهل السنة
- ٧٠ الوجه التاسع: استهانتهم بالعلماء الأعلام

الفصل الثاني

الإجماع

- ٧٥ * لماذا أفردنا للإجماع فصلاً
- ٧٦ الوجه الأول: حجية الإجماع

- ٨٥ الوجه الثاني: مستند الإجماع
- ٨٨ الوجه الثالث: التقليد
- ٩١ الوجه الرابع: أنواع الإجماع
- ٩٤ الوجه الخامس: حكم منكري الإجماع

الفصل الثالث

أقوال الصحابة وأنعالهم

- ٩٧ * عرض أقوال الجماعة
- ١٠٥ * مناقشة أقوالهم وبيان بطلانها
- ١٠٥ الوجه الأول: تعريف الصحابي
- ١٠٨ الوجه الثاني: ميزات انفرد بها الصحابة
- ١١٢ الوجه الثالث: حديث أصحابي كالنجوم
- ١١٦ الوجه الرابع: أين الدليل على اهتمامهم بالسنة
- ١٢١ الوجه الخامس: رمي الصحابي بالجهل
- ١٢٩ الوجه السادس: أيهما أفضل: جيل الصحابة أم جيل آخر الزمان؟

- ١٣٠ - الأحاديث الواردة
- ١٣٣ - أقوال العلماء
- ١٣٩ الوجه السابع: تناقضات وتدليس
- ١٤٥ الوجه الثامن: التقليد
- ١٤٧ الوجه التاسع: هل كان شكري وماهر أكثر علماً من أبي بكر وعمر؟!

الفصل الرابع

الكتاب والسنة

- ١٥٥ * تقديم وتأخير
- ١٥٧ * أمور لا بد من معرفتها عند أهل البدع والأهواء
- ١٦١ * أصلاً جديداً
- ١٦٧ * عرض أقوالهم في فهم الكتاب والسنة
- ١٧٠ * نقد أقوالهم في الكتاب والسنة
- ١٧٠ الوجه الأول: ما هو التفسير؟
- ١٧٤ الوجه الثاني: أوجه تفسير القرآن

- ١٧٤ - تفسير القرآن بالقرآن
- ١٧٦ - تفسير القرآن بالسنة
- ١٧٩ - تفسير الصحابة للقرآن
- ١٨١ الوجه الثالث: المحكم والمتشابه
- ١٨٧ الوجه الرابع: عبث في كتاب الله
- ١٨٨ - قولهم في تفسير آية [القصص]
- ١٨٩ - جماعة آخر الزمان
- ١٩١ - قولهم القرآن لا يحتاج إلى تفسير
- ١٩٢ - فاسألوا أهل الذكر
- ١٩٣ - بدعة إقامة البيعة
- ١٩٥ * خلاصة نقدنا لمنهجهم في التفسير
- ١٩٨ * السنة النبوية
- ١٩٨ الوجه الخامس: سند الحديث
- ٢٠١ الوجه السادس: متن الحديث
- ٢٠٤ * أوامر عسكرية أم أدلة شرعية

الفصل الخامس

بدعة تكفير مرتكبي الكبائر

- ٢٠٧ * التحذير من المعاصي
- ٢١٢ * اعتمادهم على عمومات النصوص
- ٢٢٠ * أقوالهم في الكفر والظلم والنفاق
- ٢٢٢ * الأدلة على بطلان أقوالهم
- ٢٢٢ - ظلم دون ظلم
- ٢٢٥ - كفر دون كفر
- ٢٢٦ - نفاق دون نفاق
- ٢٣١ * الأدلة على أن المعاصي لا تخرج من الملة
- ٢٣١ - الأدلة من القرآن الكريم
- ٢٣٧ - الأدلة من السنة النبوية
- ٢٤٢ - الحدود
- ٢٤٥ * الكبائر والتوبة
- ٢٤٦ - المغفرة

- ٢٤٨ - الاستغفار
- ٢٤٨ - الحسنات
- ٢٤٩ - المصائب الدنيوية
- ٢٤٩ - القصاص
- ٢٥٠ - شفاعة الشافعين
- ٢٥١ - عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة
- ٢٥٣ * أقوالهم في الإصرار على المعصية
- ٢٥٣ * الرد عليهم
- ٢٥٣ - تناقضاتهم
- ٢٥٥ - ما الإصرار؟
- ٢٥٧ - تحقيق لابن حجر العسقلاني
- ٢٦٤ - قصة أبي محجن الثقفي
- ٢٦٥ - طبقات العصاة
- ٢٦٩ * حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
- ٢٨٠ * براءة النووي مما نسبوه إليه

الفصل السادس

أصول وتصورات أخرى

- ٢٨٧ المبحث الأول : المهدي المنتظر
- ٢٨٩ * عرض أقوال الجماعة
- ٢٩٣ * مناقشة أقوالهم
- ٢٩٣ الوجه الأول: صحة الأخبار التي وردت عن ظهور المهدي
- ٣٠١ الوجه الثاني: ظهور المهدي من علامات الساعة التي استأثر الله بعلمها
- ٣٠٥ الوجه الثالث: تناقضات مؤسفة
- ٣١٠ الوجه الرابع: دروس وعبر من التاريخ
- ٣١٧ المبحث الثاني: دعوة إلى الأمية
- ٣١٩ * عرض أقوال الجماعة
- ٣٢٢ * مناقشة أقوالهم
- ٣٢٢ الوجه الأول: أمة أمية ماذا تعني؟

- ٣٢٩ الوجه الثاني: تأبير النخل
- ٣٣١ - توضيح أمور مهمة
- ٣٣٦ الوجه الثالث: تناقضات
- ٣٣٩ المبحث الثالث: موقفهم من التاريخ الإسلامي
- ٣٤١ * عرض أقوالهم
- ٣٤٣ - شهادة أبي الخير
- ٣٤٤ - من أقوال شكري أمام هيئة محكمة أمن الدولة
- ٣٤٦ * مناقشة أقوالهم
- ٣٤٦ الوجه الأول: حجم ما أنكروه من التاريخ
- ٣٤٦ - أهمية التاريخ
- ٣٥١ الوجه الثاني: موقفهم من الأئمة الأعلام
- ٣٥٥ المبحث الرابع: متى يبدأ دور هذه الجماعة؟

الفصل السابع

نظرات في تاريخ الجماعة

- ٣٦٩ المبحث الأول: الأوضاع العامة التي سبقت المحنة
- ٣٧٦ - كلمة لا بد منها
- ٣٨٣ المبحث الثاني: الجماعة من الداخل
- ٣٨٥ أولاً: المناخ الذي ولدت فيه أفكار الجماعة
- ٣٩١ ثانياً: أضواء على شخصية شكري مصطفى
- ٣٩٥ ثالثاً: كيف تفجرت المشكلة
- ٤٠٠ رابعاً: مفهوم القيادة عند الجماعة
- ٤٠٤ خامساً: الآثار الناجمة عن مزاجية القائد
- ٤٠٨ سادساً: خوف الكل من الكل
- ٤١٢ سابعاً: سقوط الجماعة في شرك السلطة
- ٤١٢ - بداية التعاون مع السلطة
- ٤١٣ - التردد على مراكز السلطة

- ٤١٥ - حوار مثير
- ٤١٨ - لغة الحسابات الدقيقة
- ٤٢٠ - مآخذ واستدراكات
- ٤٢٥ **المبحث الثالث: ملف اغتيال الذهبي**
- ٤٢٧ أولاً: من الذهبي؟!
- ٤٢٩ - كتابه: مشكلات الدعوة والدعاة
- ٤٣٢ ثانياً: من المستفيد من قتل الذهبي؟!
- ٤٣٦ - حوار بين المحامي وأسماء الذهبي
- ٤٣٧ ثالثاً: عملية الاختطاف ودور السلطة
- ٤٤٠ - استطلاع مجلة الحوادث
- ٤٤١ - ملاحظات مهمة
- ٤٤٩ **المبحث الرابع: الأهداف التي حققتها السلطة**
- ٤٥١ أولاً: شنت حملة واسعة ضد الإسلام والمسلمين
- ٤٥٣ ثانياً: فرق تسد
- ٤٥٦ ثالثاً: تصفية الذهبي

٤٥٦

رابعاً: التمهيد للصالح مع اليهود

٤٥٨

• من المسؤول؟

٤٦١

الفهرس

صدر للمؤلف

- ١ - أزمة أخلاق. دار الجابية
- ٢ - وجاء دور المجوس. الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ..؟ دار الجابية
- ٣ - أيقاظ قومي أم نيام ..؟ دار الجابية
- ٤ - اغتيال الحريري وتداعياته على أهل السنة في لبنان. دار الجابية
- ٥ - العلماء وأمانة الكلمة. دار الجابية
- ٦ - أحوال أهل السنة في إيران. دار الجابية
- ٧ - مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان / الجزء الأول. دار الجابية
- ٨ - الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو "جماعة المسلمين". دار الجابية
- ٩ - الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو "التوقف والتبيين". دار الجابية

تحت الطبع

- ١ - مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان / الجزء الثاني
دار الجابية
"أمل الشيعة والمخيمات الفلسطينية".
- ٢ - الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو "خوارج
دار الجابية
العصر".
- ٣ - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.
دار الجابية
- ٤ - مساجد الضرار .
دار الجابية
- ٥ - دراسات في السيرة النبوية.
دار الجابية